FOR THE
MOST DISTINGUISHED
CONTRIBUTION
TO
AMERICAN LITERATURE
FOR CHILDREN

معجزات فوق تل مابل

ڤيرچينيا سورنسن

نهضة مصر

معجزات فوق تـل «مـابـل»



معجزات فوق تل «مابل»

تأليف : ڤرچينيا سورنسن

رسوم : بيث و چو كروش

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

تأليـــف : ڤرچينيا سورنسن

رســـــوم : بيث و چو كروش

ترجمــة : نبيلــة النقـراشـى

إشـــراف : داليا محمد إبراهيم

Original English title : MIRACLES on MAPLE HILL

Published by arrangement with Scholastic Inc.,

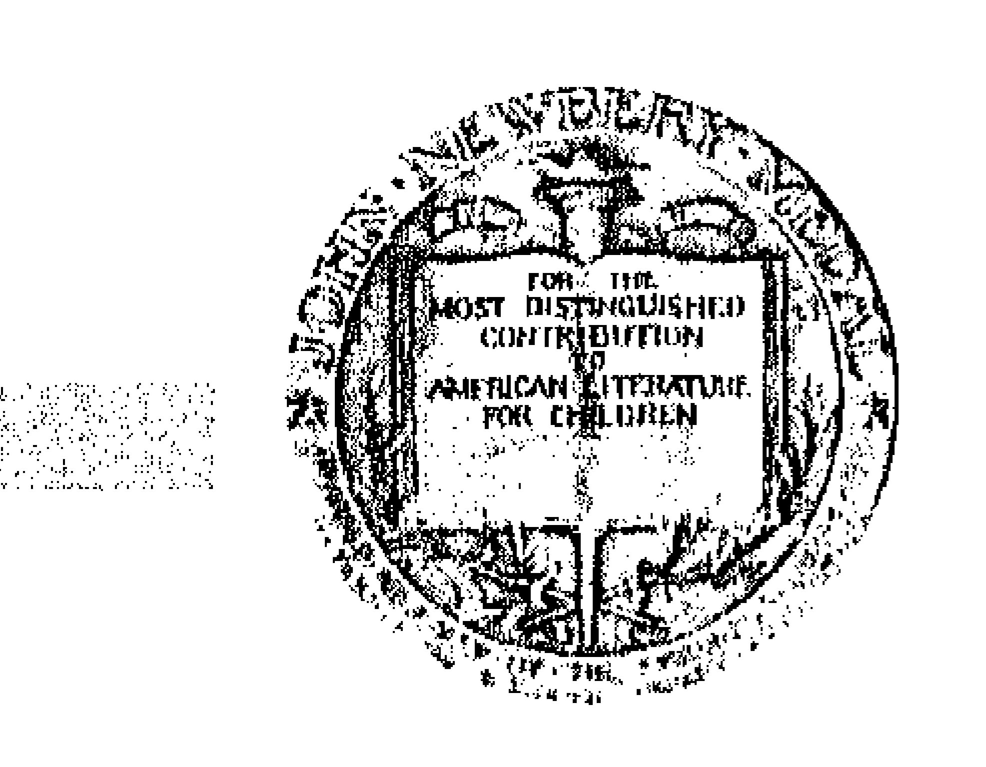
ترجمة كتاب MIRACLES on MAPLE HILL تصدرها شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - بترخيص من .Scholastic Inc



الترقيم الدولى : 4-3039-14-977 رقم الإيداع : 2005/8289 تاريخ النشر : إبريل 2005

الإدارة العامة : 21 ش أحمد عرابى - المهندسين ص.ب : 21 إمبابة ت : 3466434 - 3472864 فاكس : 02/3462576
المركز الرئيسى : 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة 6 أكتوبر ت : 8330287 - 8330289 فاكس : 02/8330296
مركز التوزيع : 18 ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة ت : 5909827 - 5908895 - 5898085 فاكس : 02/5903395
فرع الإسكندرية : 408 طريق الحرية - رشدى ت : (03)5230569 www.nahdetmisr.com
فرع المنصورة : 47 ش عبد السلام عارف ت : (050)2259675 publishing@nahdetmisr.com

جائزة نيوبرى



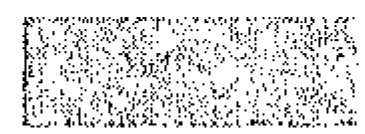
تقدم هذه الجائزة كل عام لأفضل كاتب للأطفال فى الولايات المتحدة الأمريكية.. والكاتب الذى يحصل عليها، يحجز لنفسه مكانًا فى قائمة أعظم الكتّاب.. فهى أكبر وأقدم جائزة فى الولايات المتحدة.

وقد بدأ تقديمها عام 1922، عندما اقترح فريدريك ميلشر على اتحاد المكتبات الأمريكية إنشاء هذه الجائزة، على أن تقدم باسم چون بيرى، وهو أقدم بائع لكتب الأطفال فى القرن الثامن عشر فى إنجلترا.

يهدف الاتحاد من تقديم الجائزة إلى التشجيع على الابتكار والأفكار الخلاقة فى حقل الكتابة للشباب، سواء أكان شعرًا أم رواية أم مسرحية.. كما حدد لها شروطًا كثيرة منها: أن يكون العمل منشورًا فى نفس العام، ولم يسبق نشره، كما أن الكاتب يجب أن يكون مواطنًا أمريكيًّا.

ويفوز الكاتب بميدالية برونزية صممها بول تشامبلان، محفور عليها اسم الكاتب، وتاريخ الفوز بها.

وفى عام 1973، اقترح فريدريك.ج. ميلشر تقديم جائزة كالديكوت لأفضل تصميم، أو رسم لكتاب الطفل، وسميت بهذا الاسم؛ تكريمًا لرسام الأطفال الإنجليزى فى القرن التاسع عشر راندولف كالديكوت.



بعض الكتب الحائزة على جائزة نيوبرى



1 ـ صيف البجع.

2 ـ معجزات فوق تل «مابل».

3 ـ ساوندر.

4 ـ السفر فى الزمن.

5 ـ الأسير.

6 ـ راسكال.

7 ـ لعبة «ويستنج».

8 ـ سى بيسكيت.

9 ـ إيللا المسحورة.

قصص أخرى للشباب :

1 ـ الأعظم.. محمد على.

2 ـ الأخوان رايت.

3 ـ العصّار.

4 ـ الخاسر.

المحتويات

إلى كل من عاونني

هارفي كريتز

والدو باتس

ورويس مالوري

و

العم كريس

1 فضـــاءات مُمتـــدة

قالت «مارلى»: حدثينى يا أمى عن الانطلاق مرة أخرى.

انزلقت «مارلى» على مقعد السيارة؛ لتتحدث إلى أمها من فوق ياقة معطفها وقالت: «حدثينى عن الانطلاق بنفس الطريقة التى كانت جدتك تتحدث عنه بها».

ليس ثانية يا «مارلى»، ثم مِن فضلك لا تتنفسى فى رقبتى يا عزيزتى.

وكانت الأم تتولى القيادة والطريق ضيقة ومغطاة بالثلوج وتثير القلق.

«فقط، حدثينى عنه مَرّة واحدة أخرى فقط. بالطريقة التى كانت جدتك تتحدث عنه بها».

ولاحظت «مارلى» النظرة التى توجهت بها الأم إلى الأب، الذى كان يجلس إلى جوارها فى المقعد الأمامى، وخمنت أن الأم كانت تخشى أن يعترض الأب على سماع نفس الشىء مرارًا وتكرارًا.

كان أكثر إرهاقًا من المعتاد، فعندما يطلب مِن الأم أن تتولى القيادة، فإنه يكون مرهقًا للغاية. والآن جلس بعينين مغمضتين وذقن مخفاة فى ياقة الچاكت.

لكن فى الحقيقة ومن أجله هو أرادت «مارلى» أن تتحدث أمها عن الانطلاق مرة أخرى. ربما كان يظن من معها فى الرحلة أنها تجهل لماذا يتجهون إلى تل «مابل»، ولكنها كانت تعرف، إلا أنها قالت: «مرة واحدة فقط وأعدكِ بأننى لن أطلب منك هذا بعد ذلك أبدًا.. أعدك يا أمى».

لصق «چو» شقيق «مارلى» وجهه بالنافذة كالذبابة العجوز منذ بداية الطريق من مدينة «بيتسبرج»، ثم أدار وجهه كنوع من التغيير وسألها: لماذا لا تقصّين هذا على نفسك؟ لقد حكت أمى هذا ألف مرة! قالت «مارلى»: إننى أريدها هى أن تتحدث عنه مرة واحدة أخرى فقط، ولو سألها «چو» لماذا تريد من أمهما أن تفعل هذا لما استطاعت «مارلى» أن تخبره.

والحقيقة أنه عندما تنطق «الأم» بتلك الكلمات المحددة، تعود كل المشاعر الطيبة.. ففى هذه الكلمات يوجد المنزل والباحة وتل «مابل» كلها، وتمامًا مثل الأم تستطيع «مارلى» أن تتذكرها.

كذلك كانت الجدة موجودة بها، وبالطريقة التى وصفت بها «الأم» صوتها، مثل صوت الطائر إذا تظاهر بالنزق، رغم أنه ليس كذلك فى الحقيقة.

وأيضًا كانت «الأم» موجودة بهذه الكلمات، لكن بطريقة خاصة. ليس كما هى الآن، لكن كما كانت وهى فى عُمر «مارلى».

وقد اعتادت أن تأتى كل صيف لزيارة جدتها فى تل «مابل»، هنا فى أطراف بنسلڤانيا.

وهناك شىء آخر لا تدركه «مارلى» وهو أن العديد من الأشياء قد توجد فى كلمات معدودة.

لكن ذلك يطابق تلك الحالة التى يتركز فيها الشعور الكُلّى بالمدرسة فى صوت جرس يدق، أو بالطريقة التى يتركز فيها الشعور بفصل الربيع فى طائر «أبو الحناء» فوق صندوق للبريد مثبت إلى السور.

فتح الأب عينيه وقال: «لي» بوسعك أن تقوليها وننهى هذا الوضع، ولم ينظر للأم أو لـ «مارلى» أو لأى شخص آخر.

كان يهوى أن يقود بنفسه، خاصة عندما تكون الطريق بمثل هذا السوء. لكنه كان مرهقًا للغاية، بعد أن عاد بوقت قليل إلى البيت، وبينما كان الناس يتعجبون فى المقام الأول من عودته، بعد أن كان جنديًا وسجينًا وكل الأشياء الأخرى، سمعته «مارلى» يقول لأمها: أظن أننى سأظل مرهقًا للأبد.

لكن «الأم» أجابت: بالتأكيد لن يحدث ذلك. تعرف يا «دال» كُنْتُ أُفكر فى إمكانية أن نصعد إلى ذلك المكان القديم الخاص بالجدة، «تل مابل» حيث عاشت الجدّة. إن كل ما تحتاج إليه هو قضاء بعض الوقت فى الخلاء.

بدأت «الأم» كلامها قائلة: «بصراحة يا «مارلى»، أنا لا أفهم. لكنها تنهّدت ثم بدأت تحكى. دأبت «مارلى» لفترة طويلة ـ عندما كانت صغيرة ـ على تصحيح أية كلمة للأم حتى لو كانت مختلفة اختلافًا طفيفًا؛ لذا فالآن تحرص «الأم» دائمًا على أن تنطقها سليمة تمامًا فى كل مقطع منها. وتؤكد على كل كلمة حتى تخرج قوية، كما يحدث فى نشيد الحضانة.

«انطلقا أنتما الاثنان بحق الله.. فهناك، فى الأعلى، الخلاء فى كل مكان».

عندئذ رجعت «مارلى» إلى الخلف على مقعد السيارة، فإذا كان المكان كله خلاءً، فلن يكون هناك الكثير من الأماكن المغلقة حيث توجد كل المتاعب، وكان باستطاعتها أن ترى المرأة العجوز صغيرة الحجم فى ثوب أزرق ومريلة بيضاء وبيدها مقشتها. كانت تتظاهر بأنها تُبعد الأولاد ـ كما قالت أمها ـ لأنهم يتسكعون حول البيت بعد وصولهم. وعندما ذكرت أمها ذلك لأول مرّة منذ فترة طويلة سألتها «مارلى»: «لماذا كنت تتسكعين؟ لماذا لَمْ تخرجى لتلعبى؟»، ضحكت أمها وقالت: «أرجعت الجدة ذلك إلى أننا كُنّا محبوسين فى المدينة، وهكذا اعتدنا على وجود الجدران حولنا والأسقف فوق رءوسنا لدرجة أن رؤية السماء والريف كانت تخيفنا بشدة، كانت الجدة تكره المدن، ونادرًا ما استطعنا أن نقنعها بالحضور لزيارتنا. كانت تُصر على مجيئى وأخى كل صيف إلى تل «مابل»، وكانت تقول لنا: «إن المكان الوحيد الذى يستحق الاهتمام هو المكان الذى يستطيع الطفل أن يخرج فيه ويلهو كما يحلو له»».

الخلاء الشاسع.. حملقت «مارلى» من النافذة إلى الطريق بجانبها وكذلك فعل «چو».

ورجحت «مارلى» أن ذلك ربما لم يكن راجعًا إلى المدينة وحدها، فهى تتذكر أيامًا جميلة وسعيدة قضتها هناك قبل رحيل أبيها، وحتى أثناء غيابه أحيانًا.. كانت

الأم تهتم بهم كثيرًا، وكانوا يذهبون للمتحف خلال ظهيرة أيام الآحاد، أو لسماع أوركسترا «بيتسبرج» أو لرحلة فى المتنزه. كان الجميع يشعرون بالحزن من أجل «الأم»؛ لغياب «الأب» الذى لم يتوقع أحد أن يعود ثانيةً. لكنه عندئذ عاد.

لم تكن «الأم» تتصور أن الأمور كانت أفضل قبل عودة «الأب»، ولا يجب أن يفكر أحد فى هذا الشىء المخيف، لكنه كان هاجسًا مقلقًا.. مثلاً: لو أن الباب ارتد خلفك بشدة، كان يصيح: «مَنْ الذى أغلق هذا الباب بشدة هكذا؟» وستبادر على الفور بالقول: إن الريح هى السبب. لكنك لن تجد الوقت الكافى، فلقد كانت «الأم» تتدخل سريعًا قائلة: هُس! هُس! هُس!

كل الأمور تكون أفضل فى الخلاء، كانت «الأم» تتوقع أن تكون كذلك وقد كان. فعلاً بدت الأشياء أفضل. ومن وراء النافذة ولمدة ساعتين تتابعت أكثر المناظر الطبيعية روعة؛ التلال والثلوج والأشجار العالية الضخمة وبيوت المزارعين، وأحيانًا تقطعها قرية جميلة صغيرة، وتبدأ المناظر الرائعة مرة أخرى.

قالت «الأم» بقلق وقد التفتت نصف التفاتة؛ لأنها كانت ترقب الطريق فى الوقت نفسه: «مارلى»، يجب ألا تتوقعى أن تكون مثلما قلت تمامًا، فقد رحلت الجدة عن تل «مابل» منذ نحو عشرين عامًا، ويعيش العم «چون» هنا مِن فترة لأخرى، لكن.. حسنًا، إنه مكان قديم ومهجور، ليس كتلك المزارع الجميلة على الطريق مطلقًا.

قالت «مارلى»: «أعرف ذلك»، «لكننا سوف نتدبر الأمر!»، وكانت هذه هى الكلمات التى استخدمتها «الأم»، عندما سمعتهما «مارلى» يتحدثان للمرة الأولى عنها، لكن «الأب» انتفض بنفس الطريقة التى يفعلها أحيانًا، وقال: تقصدين أنكم ستتدبرون أمرى.

«دال»، إننى لم أقل ذلك.

«كنتِ تعنينه».

قالت «الأم» وقد علت الحمرة وجهها: حسنًا.. إذن، لماذا لم نقل ذلك صراحة؟ أمل أن يحدث.

كان ذلك منذ فترة قصيرة مضت، خلال عطلات الكريسماس. عندما تتوقع أن يكون كل شىء رائعًا خلال الكريسماس، وأن تتلألأ المدينة بالأضواء الملونة والأشجار المزينة فى كل اتجاه. وكانت هناك أشياء رائعة معروضة فى كل واجهات المحال على امتداد شوارع وسط المدينة، وجعلت موسيقى «الأرغن» الضخم ــ الأرصفة تبدو كما لو كانت ترتجف. لكن، فى هذا العام، هناك خلل أصاب كل شىء؛ فلم يخرج الأب من حجرته صباح أول أيام الكريسماس ليرى الهدايا، وبررت الأم ذلك محاولة أن تبتسم، وشرحت لنا أنه كان متعبًا ومجروحًا وأنه ليس حقيقة فى محنة، لقد كان مريضًا ومحبطًا وليس غاضبًا منهم أو مِن سواهم، وهناك اختلاف كبير ــ هكذا قالت الأم.

بالتأكيد كان ذلك حقًا، لكن المنزل بدا قبيحًا وضيقًا، وغادر «چو» مباشرة بعد الإفطار بصحبة رفاقه.. فخلال العطلات، كان دائمًا يجد مكانًا ليذهب إليه يوميًا. وذات مرّة عندما تحدثا بشأن الذهاب إلى تل «مابل»، قال الأب: لا أعرف، هل سأستطيع القيام بذلك يا «لى».. بكل هذا الخشب الذى يجب قطعه، وغير ذلك من أشياء.

هل تظنين أننى مازلتُ قادرًا على استخدام الفأس؟

قالت الأم: بالتأكيد، ويستطيع «چو» المساعدة. إنه فى الثانية عشرة، أليس كذلك؟ وهذه هى السن التى اعتادت عندها الجدة أن تقول إن الأولاد لم يعودوا مزعجين وبدأوا يصبحون مفيدين.

«وخلال عامين سأصبح فى الثانية عشرة كذلك»، هكذا فكرت «مارلى» وكانت مستغرقة فى تَخيُّل أكوام الخشب التى ستقطعها، وهكذا فاتها ما دار من حديث بين «الأم» و«الأب» بعد ذلك.. ووصل بها الخيال إلى تصور نفسها وهى تحاول وضع قطعة من الخشب فوق كومة أعلى من رأسها.

وعندئذ، قالت «الأم» شيئًا شيقًا ومدهشًا للغاية جعلها تُنصت..

قالت: عندما كنت فتاة صغيرة أعيش عند الجدة، كنت متأكدة أن تل «مابل» هو المكان الذى حدثت به كل المعجزات.

لم يضحك «الأب»، ولدقيقة بدا الأمر وكأنهما قد حبسا أنفاسهما معًا.

عندئذ، قال «الأب»: أخشى أن المعجزات لم تعد تحدث حتى فى تل «مابل».

قالت «الأم»: سنكتشف ذلك.

حدث ذلك مباشرة بعد «عيد الميلاد»، والآن حلَّ شهر مارس، وها هُم ذاهبون لاكتشاف الأمر.

قالت «الأم»: المكان ليس بعيدًا جدًّا عن هنا.

والآن، بدا كل الخلاء مجرد أشجار متراصّة على امتداد الطريق، وكانت الفروع العارية من الأوراق تتدلَّى وتحتكُّ بالسيارة أثناء مرورها؛ فتتساقط الثلوج منها. بدت أشجار الشوكران مثل مرج قد تجمد.. بدلت «الأم» ناقل الحركة، فتحولت السيارة إلى كتلة سوداء ضخمة من الضوضاء وسط هدوء أبيض هائل.

قالت «الأم»: يا له من تل! إننى لا أثق إن كانت السيارة سوف تجتازه أم لا!

انحنى الجميع إلى الأمام كما لو كان ذلك سيساعد إلى حد ما، كانت السيارة تقاوم، قالت «الأم» وقد تظاهرت بعدم القلق: لقد سمعت قصصًا عن هذه الطرق الملتوية! لكننى كنت أحضر دائمًا فى فصل الصيف ولم أصدقها أبدًا.. وعندئذ، توقفت السيارة، ثم بدأت العجلات تدور بسرعة وتزمجر. رأت «مارلى» وجه الأب صارمًا كعادته عندما يكون غاضبًا أو قلقًا، غارت وجنتاه واستطاعت أن ترى قلبه ينبض فى عنقه. داست «الأم» على دواسة البِنزين ومازالت العجلات تصدر زمجرة عالية وكان للمحرك هدير مثل جرار.

تساءل «چو» متحمسًا: هل أنزل وأدفع السيارة؟

قال «الأب» بصوت غاضب: هذا كل ما نحتاج إليه. فقط أن ينزل «چو» ويدفع السيارة!

علت الحمرة وجه «چو»، بينما كان وجه «الأب» شاحبًا. أدارت «الأم» المحرك فأحدث هديرًا متزايدًا.

قال «الأب»: أوقفى المحرك.. إنك سوف تديرين العجلات فقط.

وعندما توقف صوت السيارة، ساد الصمت المكان كله فجأة . بدا كما لو كانوا واقفين وسط الطريق، انحرفت مقدمة السيارة فى اتجاه البداية الجرداء للتل الطويل.

قالت «الأم»: منزل «كريس» ليس بعيدًا عن هذا المكان، ويمكن أن يقطروا سيارتنا، فالناس هنا معتادون على مثل هذه الأمور!

قال «الأب»: إننا لم نفكر حتى فى إحضار سلاسل.. أى فلاحين سنكون؟!

بدأت «مارلى» فى الكلام بقولها: أمى... لكن «چو» قاطعها وقال ما كانت تريد قوله إلا أنه قال: قالت «أنا» وكانت تقصد أن تقول: «نحن».

وأضاف «چو»: أمى، سوف ألبس حذائى ذا الرقبة وأنطلق؛ لأخبرهم.

قالت «مارلى»: سأذهب أنا أيضًا.

نظر «چو» إليها نظرة استعلاء وقال: «أنتِ ستعيقين حركتى» وكانت تلك طريقته فى الحديث معها فى الآونة الأخيرة، حتى وإن لم تكن حقيقية. رغم ذلك لم تستطع أبدًا أن تقول إنها لم تكن حقيقية؛ لأن فى كل مرة كان الأمر يتحول إلى جدال، وكان الأب يعتقد أن كل جدال يجب أن يوقف على الفور.. وقال إن هناك حروبًا كثيرة مشتعلة فى العالم دون أن يكون لنا دور فيها.

ترددت «الأم» ونظرت إلى الأب قائلةً: «وبعد...».

قال «چو»: إن حذائى ذا الرقبة فى حقيبة السيارة.

صاحت «مارلى»: وحذائى أيضًا، أحضره لى.

قالت «الأم»: سيكون قد ابتل تمامًا حتى قبل أن يحضر حذاءه. من كان يعتقد أن الثلوج مازالت بهذا الشكل هنا؟ كان صوتها قلقًا. لم يتفوه «الأب» بكلمة، جلس ساكنًا، يحملق من خلال زجاج السيارة الأمامى فى التل الطويل.

قالت «مارلى» وهى تبكى: أمى.. أبى، ألا أستطيع أن أذهب أنا أيضًا؟ إنه يعرف أننى أستطيع أن أذهب بسرعة مثله! يعرف أننى أستطيع!

قالت «الأم»: «صه الآن.. ليست هناك فائدة من موتكما من شدة البرد».

«أمى، إننا لن...».

قالت «الأم»: لا تجادلى يا «مارلى»، أرجوكِ! ونظرت إليها نظرة تعنى: لا تتحدثى فى هذا الأمر ثانية؛ كى لا تزعجى أباكِ مجددًا.

«أرجوكِ !».

««مارلى»، لقد سمعت ما قلت!».

«لكن، يا أمى...».

قال «الأب» بصوت به حدة: «مارلى» لا تجادلى!

اندفع «چو» داخل السيارة وارتدى حذاءه، وأدخل بنطلونه الچينز فى الحذاء. تصرف «چو» وكأنه مهم للغاية.. حتى أنك لتظن أنه رئيس الولايات المتحدة أو ما شابه ذلك.. كرهته «مارلى» لبرهة، فقد كانت تستطيع أن تذهب معه لو قال إنه يريد، لكنه لم يعلن ذلك. كانت دائمًا تقول إنها تود أن يصحبها أينما ذهبت، وكان ذلك حقيقيًّا. لكنه لم يقل ذلك أبدًا.. أبدًا. أبدًا.. أبدًا.

همست؛ كى لا يسمع «الأب» أو «الأم»: أرجوك يا «چو».

لكن يبدو أن «چو» أيضًا لم يسمعها.. قالت «الأم»: من المحتمل يا «چو» أن ترى بيت «كريس» عندما تبلغ أعلى التل.. إنه منزل أبيض كبير له ممشى ضيق، ومصراع النافذة أخضر اللون، وخلفه مخزن حبوب ضخم لونه أحمر.. إننى واثقة أنه فى الموقع التالى. لم يوحِ صوتها أنها واثقة على الإطلاق.

قال «الأب»: فقط، أخبر أيًّا ممن يعيشون هناك.

قالت «الأم»: آمل أن أكون على صواب. إنهم أناس رائعون، وكانوا أصدقاء طيبين لجدتى.. ولـ «چون» ولى.

خرج «چو»، وتصرف بطريقة توحى بأهميته أكثر من ذى قبل، جذب قفازيه وثبتهما فوق كُمّيه. قالت «مارلى» مرة أخرى: «أمى...». لكن «الأم» نظرت إليها بحدّة. بدأ «چو» السير، التفت إليهم ليبتسم ويلوح لهم، كرهته «مارلى» مجددًا، وربما كرهته هذه المرة أكثر، لكن بعد دقيقة كان يصعد التل بمفرده وأخذ يتضاءل ويتضاءل - بينما جلس الثلاثة صامتين يتابعونه. وعند وصوله لأعلى التل، أحبته مُجددًا وفتحت الباب وقفزت خارجة إلى الممشى لتلوّح له، فلوّح لها. وبدت قبعته حمراء وصغيرة، مثل نقطة على الطريق البيضاء فى مواجهة السماء.

قال «الأب»: أغلقوا الباب بحق السماء، لن يجدى التجمد ونحن ننتظر.

وبالكاد سمعته «مارلى» وقالت: إننى أشم دخانًا، انظرا، انظرا... انظرا هناك!

وعلى مسافة قصيرة أعلى التل، وعلى الجانب الذى تقف قبالته، يتصاعد فى الهواء دخان أزرق لولبى الشكل، بدا جميلاً، وكان يتصاعد تدريجيًا من بين الأشجار.

صاحت: أمى، هل أذهب لأرى؟ هل يمكننى الذهاب؟

نظر «الأب» و«الأم» إلى بعضهما، ونظر كلاهما أعلى التل حيث اختفى «چو».

«أستطيع رؤية طريق صغيرة ضيقة تنعطف هناك، انظرا، خلفنا. إننا لم نلحظها من قبل».

«لن تسبب ضررًا بينما نحن ننتظر هنا، أليس كذلك؟! ثم إنها لن...»، ثم توقفت عن الكلام ثم قالت تقريبًا: ثم إنها لن تكون مصدر ضوضاء أو جلبة أو عقبة فى الطريق.

فهمت «مارلى» أن نظراتهما تعنى: لمَ لا؟ فاندفعت تلبس حذاءها واقتفت آثار أقدام «چو».. والآن، جاء دورها كى تغادر وتلتفت وتلوّح لهما من الطريق قبل أن تتبع الآثار العميقة.

صاحت «الأم»: لا تبتعدى، عودى على الفور!

صاحت «مارلى»: توجد آثار حِصان وأخرى لعجلات جرّار.

ثم انحرفت الطريق ناحية الأشجار.

كم هذا جميل.. كم هو جميل! كانت الأرض ترتفع وتنخفض وقد غطتها الثلوج تمامًا، ماعدا النقطة التى تنحنى فيها الطريق الضيقة، لكن سرعان ما وجدت طريقًا أخرى ضيقة بين الأشجار، وطريقًا غيرها. وقفت ساكنة مندهشة. كانت آثار الأقدام فى كل مكان حولها.. فى دائرة كبيرة، ووقفت تحملق. كان يتدلى من كل شجرة عدة دلاء لامعة، وكان لكل دلو غطاء مدبب مثل الكاب. وقد شاهدت صورته ذات مرة فى أحد الكتب بالمدرسة.

اعتادت جدتك أن تقول إن الخلاء الشاسع بكل ما فيه يتمثل فى هذه الرائحة، عندئذ سمعت صوت شخص ما أمامها يقطع الخشب، كان صوت البلطة الواصل إليها حادًّا وواضحًا.. هناك كان الحطّاب يرفع بلطته ويهوى بها.. وصل صوت البلطة وهى تشق الخشب إلى أسماع «مارلى» وهو يرفعها ثانية. كان واقفًا بجانب كومة هائلة من الخشب، وخلف كومة الخشب بيت بنىٌّ صغير، له مدخنة بُنّية عالية يخرج منها الدخان الأزرق وسقف صغير إضافى يبدو محتضنًا سُحبًا بيضاءَ من البخار.

نظرت إلى الطريق خلفها، وكأن خطوة أخرى ستعجل بنهاية هذا العالم المُعتاد تمامًا وتحوله إلى أرض العجائب، حتى المناظر والأصوات لا تتناسب مع بعضها، وكان بالقرب منها دلو معلق فى شجرة، وسمعت بوضوح صوت قطرات تتساقط قطرة.. قطرة.

رآها الرجل وهى قادمة، فتوقف عن قطع الخشب ورفع يده ملوّحًا، وكان يبتسم. وفجأة، ألقى البلطة وتوجه إليها. لم تدرِ إن كانت تواصل السير أم تستدير وتجرى ولكنها واصلت السير، وعندما اقترب منها، صاح فجأة: «"لي"! بحق الطيبة والصلاح، "لي"!».

استطاعت أن تشم رائحة الدخان المفعم بها عندما مد يديه إليها، كانت رائحته رائعة مثل فخذ الخنزير المدخن. كان وجهه أحمر ومستديرًا ومفعمًا بالنشاط وكان ضخمًا فى كل شىء. اقتربت يداه منها وكانت ضحكته هائلة مثل حجمه فى بنطلونه الجينز الأزرق وسترته الصوفية الغليظة.



قال: تصورى.. إننى أناديك «لي»! لابد أنكِ ابنتها «مارلى»، لكنك تشبهين أمك تمامًا.. إننى السيد «كريس».

وقبـل أن تجد وقتًا تقول فيه شيئًا عـن السيارة أو التل أو المتاعب أو أى شىء آخر، ضحك وقال: هل تستطيعين شمّ ذلك، يا «مارلى»؟ هل حصلت على هذه النفحة من مصنع السكر توًّا؟ لقد أخبرت زوجتى هذا الصباح أن هذا موعد حضور «لي» مع مطلع الربيع.. فهمت ما يعنيه.. كان شعورًا رائعًا للغاية، كفوحان رائحة من شجيرة زنبق. مثل المرور على بستان قد أزهر وأينع. لكنه مختلف، روعة مختلفة.

قال السيد «كريس»: اعتادت جدتك أن تقول إن الفضاء الممتد يتمثل فى هذه الرائحة، كانت تسميها المعجزة الأولى عندما يتدفق النسغ(*).

رفعت بصرها إليه فى دهشة قائلة: إذًا، هذا هو المكان الذى استمدت منه الأم فكرة المعجزات.

سأل: أين عائلتك؟ بالبيت؟

وفـى دقيـقـتين، كـانـا فـى طـريـقـهـمـا لإنـقـاذ الـعـائلة.. قال إن لـديه جوادين يستخدمهما لجمع النسغ من الأشجار على التلال المنحدرة، حيث لا يمكن لجرار أن يصعد على عجلات.. لكن، كان الجرار هو ذلك الشىء الذى سيعيد السيارة إلى البيت بسرعة. جلست «مارلى» بجانبه. كان الجرار برتقالى اللون وسط الثلوج وشعرت كأنها ملكة فى عربتها ذات الأربع عجلات وهى تجرهما على طول الطريق الصغيرة بين الأشجار.

(*) النسـغ: سائل يجرى فى أوعية النبات حاملاً الماء والغذاء.

2 مقابلة السيد «كريس»

كانت «مارلى» تدرك أنه أمر محزن بالنسبة لـ «چو»، لكنها لم تستطع أن تتمالك نفسها من الفرح؛ لرؤيتها نظرة الدهشة تعلو وجهه. كان قد تجاوز صندوق البريد الخاص بـ «چ. كريس» عندما لحقوا به. كانت لا تزال تركب عاليًا فوق الجرار مع السيد «كريس» والسيارة وراءهما مثل كلب «بودل»(*) مربوط فى سلسلة.

نادت «چو» قائلة: لقد وجدت السيد «كريس»، رأيت الدخان ثم وجدت السيد «كريس»!

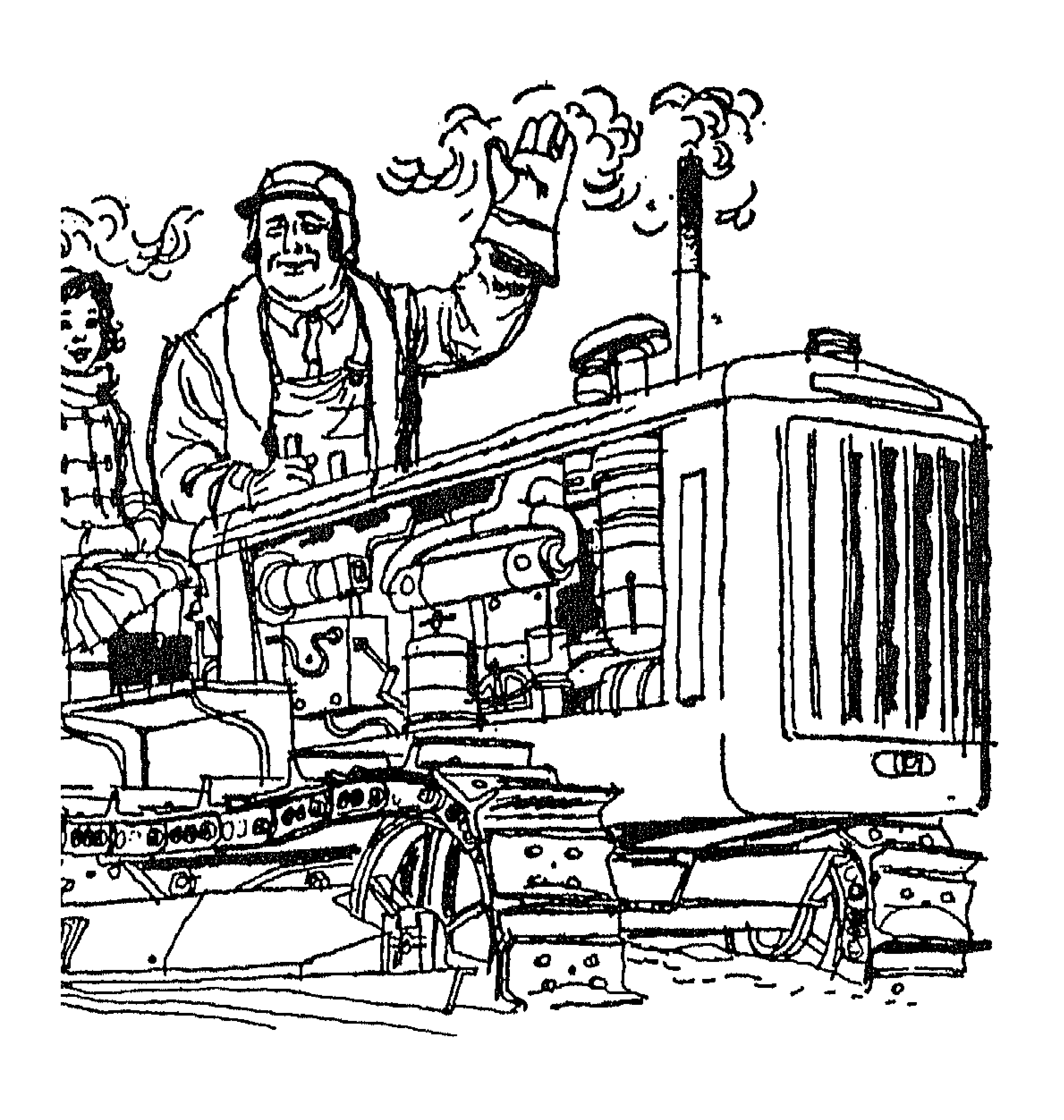
كانت تدرك أن أباها سوف يشمئز منها بسبب تفاخرها على أخيها، ومع ذلك كان عليها أن تخبر «چو»، أليس كذلك؟ وقف وقد برزت عيناه مثل عينى قوقع.

انحنى السيد «كريس» وأمسك كتف «چو» بيده الكبيرة وهزّه كما يفعل أى إنسان عند رؤية شخص يحبه ويكون مسرورًا برؤيته قائلاً: وأنت يا «چو»، كيف استطعت أن تصعد هذا التل بسرعة، لقد أخبرت أمك أن أحدًا لا يستطيع أن يفعل ذلك بدون حذاء الثلج.

ابتسم «چو» وشعر فى الحال أنه فى حالة أفضل، كان السيد «كريس» يحب أن يُشعر الجميع بالارتياح. شعرت «مارلى» ببعض الخجل لتفاخرها الذى آذى «چو»، لكنها كانت تأمل أن يشعر «چو» أيضًا ببعض الخجل؛ لأنه تركها.

إن كان قد فعل، فلم يبدُ عليه ذلك، ثم قفز فوق الجرار وكاد يوقعها من عليه.

(*) بودل: كلب ذكى كثيف الشعر أجعده.



قال السيد «كريس»: انتبها! يوجد مكان للجميع.

سلكوا الطريق الضيقة إلى البيت الكبير. خرجت إلى الشرفة سيدة وقد وضعت يديها فى جيب مئزرها لتدفئتهما، كان شعرها الأبيض أجمل شعر أبيض رأته «مارلى» فى حياتها. لابد أن الجدة كانت تشبهها عندما كانت «الأم» تأتى لزيارة تل «مابل». لكن هذه كانت السيدة «كريسى».

صاح السيد «كريس»: «كريسى»، إنهم هنا !هل تعلمين.. كان علىّ أن أساعدهم ليصعدوا هذا التل، تمامًا كما قلت أنت.. يجب أن أفعل ذلك.

مؤكد أنك ستعتقد أن السيد «كريس» والسيدة «كريسى» أقارب حقيقيون



وليسا مجرد جيران تعرفهما «الأم». كان الجميع يتعانقون ويتبادلون القبلات ويصيح كل منهم مناديًا الآخر باسمه.

«لي»! تبدين رائعة... لم تتغيرى كثيرًا. بالتأكيد هذه ليست «مارلى»، وكذلك «چو».

لكننى ما زلت أحسبهما أطفالاً...

وقف «الأب» فى الخلف بمفرده، مثلما كان يفعل عادة عندما يأتى أصدقاء، ولكن «الأم» كدأبها دائمًا تلفتت بحثًا عنه، وقالت: هذا «دال».. يا «كريسى».

كانت فى صوتها نبرة مميزة، خاصة وهى تقول: هذا «دال».. غير تلك النبرة عندما تقول: هذه «مارلى» أو هذا «چو». أحبّت «مارلى» الصوت والنظرة التى بدت

كأنها تقول: أليس إنسانًا رائعًا؟ أليس هذا أمرًا رائعًا أن يكون بيننا، بعد أن ذهب بعيدًا واعتقد الجميع أنه لن يعود أبدًا؟

قبّلت «كريسى» الأب وتراجعت قليلاً وقد وضعت يديها على كتفيه ثم نظرت إليه وقالت: إنك تشبه صورتك، إلاّ أنك لست نحيفًا كما كنت، لقد قطعت صورتك من الصحيفة وهى معلقة على جدار المطبخ.

وقف «الأب» متصلبًا، مثلما اعتاد أن يفعل ـ عندما يتحدث الناس عنه كبطل وعن الكثير مما سمعوه عنه.

قالت «الأم»: «أتدرين يا «كريسى»، إننى لم أحضر إلى هنا فى موسم جمع النسغ من قبل؟ أتذكر أننى طالما تمنيت ذلك وكانت الجدة تلحُّ كثيرًا، لكننا لم نكن نستطيع قبل نهاية العام الدراسى.

قال السيد «كريس»: لقد مضى على ذلك شهر تقريبًا.. إنه أفضل موسم رأيته منذ سنوات. لقد قلت أنا و«كريسى» إنكم يجب أن تحضروا إلى المعسكر الليلة!

صاحت «مارلى»: ماما، دعينا نذهب.. يا «چو»، يوجد منزل صغير بُنى اللون..

قال «چو»: أعلم ما هو معسكر السكر.

قالت السيدة «كريسى»: يجب أن تتناولوا الطعام قبل ذهابكم لتل «مابل»..

«لي»، لقد أرسلت غلامنا «فريتز» ليشعل النار؛ أعتقد أنه يجب أن ندخل لنحتمى من هذا البرد.. نظرت إلى الأم بتجهم لا يناسب وجهها وقالت: لم يكن هناك ما أستطيع عمله كى أرتب المنزل، لو أنك أخبرتنى قبل فترة قصيرة.. بدأت «كريسى» تتحرك فى المطبخ الكبير الدافئ بنشاط، كان بالمطبخ موقد حجمه ضعف حجم الموقد العادى ومائدة طولها عشر أقدام.

قالت «الأم»: قصدت أن أكتب إليكم متأخرًا؛ حتى لا أسبب لكِ اضطرابًا.

نظرت «مارلى» منبهرة إلى الطاولة التى يتم تجهيزها، واقتربت من «الأم» وهمست قائلة: هل نحن مضطرون للبقاء وتناول الطعام هنا؟ فقد كان من الصعب أن تنتظر حتى تذهب لرؤية تل «مابل».

قالت «الأم» وقد احمر وجهها خجلاً: مه.

همس «چو» ـ ولأول مرة يتفق مع «مارلى» على رأى واحد ـ قائلاً: لماذا يجب علينا ذلك؟ وكل هذا الطعام الذى أحضرناه...

سمعهما «الأب» وقال: اجلسا وتأدبا.. افعلا ما تقوله «أمكما».

انقضى اليوم بأكمله فى الزيارة، وكان عليهم الرحيل فى الغد.. كان السيد «كريس» وزوجته كريمين، لكن لا شىء سيبدو صحيحًا أو تم إنجازه إلا عند الوصول إلى تل «مابل».. لقد استغرق ذهابهم أسابيع من الكلام والترقب، كان أبطأ من الاستعداد لـ «عيد الميلاد»، لقد أصبح على مقربة الآن ــ حسبما اعتادت «الأم» أن تقول ــ إنه على بُعد خطوة من بيت «كريس»، لكنهما لم يرياه بعد.

«إننى لا أشعر بالجوع البتّة. قد نستطيع أنا و«چو»...».

قالت «الأم» ثانية: صه. الآن.

لكن السيدة «كريسى» سمعت. نظرت إلى «مارلى» مبتسمة وقالت: لا فائدة قط من بقائكما جوعى عند وصولكما هناك، أمام أمكما الكثير لتفعله دون أن تقلق على إطعام أسرتها فى الدقائق الخمس الأولى.

كان على السيد «كريس» العودة إلى معسكر السكر لمراقبة النار، وسألت «مارلى» أمها قائلة: ألا نستطيع أن نصحبه؟ سيكون ذلك أفضل ثانى شىء.

قالت «الأم»: فيما بعد، ربما غدًا، ونظرت إلى «مارلى» نظرة تعنى: كم أنت مزعجة!

وهكذا شاهدوا السيد «كريس» وهو يرحل فى عربته ذات العجلات الأربع عبر الممشى، هابطًا الطريق ثم صاعدًا التل حيث اختفى كما لو كان قد سقط من سطح الأرض.

إنه رائع يا «چو».. مئات الأشجار تتدلى منها الدلاء وكأنها أساور ساحرة، والدخان يتصاعد من البيت البنى الصغير.. إنه يشبه منزل الساحرة العجوز فى قصة «هانزيل» و«جريتل».

قال «چو»: لقد قرأت كل ما يتعلق بمعسكرات السكر. كانت «مارلى» تستطيع أن تخمن أنه مازال متضايقًا؛ لأنها رأته قبله؛ ولأنها أصبحت الشخص المنقذ.

قالت: لكن هناك رائحة رائعة، أراهن أنك لم تجد ذلك فى أى كتابٍ قديم!

بالفعل كان تناول الطعام فى بيت السيدة «كريسى» رائعًا. فعندما تأكل طعامها، تدرك لماذا أصبح السيد «كريس» ضخمًا هكذا. لم تستغرق السيدة «كريسى» وقتًا طويلاً فى إعداد الطعام. كان كل شىء معدًّا فى دقائق؛ لأنها كانت تتوقع مجيئهم، وكانت تعلم أنهم فى عجلة لتناول الطعام ولم تمانع مطلقًا.

قالت: هل تودين أن أرافقكم يا «لي»؟ قد أستطيع مساعدتكم قليلاً. لقد حاولنا الحفاظ على المكان، لكن لا أعرف كيف والبيت خالٍ - ويتكسر الشىء تلو الأخر فى هذا المنزل، لقد كتب «كريس» إليكِ عن شخص يقتحم المكان.

قالت «الأم»: نعم، لكننا لا مانع لدينا أن نعمل على إصلاحه. إن هذا ما نريده فى الواقع، إنه ما جئنا من أجله.. سيبقى «دال» وسيعمل، بينما الأولاد ينتهون من دراستهم.

قالت السيدة «كريسى»: من الأفضل أن يتناول بعض طعامه معنا.

بدأ «الأب» يعترض.

قالت السيدة «كريسى» للأب وهى تضحك: شخص آخر أطعمه.. يمكنك أن تسعد ببعض السمنة يا «دال»، إن أحب شىء إلىَّ هو أن أجعل الرجل سمينًا.

تغير وجه «الأب»، حبست «مارلى» أنفاسها عندما تذكرت ما قاله لها قبل بداية الرحلة: «أريد أن أكون بمفردى... آمل ألا يزعجنى أحد فى هذه البلدة.. إنهم يتبادلون طعام العشاء ويعرفون أمور بعضهم البعض».

خمنت «مارلى» أن «الأم» لاحظت أيضًا، فوقفت بسرعة قائلة: حسنًا، أعتقد أنه من الأفضل أن ننصرف.. «كريسى»، كان ذلك رائعًا.

وقفت السيدة «كريسى» فى الشرفة لتلوح لهم مودعة ثانيةً، وصاحت: إذا ما

علقتم مرة أخرى، فعليكم أن تصيحوا وتصيحوا! لكننى لا أعتقد ذلك؛ لأن «فريتز» قد أزال الثلوج من الطريق هذا الصباح.

شعرت «مارلى» أن يدها تسمَّرت من الإثارة، وخمنت أن الوقت قد حان، ألصق «چو» وجهه مجددًا بالنافذة.. قالت: «چو»، إنه ليس على هذا الجانب، فنظر إليها وسألها: كيف عرفتِ؟

التفتت «الأم» ضاحكة: نعم، كيف عرفتِ يا «مارلى»؟ لا أعتقد أننى ذكرته سابقًا، أليس كذلك؟

شعرت «مارلى» بالتشوش لدقيقة.. فلقد تصورت كل شىء فى رأسها: المكان كله، المنحدر، الأشجار ومخزن الحبوب المواجه للتل.. وفجأة، تذكرت وقالت: لقد قلت إنك اعتدت الجلوس أمام الشرفة تراقبين الشمس وهى تغيب.

تبادلت «الأم» مع «الأب» نظرة تقول: يا لها من طفلة! إنها ذكية جدًّا! زاحمها «چو» كى ينظر من نافذتها أيضًا، كان يبدو مصممًا وأدركت شعوره ـ بعد ما حدث من قبل، يجب أن يرى تل «مابل» قبلهم أولاً، وقررت أن تدعه. الأولاد يتصرفون بغرابة.. بدا الأمر وكأنهم يخشون ألا يعتبروا أولادًا إذا لم يكونوا الأوائل فى كل شىء.

وفجأة، سطعت الشمس التى كانت الغيوم تحجبها طوال اليوم ولكنها انبثقت الآن من وراء السحب، وبدأت قشرة الثلوج تلمع فى كل مكان مثل قطن الكريسماس. كانت دقيقة واحدة، ثم اختفت الشمس مرة أخرى خلف إحدى السحب. هنا بدا هذا السطوع كما لو كان مثل لحظة بريق خاطفة من عصا سحرية أوجدت المنزل على قمة تل «مابل».

اعتقدت أن «چو» لن يراه، لكنه قال فجأة: هل هو ذا، ذلك البيت الأبيض...؟!

قالت «الأم» بحزم: هذا هو.. وانعطفت بالسيارة عن الطريق: لقد أخبرتكما أنه مجرد منزل صغير، أليس كذلك؟

قالت «مارلى» بسرعة: لكنه رائع.. صغير ورائع.

وقد كان كذلك إلى حد ما، رغم أنه يبدو منعزلاً فى الفضاء الممتد للريف، ومتهالكًا جدًّا كذلك. وكانت الشرفة مثقلة بالثلوج التى تعلوها ومن الممكن رؤية أية خطوة فى الثلوج، وكانت الشجيرات مغطاة بالثلج، تغطى الدرابزين. كان المكان يبدو وكأن لم يسكنه أحد منذ مائة عام، كما كانت الأشجار أعلى التل ضخمة وعارية وتشبه الهياكل العظمية.

قالت «الأم» كما لو كانت تحاول أن تجد شيئًا طيبًا تقوله: لقد أحببت النوافذ دائمًا.

لاحظت «مارلى» عندئذ أن جميع النوافذ صغيرة ومربعة الشكل وذات مصاريع(*) غير مثبتة جيدًا.

قالت «الأم»: إنها تصبح جميلة جدًّا عندما توضع عليها الستائر البيضاء المِكَشْكِشَة.

جلس الجميع صامتين لمدة دقيقة، لم يستطع أحد أن يفكر لحظة فى شىء يقوله، ثم تكلم «الأب» قائلاً: يبدو أن «فريتز» قد أشعل نارًا كبيرة جدًّا سوف تفيدنا، انظروا إلى الدخان المتصاعد من المدخنة.

صاح «چو»: سأدخل أنا أولاً! هل أستطيع أن أفتح قفْل الباب يا أمى؟

نظر «الأب» إلى «مارلى» قائلاً: ربما كان من الأفضل أن نقترع لمثل هذا الشرف.. لكنها هزت رأسها، وجلست ساكنةً، بينما خرج «چو» وجرى نحو الباب الخلفى وتبعه «الأب» وكذلك «الأم» التى كانت فى حاجة لوقت تحدِّث فيه نفسها بما خططت لأن تقوله.

يجب أن يكون المكان المثالى، الخلاء الشاسع، والمعجزات.

المكان غير مزدحم والناس شرفاء وهم أيضًا ليسوا خبثاء، و«الأب» مرهق باستمرار، و«الأم» غير قلقة. لكنه بدا صغيرًا وقديمًا ليتسبب فى كل هذا. كانت خائفة، أما الآن وقد أصبحت بالمكان فلم تعد خائفة.. كانت تود لو أنهم مازالوا على

(*) مصاريع: مفردها مِصراع وهو أحد جزأى الباب.

الطريق.. أحيانًا لا يكون الكريسماس مبهجًا مثل بهجة الاستعداد له. ربما يكون التفكير فى تل «مابل» أفضل من تل «مابل» ذاته.

همست: أرجوك، دع المعجزات تحدث.

نادت «الأم»: «مارلى»، ألن تأتى؟

قديمًا وأبدًا، فى صباح «عيد الميلاد»، تدرك «مارلى» أن عليها الوقوف على درجات السلم بحيث لا ترى غرفة المعيشة؛ خشية ألا يكون أحد قد أضاء شجرة الكريسماس؛ لأن ذلك حدث ذات مرة. وتتملكها الرهبة عند دخول المنزل رغم أنها لا تعرف ما يمكن أن يكون داخله، ولا تعرف حتى ماذا ستفتقد عند عدم وجوده.

خرج الأب من الباب ونادى «مارلى» التى سمعته يقول لـ «الأم»: ما خطب هذه الطفلة؟ تأتى إلى هنا متعجلة ثم تجلس...

عندئذ خرجت من السيارة، وهى تردد نفس الكلمات مرة ثانية، وقطعت الطريق عدْوًا.. ضحك «الأب» وفتح الباب على مصراعيه؛ كى تدخل المنزل وهى تعدُو.

3 تـل «مـابـل»

بقدر ما كان هذا المنزل كثير الغبار ورائحته عفنة، فقد كان مليئًا بالكنوز. كل ما كان بوسع «مارلى» و«چو» هو أن يجريا فى المنطقة المحيطة بهما، وينظرا إلى بعضهما البعض ويصرخا.. انظر! انظر إلى هذا!

أولاً المطبخ، كان به موقد كبير فى حجم موقد «كريسى» ويتصاعد البخار من الماء فى حوض جميل على الجانب، الذى كانت تسميه «الأم» خزانًا.. قالت «مارلى»: أمى، هذا ما اعتدتِ أن تستخدميه لصب ماء استحمامك منه، لقد تخيلت كيف يكون، والآن أدركت ذلك.

قالت «الأم»: «إننا نحتفظ بمياه الأمطار فيه، وهذا ما يأتى من المضخة الموجودة جانب الحوض، وذلك الماء يسير للغاية لدرجة أن حكة واحدة من الصابون تجعله ممتلئًا بالرغاوى.

ومن الغريب أن تفكر فى كون الماء «يسيرًا» أو «عسيرًا»، وبدأ «چو» على الفور فى ضخ الماء من المضخة القديمة الموجودة بين الحوض وخزانة المطبخ.. لم يحدث شىء، وقالت «الأم» يا «چو»، يجب أن تصب بعض الماء فى الجزء العلوى؛ كى تعمل المضخة.

وهكذا فعل.. بدأ ماء بنى اللون ذو رائحة كريهة فى التدفق، وسرعان ما أخذ لونه يبهت شيئًا فشيئًا، وطلبت «الأم» منهما أن يفرغا الخزان من الماء الآسن وأن يضخا فيه مياه الأمطار.. وقالت «الأم» لـ «مارلى»: يمكنكما أن تستحما الليلة فى ذلك الحوض القديم مثلما كُنْتُ أفعل - إن لم يكن يسرب الماء.

قال «الأب»: دعوه يسرب الماء. بعد ذلك ستكون عندنا رغاوٍ جاهزة على الأرض تكفى لتنظيفها. كان صوته ينمُّ عن سعادته وابتهاجه واهتمامه، كان هو أيضا يستكشف الأشياء.

لم يكن دولاب المطبخ القديم مثبتًا إلى الحائط مثل الموجود بالشقة.. كان بمنتصفه إلى اليمين تمامًا باب منزلق، وتحت الباب كل الأشياء الرائعة: صناديق باهتة اللون بها بهارات ومُسطردة وأعشاب، ومطحنة صغيرة مليئة بحبيبات الفلفل الأسود.. كما كانت هناك مطحنة أكبر، بها درج صغير مملوء بخيوط العنكبوت وبن قديم ومخلفات فأر، كانت مخلفات الفئران فى كل مكان.. قالت «الأم»: بوسعكم تخمين من كان يعيش هنا.

خرج «الأب» و«چو» ليتفحّصا مخزن الغلال القديم، بينما كانت «مـارلى» و«الأم» تتفحصان الأشياء الموجودة بخزانة المطبخ.. قالت «الأم»: كانت هذه أطباق الجدة للاستخدام اليومى. اعتادت أن تقول إنها سميكة؛ كى لا نتمكن من كسرها.. قال العم «چـون»: كان هناك بعض الأطباق الفاخرة الجديدة فى فى صندوق ما.

وجدت «مارلى» فى الدرج العلوى ملاعق وشوكًا وسكاكين قد اسودَّ لونها.

قالت «الأم»: «أدركت لماذا رأت السيدة «كريسى» أنه من الأفضل لنا تناول الطعام حيث كنا.. علىّ أنا وأنت أن نقوم بتنظيف ما يكفى منها قبل موعد العشاء.

سألت «مارلى»: أولاً، هل يمكن أن أرى بقية البيت؟ تخيلى أنك عالقة فى المطبخ، بغض النظر عما فى ذلك من متعة!

قالت «الأم»: طبعًا.. لكن... «مارلى»، هذا هو المكان الأول الذى يجب أن نوليه نحن النساء الاهتمام.

نحن النساء.. وهنا شعرت «مارلى» بالافتخار، عندما قالت «الأم» ذلك..

ودخلتا حجرة الطعام حيث كانت بها مائدة مستديرة ثقيلة وكراسٍ من الخيزران وخزانة فى أحد الأركان.

وكان بجانب النافذة مقعد عليه وسادة طويلة ممزقة الحشو.. قالت «الأم»: لقد ساعدت ذات صيف فى صنعها. كانت جميلة، لونها أصفر زاهٍ.. ساعدتنى الجدة فى حياكتها كى تكون مناسبة. لمستها ونفضَت عنها التراب، وقالت: من الصعب أن نصدق أنها كانت ذات لون أصفر زاهٍ، نظرت حولها وقالت: إننى أتعجب.. ماذا حدث لماكينة الخياطة القديمة الخاصة بالجدة؟ يبدو أن العم «چون» احتفظ فقط بالأشياء التى يستعملها الرجال.

سألت «مارلى»: أين كنتم تأكلون؟ هنا؟!

«عادة ما كنا نأكل فى المطبخ ولكن فى العطلات كنا نأكل هنا».

«مازال أمامنا الكثير لاستكشافه، أين كنتم تنامون؟ أين كنتم تلعبون؟ أين كانت تنام الجدة؟».

كان بالدور العلوى ثلاث حجرات نوم صغيرة ـ تحت الإفريز ـ ، كانت هناك وسادة قديمة رائعة من الريش مطوية وملفوفة فى خيش، وموضوعة فى صندوق ثياب كبير.. وكانت هناك ألحفة أيضًا، مثل التى حكت «الأم» عنها، وقبعات شمس للأطفال وخواتم زواج.

قالت «الأم»: توجد هنا أيضًا وسائد، وسائد أرضية رائعة.

وبدأت تبحث عنها، وعندما وجدتها وضعتها جانبًا بسرعة ثانيةً وهى تعطس قائلة: رائحتها عفنة جدًّا.. عندما نعود سوف نعلقها فى الشمس بالخارج، وبدأت تعطس ثانيةً فكان عليها أن تضعها جانبًا وبسرعة.

قالت «مارلى»: تخيلت كيف سيبدو كل شىء.. وكنت مُحقة.. وأضافت: إن لم تكونى قد أخبرتنى، فكنت سأعرف أيها حجرتك وأيها حجرة العم «چون» وأيها حجرة الجدة.. لكن نافذتك الأفضل؛ لأنها تطل على معظم أنحاء المكان.



قالت «الأم»: «إنها تواجه الوادى وليس التل. لقد أحببتها دومًا، ويجب أن تكون هذه حجرتك يا «مارلى»؛ لأنها كانت حجرتى.. جاءت ووقفت بالقرب من النافذة، ولم تشعر فى حياتها بحب «مارلى» لها، مثل هذه اللحظة.

قالت «الأم»: أحيانًا كنت وأنا صغيرة أظل بمفردى هنا. إنه شىء طيب أن يكون «چو» معك لتستكشفا معًا. لم يرغب «چون» مطلقًا أن أرافقه. كان لديه أصدقاء كثيرون من الصبية يخرج معهم لصيد الأسماك وأشياء أخرى.

قالت «مارلى»: «چو» يقول إننى بطيئة جدًّا، ولن يأخذنى معه أيضًا، لكننى لا أعبأ بذلك، يمكنك أن تذهبى معى أحيانًا وأنا لا أخشى الخروج بمفردى.

خارج النافذة، كانت هناك حقول واسعة تحيط بها أسوار حديدية مثل تلك التى فى صور محطة لنكولن التى تتشعب منها الخطوط.. وفجأة، ظهرت أخاديد أيضًا، هذه التى تتدفق فيها المياه عند ذوبان الثلوج.. وفى كل مكان كانت هناك أعشاب بنية وخضراء، ويبدو الأمر وكأن الغابات قد تخللت الحقول خاصة عندما تنمو الأشجار الجديدة.

قالت «الأم»: حاولت أن أذهب بمفردى، لكننى لم أحب ذلك أبدًا؛ ففى نفس اللحظة التى كنت أصل فيها إلى الغابة كنت أشعر بالوحدة والفزع وأهرع عائدةً إلى الجدة.. وضعت يدها على كتف «مارلى» بطريقة وديّة لطيفة وقالت: سأحاول ألا أكون مشغولة، لكن زوجة المزارع لديها الكثير لتقوم به.. مالت نحو النافذة وأزاحت بعض الغبار؛ لترى بوضوح قائلة: أتعرفين، لم أرها مثل ذلك قبل الآن! مغطاة بالثلج وخالية من الأوراق. إنها جميلة، أليس كذلك؟ أنت ترين هيئة الأشياء.

وتسبب نفسها فى تجمع البخار على الزجاج، وكذلك فعلت «مارلى».. وهكذا أصبح لكل شىء نوع من الضباب الغامض حوله، وقالت «الأم»: لو أننى أستطيع أن أرسم...

تذكرت «مارلى» بعض الصور بالبيت، بينما كانت الأم تقول: نعم. لقد اعتدت الرسم كثيرًا ولكن لا يبدو أن هناك متسعًا من الوقت بعد الآن.

قالت: حقًّا، إنكِ ترسمين صورًا جميلة يا أمى.

ضحكت «الأم» وهزت رأسها وقالت: فقط، إننى كنت أفكر فيما لو رسمت الآن ما نراه من خلف النافذة، يجب أن يكون بالريشة والحبر. فى الصيف، يجب أن تكون لديك كمية كبيرة من الغصون الخضراء، سترين ذلك عندما تعودين فى شهر يونية.

بالكاد سمعت «مارلى» آخر كلماتها وفتحت درج التسريحة، كانت به عائلة كاملة من الفئران الصغيرة الرائعة.. سبعة مخلوقات صغيرة عارية لونها قرنفلى، مغمضة العينين، ولها آذان منتصبة وشوارب، وأنوف بارزة وذيول مثل خيوط دقيقة.

صاحت «مارلى»: انظرى.. أليست جميلة؟!

قالت «الأم» وهى تنظر إلى الداخل: يجب أن نتخلص منها.

«مارلى»: لماذا يا أمى، إنها فاتنة..

قالت «الأم» بسرعة: قد تكون فاتنة الآن، لكنها لن تعيش هنا بعد الآن.. بل نحن.

قالت «مارلى»: يا إلهى، يوجد هنا مكان للجميع.

قالت «الأم» وهى ترتعد: الفئران حيوانات قذرة. لم تعرف «مارلى» أبدًا متى يجب ألا تجادل، لكنها أدركت هذه المرة. قرأت هى و«چو» قصة عن بعض الأطفال كانوا يربون الفئران كحيوانات أليفة. لم تقل المزيد للأم، لكنها فكّرت قائلة: سوف أتحدث إلى «چو»، وبوسعه الحصول على صندوق؛ سنعلّم فيه هذه الفئران الصغيرة كيف تكون نظيفة.. مثل...، وكيف تقوم بأعمال بارعة، وبذلك ستعرف أمى كم كانت مخطئة.

قالت «الأم»: من الأفضل أن نهبط إلى الطابق السفلى ونشغل أنفسنا.. لنفحص المطبخ أولاً.

وعند عودة «چو» و«الأب» كان الجميع يشعرون بالإثارة بشأن الاكتشافات التى قاموا بها فى الخارج. كانت وجنتا «الأب» حمراوين، وعيناه أكثر بريقًا عما اعتادت «مارلى» رؤيته.

قال «الأب»: توجد عربة خفيفة بمقعد واحد؛ قديمة لكنها بحالة جيدة يا «لى».

لقد كنت تقولين دائمًا كم تحبين الطواف بالمكان وأنت تركبين.. وقد أوضح السيد «كريس» أن بإمكاننا استعارة حِصان أحيانًا.

قال «چو»: وهناك زلاجة جليد. وما زالت تحتفظ بكسوتها من النسيج المخملى.

قال «الأب»: توجد أدوات جيدة كثيرة فى الورشة المواجهة لمخزن الحبوب، بعضها يعلوه الصدأ لكنها غالبًا فى حالة جيدة جدًّا.

قالت «الأم»: كان «چون» مولعًا بالأدوات دائمًا. كان شديد العناية بالتفاصيل، ولا يدع أى شخص آخر يلمس أغراضه التى كانت على الأرض بجانب دلو مملوء برغاوى الصابون، ورأت «مارلى» تعبيرًا على وجهها، كما لو كانت تريد البكاء، وقالت «مارلى» فى نفسها: «آه يا عزيزتى».. لكن بدلاً من ذلك، قالت «الأم»: من المدهش أن نجد أشياءَ كثيرة كما هى بعد كل هذا الوقت: شكل الأرضية.. حجرتى.. حتى أن هناك يا «دال» كومة من رسائلى القديمة فى أحد أدراج خزانة الملابس، وكلها محاطة بالفئران، صار صوتها أسرع وقالت: «چو»، توجد عائلة كاملة من الفئران الصغيرة فى أحد الأدراج بحجرة النوم الأولى.. تستطيع أن تتخلص منها، وتنصب جميع المصائد التى أحضرتها.

ارتعدت «مارلى» قائلة: سوف أرشد «چو» عن مكانها.

ربما تظنون أن «الأم» قد قرأت ما يدور فى رأسها عندما قالت: لن نحتفظ بهذه الفئران الصغيرة يا «مارلى»، ولن أرجع عن قرارى.

قال «الأب»: لا أخالفك.

شعرت «مارلى» أنهما يراقبانها عندما بدأت تصعد السلالم الصغيرة الضيقة

خلف «چو».. كانا يفكران فى جميع الحيوانات الصغيرة الغريبة: القطط والكلاب الضالة وكل الأشياء التى كانت تريد إحضارها والاحتفاظ بها. همست فى أذن «چو» مباشرة: إنها فاتنة ولا يجب أن يعلم أحد بشأنها، نستطيع الحصول على صندوق أو ما شابهه لتعيش داخله، سوف نضع غطاء فوقه، ويمكنك أن تبنى لها بيتًا بعد فترة وتضع فيه إطار عجلة؛ كى تجرى حوله.

قال: أنت تفكرين فى الجرذان.. إنها مجرد فئران منزل قديم.

قالت: اخفض صوتك ؛ لأن...

قال: لن أهمس، لقد سمعتِ ما قالته أمى. إنه لأمر سخيف. هذا كل شىء. إن الفئران تعبث فى كل شىء وتفسد كتب الناس وتدخل فى علبة الدقيق وتزحف داخل ملابس الناس.

قالت: هذه الفئران لن تفعل ذلك، سوف أعتنى بها وسوف أراقب إقامتها فى الصندوق.

نظر «چو» إليها باشمئزاز وسألها: هل تدركين عدد الحيوانات التى تولد من فأر واحد فى السنة؟ لقد قرأت فى كتاب أنها تلد ألف فأر فى السنة. فهل يمكنكِ الاحتفاظ بألف فأر فى أى صندوق، أم هل تريدينها أن تجرى فى حجرتك أو أن تدخل وتخرج من كيس وسادتك؟ سيكون لديك سبعة آلاف فأر من تلك التى تملأ الدرج.

«چو»، إنك تبالغ فى ذلك، لن يكون هناك هذا العدد من الفئران الصغيرة أبدًا.

قال: لم نكن هناك.. حسنًا، وتلك كانت موجودة أيضًا. سوف أريكِ الكتاب عندما نعود إلى البيت.. إنه فى كتاب عن «التاريخ الطبيعى»، ثم جمع جميع الفئران فى يديه بكل شجاعة وإحكام.

صعد الأب السلالم وفى يده مصيدة مثبتة بها قطعة جبن، وقال: «چو»، عليك أن تلقى بهذا الشرَك فى الموقد.

صرخت «مارلى»: فى الموقد.. آه، لا.

كان «چو» قد وصل إلى أعلى السلم بالفعل وعندها تشبثت «مارلى» بذراعه، وعندما التفت ونظر إليها، رآها تبكى. كانت الدموع تنهمر من عينيها وتسقط على ذقنها مثل مطر مفاجئ. بكت وقالت: إن البشر هم الذين يخربون كل شىء جميل فى العالم بأسره.

تَذَكَّر، كيف كانت هذه الفئران سعيدة فى هذا البيت حتى اضطررنا للحضور! إنها نفس الطريقة التى تبعها الناس ـ كما أخبرنا مدرس التاريخ. لقد كان يوجد كثير من الجاموس اللطيف، والدببة والأيائل والظبيان والقندس، ثم جاء كل هؤلاء البشر المرعبين..

قال «چو»: «مارلى»، إن الأمر مختلف تمامًا.

كان «الأب» يقف منصتًا عند باب حجرة النوم.

قالت «مارلى»: «إنه ليس كذلك. إنه نفس الشىء.. فقط لأن الفئران حيوانات صغيرة ضعيفة..».

نظر إليها نظرة اشمئزاز واضحة وقال: إن الفئران غير مفيدة، وتسرق، وتنقل الجراثيم إلى البشر.. إنها لا تشبه الجاموس فى أى شىء.

ثم التفت عنها وقال: يا للبنات.. قبل أن يختفى من أمامها وهو ينزل على درجات السلم..

وقفت «مارلى» ساكنة.. ثم وضعت يديها على أذنيها، ومازالت الدموع تنهمر من عينيها، ولم تسمع غطاء الموقد يُرفع، لكنها سمعت صوت إغلاقه ثانية، ثم تم إغلاق الدرج الموجود فى حجرة النوم، وخرج الأب إلى الردهة وقال: والآن يا «مارلى»، ليس الأمر خطيرًا لهذه الدرجة، وربت عليها وهو يتجاوزها. لم تتحرك، وعندما نزل إلى الطابق السفلى سمعته يقول لـ «الأم»: إن هذه الطفلة الغريبة! تجعلك تندهشين أحيانًا، أليس كذلك؟

نادتها «الأم» بعد فترة، كان صوتها حازمًا للغاية، قالت: والآن يا «مارلى»، انزلى إلى هنا وساعدينى وكُفّى عن هذه الحماقات.. وهكذا بدأت «مارلى» فى المساعدة

مجددًا، وعندما كانت ترتب الأسرّة لم تنظر نحو هذا الدرج.. مرة واحدة، سمعت صوت ارتطام المصيدة.

ارتعدت خوفًا رغم أنها كانت تتسمع حدوثه.

قال «چو»: «انتهى أمر الفئران، لنذهب؛ لنساعد أمنا».

حاولت «مارلى» ألا تفكر فى الأمر، ماذا سيفيد الآن؟!

ولم يكن من الصعب أن تشعر بالسعادة مرة أخرى؛ حيث إن «فريتز» الذى يعمل لدى السيد «كريس» سيأتى بعد العشاء مباشرة ليأخذهم إلى معسكر السكر.

كانت «مارلى» دائمًا تعتبر اسم «فريتز» هذا اسمًا جميلاً مرحًا. لكن هذا «الفريتز» كان خجولاً ونحيفًا. جاء فى شاحنة، وركب «چو» و«مارلى» فى الجزء الخلفى. لكن «چو» لم يجلس بل وقف متماسكًا، وهكذا فعلت هى الأخرى. وبدا العالم ليلاً وقد كساه البياض؛ رائعًا وغامضًا على جانبى الطريق. مروا بمنزلين مضاءة نوافذهما وألقت بنورها على التلال المغطاة بالثلوج. حدَّثت «مارلى» نفسها: إن منزلنا يشبه ذلك أيضًا، وأدركت سبب طلب أمها ترك النور مُضاءً.

لكن، إذا كانت البيوت تبدو أجمل فى الليل، فلمَ بحق السماء كان مصنع السكر أجمل مكان فى العالم أجمع؟ قالت «مارلى» لـ «چو» بصوت شخص مُهم ويعرف ما يقوله: إنه فوق هذا التل مباشرة، عندما اختفيت عن الأنظار هذا الصباح، حدث أن رأيت الدخان يتصاعد، انظر! ثم توقفت عن الكلام.

والآن، لم يكن دخانًا بل وهج النار الأحمر هو ما رأوه. كان باب المنزل مفتوحًا على مصراعيه وكان السيد «كريس» يضع خشبًا على النار. فتح بابين كبيرين وكان يدفع قطعًا ضخمة من الخشب إلى الداخل، ونزل «چو» من الجرار قبل أن يتوقف. قال: «يا للروعة.. يا للروعة» وجرى.

كان مصنع السكر جزيرة حمراء جميلة دافئة فى وسط عالم بارد من اللونين

الأبيض والأسود.. عندما أغلق السيد «كريس» أبواب المدفأة، ظهر وهج أحمر جميل حول الأطراف وكذلك ضوء فانوس متدلٍ من عارضة خشبية فى السقف المائل. كان السقف عاليًا ويبرق من البخار، وفى قدور مستطيلة على موقد ضخم بطول مصنع السكر كان النسغ يغلى بشدة. تعالت فقاقيع مثل جواهر الكهرمان، تنخفض وترتفع، تنخفض وترتفع، وبدت الرائحة الرائعة ترتفع معها وتنطلق لتملأ الليل.

كانت ابتسامة السيد «كريس» تبدو واسعة فى ضوء المصباح، مثل صورة سانتا كلوز. كان قويًّا وضخمًا وطيبًا. لفّ ذراعه حول «مارلى» واعتصرها بشدة.

قال: هيا جميعكم، ادخلوا، ادخلوا!

4 المعجـزة الأولـى

قال السيد «كريس»: بعض الأعوام تعد جيدة بالنسبة للنسغ وبعضها ليس كذلك.. هذا العام بدأ الذوبان فى التاسع عشر من فبراير، وهذا موعد مبكر. حدث تدفق كبير. كل ما يتطلبه الأمر هو ليالٍ شديدة البرودة وأيام دافئة، ولا أحد يعلم لماذا يتسبب هذا فى خروج النسغ!

جلس «الأب» و«الأم» والسيد «كريس» والسيدة «كريسى» حول نهاية الموقد، يضحكون مثلما يضحك الناس حول النار فى رحلة خلوية. أخبر السيد «كريس» «مارلى» بأن الموقد لم يكن يطلق عليه هذا الاسم، لكنه كان يسمى «المبخر»؛ لأنه يطرد بخار الماء من النسغ بالغليان ويترك الشراب.

«تستطيع أن تضخ البترول من الأرض وكذلك الماء، لكن النسغ ـ لا يستطيع أحد أن يضخه، إنه يقرر إما أن يصعد أو لا».

وقفت «مارلى» بجانب القدور الكبيرة.. يمكنك أن تطيل النظر إلى الفقاقيع بشكل أعمق وأعمق وإلى الأبد، لكن نظرك سيرتفع ثانية. حاولت «مارلى» أن تراقب فقاعة واحدة بنفسها، لكنها لم تستطع. لقد ذهبت وحلت محلها فقاعة أخرى بسرعة كبيرة كما لو أن آلاف القدور الممتلئة بالشراب المُسكر تغلى فى وقت واحد. كان النسغ فى القدور الخلفية يبدو كالماء الذى فى الدّلاء على الأشجار، لكن فى كل قدر قريب من المقدمة، كان الماء يميل فيها إلى اللون الذهبى أكثر

وأكثر؛ لأنه كان على وشك أن يصبح شرابًا حقيقيًا. قال السيد «كريس» إنه يقوم بغلى أربعين جالونًا من النسغ؛ كى يحصل على جالون صغير من الشراب.

سأل الأب: كم جالونًا تعطى شجرة واحدة؟ وكانت «مارلى» تعرف لماذا يريد أن يعرف؛ حيث توجد خمسون شجرة قيقب، واستطاعت بطريقة عملية أن تَرى التمهيد الحسابى الذى قام به «الأب»؛ استعدادًا لبدء العمل.

قال السيد «كريس»: تعطى الشجرة المتوسطة عشرين جالونًا فى الموسم، وهذا يعنى نصف جالون من العصير.. وفى بعض الأعوام، يكون النسغ أكثر حلاوة ولا يستغرق الكثير لتستخلص منه الشراب، لكنه لا يستخلص منه الكثير، لكن هناك بعض الأشجار... ومال السيد «كريس» إلى الأمام كما لو كان يُفشِى سرًّا عجيبًا قائلاً: لدىَّ شجرة عتيقة عند سور المرعى، نعلق فيها ستة دلاء. تلك الشجرة قطرها خمس أقدام، وهى تعطينا مائتين وأربعين جالونًا من النسغ فى الموسم، كان يبدو فخورًا بما تقدمه هذه الشجرة.. هكذا خمنت «مارلى».. قال وهو يضحك: أتصور أن عمرها أكثر من مائتى عام الآن، ولكن بالنسبة لشجرة قيقب، فعمرها صغير، والنسغ متوافر بكثرة لمائة سنة أخرى.

ضحكت السيدة «كريسى» وقالت: تلك الشجرة طفل «كريس» المدلل، ومتأكدة أنه يُخرج ويلتقط الديدان منها.

فتح السيد «كريس» أبواب الموقد ثانيةً وبدأ يلقى مزيدًا من كتل خشب.

قال «الأب»: دعنى أساعدك فى ذلك. التقط قطعة متوسطة الحجم وألقى بها داخل الموقد.

قال السيد «كريس» وهو لايزال يفكر فى شجرته المدللة: عندما تموت هذه الشجرة سوف تعطينا خشبًا لمدة موسم آخر من السكر، وهذا أمر يفيد العالم، أليس كذلك؟ لو كان هناك إنسان يستطيع أن يكون مفيدًا مثلها! ثم أغلق الأبواب بحذائه الكبير ذى الرقبة.

وفجأة، عندما ارتفعت الحرارة من الكتل، بدأ النسغ يرتفع بسرعة، وارتفعت الفقاقيع بالقدور كالسحر، أسرع وأسرع.. ووقفت «مارلى» فى الخلف تصيح قائلة: «إنها سوف تفور».

ارتفع النسغ بكل قدر فجأة، وموجات هائلة تفور عند الحواف.

ضحك «كريس» ووصل رأسه حيث كان هناك دلو يتأرجح بحبل من السقف المائل، وقال: والآن سوف أعرض عليكم خدعة سحرية.

كان بالدلو زجاجة صغيرة مملوءة بشىء أبيض، وكانت بداخلها عصا. فأخذ السيد «كريس» العصا من الزجاجة ولوّح بها فوق القدور، و«مارلى» تحملق و«چو» يشهق مندهشًا.. فعلاً مثل السحر، لقد اختفت الفقاقيع عندما مرت العصا فوقها.

صرخت «مارلى»: «ماذا، إنه سحر!».

ضحك «الأب» وسأل: « دهون يا «كريس»؟».

قال «چو»: أنا أعرف. لقد قرأت عنها فى العلوم، إن الدهون تخترق التوتر السطحى.

قال السيد «كريس»: إن الأولاد أذكياء جدًا هذه الأيام، إنهم لا يؤمنون بالسحر بأية حال، ما عدا «مارلى». ابتسم الجميع ثم تقدم نحوها وأعطاها حضنًا صغيرًا، كانت لا تزال واقفة تنظر إلى الفقاقيع الهابطة ثم إلى الزجاجة والعصا فى يد السيد «كريس».

وتساءلت: حسنًا، حتى إذا كان كما قال «چو»، فهو مثل السحر، أليس كذلك؟

عندئذ، ضحك الجميع وقال «چو»: أتدرون ماذا قالت اليوم؟ قالت: إن الفأر مهم مثل الجاموسة!

حدّق السيد «كريس» فى «مارلى» وهو يضع الدهون فى الدلو مرة أخرى، وسأل: هل قلتِ ذلك؟ إننى لا أعرف، لكنها قد تكون على حق إذا كانت تتكلم عن الأخ الأكبر. هل ترين هذا الدلو يا «مارلى»؟ إننى أحتفظ به معلقًا فى هذا

الحبل؛ للإبقاء على الدهن به.. وإن لم أفعل، فعندما أستدير، تفرغ الفئران الموجودة بالمكان الزجاجة تمامًا.

قالت السيدة «كريسى»: إننى مندهشة؛ لأنك لا تسمح لهم أن يأخذوها. لقد خرجت ووجدته يلعب مع هذه الفئران، وهل تعرف ماذا قال عندما أكلت السناجب ثمار الجوز من شجرتنا؟ قال: دعوها تأكل ثمار الجوز هذه، وسوف أشترى لها كيسًا آخر بمناسبة «عيد الميلاد»، إنه يفعل نفس الشىء مع هذه الفئران. إن الفئران لم تكن لتفكر فى أن الدهون لها لو أنه لم يعطِها منها أبدًا.

«حسنًا» قال السيد «كريس» بينما ضحك الجميع: إن مصنع السكر مكان جيد للفئران تعيش فيه خلال الشتاء.. يجب أن تعيش، أليس كذلك؟ كما نفعل نحن.

كانت «مارلى» تحملق فى وجه السيد «كريس»، وسألته: إنك لم تضع مصائد للفئران أبدًا ؟ أو تحرق صغارها فى النار؟ أليس كذلك؟!

قالت «الأم»: «كفى، يا «مارلى»...».

لكن «مارلى» لم تأبه لما تقول، وسألت السيد «كريس»: لم تفعل.. أليس كذلك؟

قال السيد «كريس»: لا لم أفعل.. لماذا؟ إنها أشياء صغيرة لطيفة، وهناك فأر كبير يأتى كل يوم، جميل مثل البرعم الصغير له أقدام بيضاء وأذنان كبيرتان، وهو يشبه الحمار بهاتين الأذنين. أنا وهو أصدقاء للغاية، عندما أكون وحدى هنا ساعات وساعات تحدث أشياء كثيرة، غمز بعينه لـ «مارلى» ونظر إلى السيدة «كريسى» وقال: زوجتى لا تعرف كل شىء عن أصدقائى الظرفاء.

سألته «مارلى»: هل رأيت، أبدًا، فأرًا عنده ألف فأر صغير؟

دهش السيد «كريس» وهز رأسه. وقال «چو» بسرعة وقد مال لون وجهه إلى الأحمر: لقد كان فأر مرعى يا «مارلى»، لقد قرأت ذلك فى كتاب...

قالت «الأم»: كانت الفئران تملأ المكان وكان يجب أن نتخلَّص منها، لكن بالنسبة لـ «مارلى»، فمن حق كل عنكبوت، وكل مخلوق أن يعيش.

سادت فترة قصيرة من الصمت، ثم قال السيد «كريس» بوقار: حسنًا، إن شعورًا كهذا لن يسبب لها أذًى أبدًا.

تحدث «الأب» فجأة وتحرك؛ ليحمل «مارلى» على ركبتيه: إذا بكت أكثر مما ينبغى. نظرت «مارلى» إليه مندهشة .. وكذلك فعلت «الأم» و«چو».

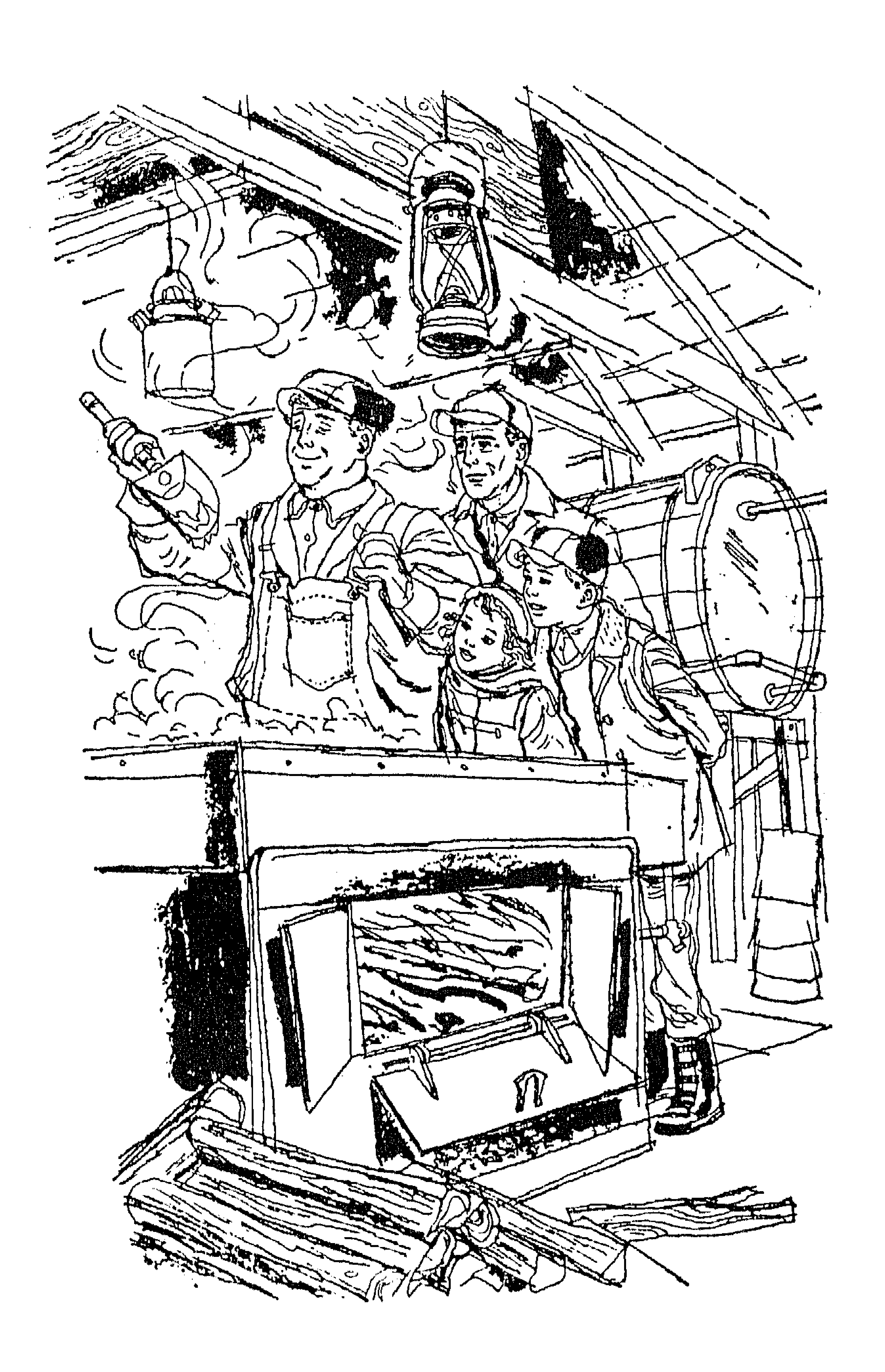
قال السيد «كريس» وقد أخذ محراكًا خشبيًّا من كلاّب على الحائط: حسنًا، حان الوقت لنختبر جودة هذه العجينة. يتذوقها كل واحد هنا ما عدا «مارلى»، تتذوقها مرتين؛ لأنها لطيفة مع الفئران. غمس المحراك فى القدر الأخير وجعل الشراب ينزلق منه ببطء مرة أخرى.

تساءلت «الأم»: «هل عندما ينضج، يكون مثل خيط الغزل مثلما يحدث مع الكراميل»؟

قال السيد «كريس»: ليس تمامًا، إنها تكون ألواحًا مثل هذا وكان الشراب معلقًا على طرف المحراك وسقطت قطرة كبيرة منه ببطء، قال السيد «كريس»: بعض الناس يستخدمون الترمومتر، لكننى أحب أن أكون قادرًا على أن أقرر بنفسى. يبدو لى أنه عندما يبدأ الإنسان فى استخدام الآلات لكل شىء، فإنه لن يتعلم. إننى أقوم بذلك طوال أربعين سنة ومنذئذ اعتدت أن أغلى الشراب فى غلاية على مستوقد من الحجر بنيته هناك، بين الأشجار. أحسب أننى يجب أن أكون قادرًا على المعرفة من دون أية مساعدة، مثلما تعرف الأشجار موعد إفراز النسغ! والآن، انظروا إلى هذا، مثالى، أحد عشر رطلاً للجالون أو أكون قليل الخبرة تمامًا.

فتح سدادة فى جانب القدر، وبدأ الشراب يتدفق إلى صفيحة سعة خمسة جالونات، كان سيلاً ذهبيًّا فى ضوء المصباح وتم ربط قطعة قماش فوق الصفيحة كمصفاة الشراب، قال السيد «كريس»: الآن، اغرفى يا «مارلى» البعض فى هذه الكأس، وضعيها فى الثلج كى يبرد.. والآن، هذا بعض الشراب لك يا «چو».

حملت «مارلى» كأسها المعدنية بعناية ووقار، ووضعتها فى كومة من الثلج، كان



الشراب ساخنًا لدرجة أن مقبض الكأس قد آذى أصابعها ، حتى قبل أن تجلس، ووضع «چو» كأسه على كومة ثلج أخرى، ثم وقفا ينتظران.

قالت السيدة «كريسى»: يمكن أن نغلى القليل منه فى المنزل لفترة ثم نصبّه فوق الثلج ونصنع شمع السكر. وذكرت أنها اعتادت على الاعتقاد بأن الشمع أفضل علاج فى العالم، واعتاد الناس حولنا على استخدامه فى حفلات استخلاص السكر أثناء الموسم.

أرتهم كيف صار الشراب الساخن لزجًا فجأة فى الثلج، وكيف أمكنهم أن يغمسوا عصا فى الشراب ويلوونها ليصنعوا قطعة كراميل فى طرفها.

ثم يأتى الطعم.. كان مثل الرائحة، لكنه أقوى، أحلى وأكثر ثباتًا.

قال السيد «كريس»: خذوا بعض الشراب إلى البيت وتناولوا الفطائر المحلاة فى الصباح.. هل أحضرت المواد التى تصنع منها يا «لي»؟

قالت «الأم»: بالطبع وعلبة شراب من البقالة فى «بيتسبرج»!

قالت السيدة «كريسى»: يا له من أمر مخيف!

ضحك الجميع، ووضعت «مارلى» إصبعها فى الكأس وكان باردًا بدرجة كافية، جلست على كومة الخشب أمام النار وبدأت فى رشف الشراب. اعتبرت الشراب أفضل من الشمع. كانت الرائحة تخترق الأنف أيضًا بطريقة غريبة. سألها السيد «كريس»: هل يروق لكِ؟ قبل أن تصلك رائحة الربيع، يا «مارلى».. الآن، حصلت على الطعم. إن النسغ أولى المعجزات التى تحدث كل ربيع. بعد انتهاء فصل الشتاء، وكل شىء ساكن تمامًا، فجأة تدب الحياة فى الأشجار مرة أخرى.

قالت «مارلى»: هذه معجزة حتى فى المتنزه، فى البيت بأسفل. كل سنة.

كان «چو» مرتبكًا قليلاً، كما لو كان شخص ما قد بدأ فى إلقاء قصيدة شعر.

قال السيد «كريس»: إن تدفق النسغ يعطينى شعورًا لا أستطيع أن أصفه.

جلس الجميع صامتين كما لو كانوا فى كنيسة، والسيد «كريس» يلقى موعظة. لكن المكان كان مختلفًا عن الكنيسة؛ حيث كان «الأب» و«الأم» و«كريسى» جالسين على أريكة قديمة بالية يحتفظ بها السيد «كريس» فى أحد الأركان، بينما كان «چو» والسيد «كريس» و«مارلى» جالسين على كومة الخشب. وجلس «فريتز» على دلو مقلوب، وقد برز حذاؤه ذو الرقبة أمامه.. أضرمت النار وبدأ غليان النسغ، وكانت الحرارة التى توحى بالنعاس، وضوء الفانوس المتموج والرائحة المشبعة بالبخار رائعة، وكانت قطرات حلوة صغيرة تسقط أحيانًا من السقف.

قال السيد «كريس»: أود لو غنَّى أحدكم أغنية، فقد اعتدنا أن نجلس حول نار السكر ونغنى.

قالت «الأم»: مثلما نفعل فى الصيف خلال نزهاتنا.

فقال «كريس»: «ألم تخبرينى يا «لي» أن «دال» قام بالغناء فى بداية خطوبتكم؟ أتذكرين أنكِ قلتِ إن صوته كان جميلاً جدًّا؟».

قال «دال» ضاحكًا: آه، كانت تعتقد أن كل شىء يخصنى جميل فى ذلك الحين.

قالت «الأم» دون أن تضحك: إن صوتك رائع يا «دال».

قال: ربما كان، وقال لـ «كريسى»: أخشى أننى لم أعد أغنِّى.

سأل «كريس» بصوته الجهورى: لمَ لا؟ إن أى إنسان يستطيع الغناء يجب ألا يتوقف عنه أبدًا، إن من يستطيعون الغناء ليسوا كثيرين، ودائمًا كنت أقول لـ «چو» إننى لو استطعت أن أحمل لحنًا فى دلو نسغ لما أرحت الناس أبدًا.

قالت «الأم»: أغنية واحدة يا «دال».. إنهم أصدقاء قدامَى.

كان صوتها عاليًا وهى تسأله الغناء، لم تخبره أنه يجب عليه أن يغنى، بل سألته فقط بطريقة لطيفة.

حبست «مارلى» أنفاسها؛ كى تستطيع أن تتذكر أباها عندما كان يغنى، لكن ذلك كان منذ زمن بعيد ـ قبل أن يرحل بعيدًا، وذلك عندما كانت تذهب إلى فراشها ليلاً.

قالت «الأم»: تلك الأغنية القديمة عن الثعلب، تلك الأغنية الشعبية ستكون لطيفة، لقد اعتاد الأطفال أن يحبوها.

«لا أعتقد أننى أتذكر جميع الأشعار...».

قالت «الأم»: ربما أستطيع مساعدتك عندما تغنى، ويستطيع الجميع أن يرددوا السطور الأخيرة معًا، تلك السطور عن المدينة.

ظل «الأب» يمعن النظر حوله فترة قصيرة ثم وقف وحرّك رأسه إلى الخلف ورفع بصره إلى البخار المتصاعد. كان صوته ضعيفًا فى البداية، لكنه صار أقوى وأقوى.

أوه، خرج الثعلب فى إحدى ليالى الشتاء.

وتوسل إلى القمر أن ينير طريقه...

كانت أغنية شعبية رائعة، ذلك النوع الذى تفضله «مارلى».. أخذ الثعلب البطة السمينة إلى زوجته وصغاره فى البيت، وتأخر الفلاح كثيرًا ليحول بين الثعلب والبطة.. كان صوت «الأب» يزداد جمالاً مع كل بيت شعرى. وفى نهاية كل بيت شعرى كان مصنع السكر مشبعًا بالغناء مثلما هو مشبع بالبخار.

كان السيد «كريس» يخرج عن اللحن قليلاً، لكن ذلك لا يهم.

وصفق الجميع طويلاً عند نهاية الأغنية، وقال «چو»: أبى، أظنك تعرف أغنية أخرى عن الثعلب، أتذكرك وأنت تغنيها، عن بعض الصيادين الذين سألوا صبيًّا عن مكان الثعلب ولم يخبرهم...

وبدأت «مارلى»: وكان الثعلب متعبًا و...

قال «الأب»: تلك أغنية سريعة أحتاج أن أتدرب عليها.. سوف أغنيها.. لكن، عندما نعود إلى البيت سوف أتدرب كل ليلة.. نظر إلى «الأم» فابتسمت وكان كل شىء على ما يرام بطريقة نسيتها «مارلى» تقريبًا.

قال «فريتز» بإعجاب: حسنًا، من المؤكد أنك تستطيع أن تؤدى لحنًا.

هبت «الأم» واقفة وقالت: إن الوقت قد حان، ويبدو أن «مارلى» سوف تسقط من كرسيها فى أية لحظة.

وهكذا ساروا جميعًا إلى الخارج نحو الشاحنة وكانت «الأم» و«كريسى» و«مارلى» يَمشين فى المؤخرة وينظرن إلى الخلف نحو الباب المضىء.

قالت «الأم»: إنه جميل جدًّا يا «كريسى». لابد أنك تحبين موسم السكر..

قفزت «مارلى» عندما أجابت «كريسى»؛ لأن الطريقة التى تكلمت بها لم تكن مثل السيدة «كريسى» مطلقًا، كان صوتها منخفضًا وصارمًا، يشبه كثيرًا صوت «الأب» عندما يكون غاضبًا ومتعبًا. قالت «كريسى»: أحبه؟ إننى أكرهه! تمكنت «مارلى» بالكاد أن تصدق أذنيها. ارتعش صوت «كريسى» وهى تقول: إنه يجهد نفسه فى العمل كثيرًا، يجب أن تدركى ذلك يا «لي»، لقد أصيب بنوبة قلبية منذ سنتين قبل نهاية الموسم، لكن لا شىء يوقفه.. لا شىء! هل تعتقدين أنه سيعتنى بنفسه وهناك عمل ليقوم به؟ لكنهم وصلوا إلى الشاحنة والرجال يتجاذبون أطراف الحديث مع بعضهم البعض ويضحكون، ولم تقل شيئًا آخر.

شعرت «مارلى» بأنها قد انتبهت تمامًا ثانيةً.

قال السيد «كريس» وهو يدفعها فوق الشاحنة: قال أبوكِ إنكِ سوف تأتين لقضاء الصيف كله هنا بعد انتهاء العام الدراسى، وسأقوم أنا وأنت ببعض الجولات، ماذا تقولين؟ سوف أقدمك لكل فأر أعرفه، وكل طائر والأشجار والزهور، فأنت لم تشاهدى أى شىء فى المنطقة بعد!

قالت: سيكون ذلك رائعًا، وهكذا سوف تذهب معه.. ولن يهم إذا كان «چو» سيأخذها أم لا.

سألها السيد «كريس»: أتدرين بمَ سأعدك؟ سوف تحضرين فى عطلة نهاية كل أسبوع حتى ينتهى العام الدراسى، وأعدك بمعجزة واحدة جديدة على الأقل خلالها.

صاحت: موافقة! وبدأ صوت محرك الشاحنة يعلو. ليلة سعيدة! ليلة سعيدة! وكانت الحقول الواسعة تتلألأ تحت ضوء القمر.

كانت الغابات تبدو مظلمة ومخيفة عند أطرافها، ثم ظهر ضوء وضوء آخر..

قال «چو»: إن هذا الضوء الثانى بيتنا!

وعندما دخلوا البيت، بدأ «الأب» يغنى مرة أخرى من دون أن يسأله أحد أو يخبره.. بدأ فجأة يغنى الأغنية القديمة التى يقول مطلعها: «ليكن دائمًا متواضعًا...».

اعتبرت «مارلى» أن هذه الأغنية معجزة هذا الأسبوع.. إنها أفضل من مصنع السكر أو الخدعة السحرية.. فكرت فى هذا الأمر عندما نامت على السرير العتيق حيث نامت «الأم» عليه عندما كانت فتاة صغيرة.

5 فطائر محلاة

أوفى السيد «كريس» بوعده ـ بل وأكثر ـ فعند بداية الربيع لم يكن حدوث معجزة واحدة كل مرّة شيئًا يستحق الذكر.

فى الواقع، مر أسبوعان قبل أن تتمكن «مارلى» من العودة إلى تل «مابل» ثانية.. ففى الأسبوع الأول، أصيبت «الأم» بنزلة برد ولم تستطع قيادة السيارة لتلك المسافة الطويلة. خاطبهم الوالد من منزل السيد «كريس» وتحدث جميع أفراد عائلة السيد «كريس» إلى جميع أفراد عائلة «مارلى». قال «الأب»: إن الجو كان دافئًا لمدة يومين، وخرج للعمل فى الجو المشمس، لكن «الأم» كانت ما زالت تعانى من زكام شديد؛ لذلك لم تستطع الخروج.

بكت «مارلى»، وتساءلت: أية معجزة ستفتقد؟ بالإضافة إلى أنه لم يتبق من عمليات استخراج السكر الكثير. لكن لم يستطيعوا عمل شىء بخصوص أنف «الأم» ورغم كل شىء، قالت «الأم»: «مارلى»، إنك تجعلييننى أشعر بأننى أسوأ مما أنا فيه فعلاً؛ لذا لم تقل «مارلى» كلمة أخرى.

ثم هبت عاصفة ثلجية عنيفة، وفى ليلة واحدة سقطت ثلوج بارتفاع قدم.. كان شهر إبريل تقريبًا.. كان الجميع يخرجون وقد حملوا معاطفهم على أذرعهم، وكان الناس يبتسمون لبعضهم البعض فى الشارع، وبدا المنتزه كما لو كان فى انتظار حدوث شىء براق فى أية دقيقة.. جفت أشجار الليلك فى الشمس، وبدأت

البراعم تتزايد على الأغصان البنية، ولكن عندما عاد البرد فى ليلة واحدة، بدا كما لو أن الشتاء قد بدأ من جديد، وتضايق الجميع. لم يَعُد الناس يتبادلون الابتسام، وإن فعلوا فلن تعرف؛ لأن أفواههم كانت مغطاة بالكوفيات وياقات ملابسهم.. كانت «مارلى» تحب ارتداء حذائها الجديد ذى الرقبة والكوفية والقفاز فى الخريف. لكنها الآن تبدو متسخة، وشعرت بثقلها عندما ارتدتها.

كتب «الأب» خطابًا طويلاً قال فيه: أنتم يا سكان المدن لستم بحاجة للتفكير فى الطقس. إنه مجرد مسألة تتعلق بخروجكم من باب لتدخلوا بابًا آخر. لكن الأمر هنا مختلف! يا لها من عاصفة! قال «كريس»: لا شىء فى الريف أهم من المناخ.. ولقد أعطانى هذا خبرة فى التقويم.

ومع ذلك، ذهب الثلج سريعًا هذه المرة. وعندما ارتادوا الطريق، كانت القيادة سلِسة على امتداد الطريق.. وكان الثلج لايزال متراكمًا فى بعض الأماكن الظليلة طوال الوقت، لكن ليس فى أى مكان آخر، وكانت بعض حقول القمح الشتوى قد اخضرت.

كان هناك بعض الحصى فوق التل حيث توقفوا من قبل، واتخذت السيارة طريقها بسهولة. لكن «الأم» توقفت بعد أن قطعت جزءًا من الطريق لأعلى التل، وقالت: باستطاعة «مارلى» و«چو» أن يعدوَا إلى مصنع السكر، ويتأكدا من وجود السيد «كريس»، لكنه لم يكن هناك. كان قد تم إنزال الدلاء من الأشجار ووضعت مقلوبة على الأرض، كذلك تم قلب القدور الكبيرة، وإطفاء النار.

خمنت أن «چو» شعر مثلها بالحزن. المؤسف أن ترى مكانًا خاويًا وباردًا بعد أن كان مفعمًا بالحياة ودافئًا.

قالت «مارلى»: سنراه مرة أخرى العام القادم.

قال «چو»: بالتأكيد. فالسيد «كريس» سوف يُعلمنا فور تدفق النسغ. ولكن عند خروجهما من مصنع السكر وقد غمرهما الحزن، حدث شىء رائع على بُعد أقدام قليلة، وقف أيل ناظرًا إليهما، وقف بلا حراك تمامًا رافعًا رأسه وأذناه

منتصبتان، ورأت «مارلى» على وجهه أكثر التعبيرات دهشة، والتى لم يسبق أن رأتها من قبل.

صاحت: انظر!

وثب الأيل واستدار مبتعدًا بين الأشجار، قفز قفزات رائعة من دون تعثُّر مثل راقص باليه، وكان ذيله الأبيض يعلو ويهبط.. يعلو ويهبط.

تساءل «چو»: لماذا لم تصمتى؟ لقد أرعبته، لقد رأيته بمجرد أن رأيته أنت، لماذا لم تطلبى منى بهدوء أن أنظر؟

قالت: كان جميلاً للغاية.

مشى بخطوة وئيدة أمامها.. كما لو كان يحب أن يشعرها بالخجل، قالت: سوف ألكزك فى المرة القادمة يا «چو». لكننى كنت منبهرة بشدة هذه المرة. سأخبر السيد «كريس» أننى رأيت أولى المعجزات بنفسى.

ثم جاء «الأب» بعد فترة قصيرة، فلقد سمع صوت السيارة قادمة، فنزل من أعلى التل ليقابلهم ضاحكًا وملوّحًا بذراعيه.

قالت «الأم»: «دال»، إن طهوك جيد بالنسبة لك.

قال: الفضل لولائم «كريس» والهواء. بدا سعيدًا لرؤيتهم، مثل بعض الناس الذين تقابلهم فى محطات السكك الحديدية ولم يكن بهذه الصورة إطلاقًا عندما عاد إلى البيت فى البداية.

قال وقد التفت إلى الباب: انظرى هناك، انظرى بعيدًا فوق المستنقع يا «لى»، هل ترين اللون.. ذلك اللون الأحمر الغامض؟!

يقول «كريس»: إنه فصل الربيع.

خرج بهم قبل العشاء؛ لمشاهدة الكرنب المنتن.

قد تتصورون أن شيئًا يسمى الكرنب المنتن سيكون قبيحًا وكريه الرائحة، وقال «الأب»: إنه نوع غريب لكنه مثير للاهتمام كذلك. «بشع و...». صمت لبرهة ثُم ضحك، وقال: حسنًا، سوف ترون أنه بشع.. وجميل!!

إنه ينبت من الأرض بامتداد مجرى صغير، كان يتدفق نحو الوادى فوق تل «مابل» وخلف المنزل. كانت هناك أبواق ناعمة مسدودة منبثقة هنا وهناك حيث اختفى الثلج. كانت خضراء وبها رسوم حمراء داكنة، قال الوالد: يقول «كريس»: إنها علامة للبداية الفعلية للربيع، بعد النسغ.

عندما كرر عبارة.. يقول «كريس».. رأت «مارلى» «الأم» تبتسم عندما كرر ما يقول. داروا جميعًا حول المنزل والفناء ليشاهدوا ما قام به «الأب». لا أثر للغبار ولا أثر لمخلفات الفئران. تم إصلاح درجات السلم، وقالت «الأم»: «دال»، يا لها من نوافذ نظيفة للغاية! سنرى غروب الشمس الليلة، ثم أخرجت الستائر الحمراء والبيضاء الجميلة التى أحضرتها معها.

لم يكن قد أشعل النار داخل المطبخ فقط، بل فى حجرة المعيشة أيضًا. كان الموقد الموجود فيها يسمى فرانكلين نسبة إلى «بنيامين فرانكلين» الذى اخترعه بمساعدة أحد الفئران، وقد أخبرت «مارلى» «چو» لتوها عنه. كان «چو» وحده هو الذى قال: إنها مجرد قصة فى كتاب، ولم تكن حقيقية.. على أية حال، كان الموقد مثل مدفأة صغيرة لها أبواب صغيرة من الخشب المنحوت وفوقها مكان يمكن أن تضع قدميك عليه لتجفا. تنهدت «مارلى» وقالت: آه.. هذا ألطف.. وأجمل المنازل وأكثرها راحة فى العالم، هل يمكن أن نظل مستيقظين إلى وقت متأخر؟ هل نستطيع؟ لوقت متأخر فعلاً!!

بعد العشاء، حضر إليهم آل «كريس»، جلسوا جميعًا هنا وهناك.. قال السيد «كريس»: إنه قام بـ «نزع الدلاء» الموجودة بـ «الأجمة السكرية»(*) أمس؛ لأن البراعم بدأت تتفتح على جميع الأشجار، ثم قال: عندما تتفتح البراعم يصبح النسغ داكنًا وكريه المذاق وغير صالح للاستخدام، فقط من الممكن غَليه وبيعه للمصانع ليوضع على التبغ المتضغ، لكن الأمر لا يستحق التعب.

(*) الأجمة السكرية: أجمة حافلة بقيقب السكر.

قالت «كريسى»: هذا يذكرنا بالأيام الخوالى ، عندما كانت جدتك تعيش هنا يا «لي»، ومن الرائع أن يكون صغارك معك.

لكننى ظللت أبحث عنها. تمنيت لو استطعنا أن يكون بصحبتنا الصغار والكبار أيضًا.

هز السيد «كريس» رأسه وابتسم قائلاً: لندع الصغار ينعمون بحياتهم الآن، إذا ظللنا نحن الكبار أحياء فسوف نملأ العالم مثل الفئران.

نظرت «مارلى» إليه سريعًا.

قالت «الأم»: شش! «كريس»، لا تبدأ أى موضوع عن الفئران ثانيةً.

لكنه قال ذلك لأجل «مارلى»، وأدركت ما كان يعنى: كانت هناك أمور مهمة، وكذلك هناك أشياء ليست بهذه الدرجة من الأهمية.

عندما استيقظت «مارلى» فى صباح اليوم التالى، كانت هناك معجزة أخرى خارج النافذة مباشرة. كانت الشمس تشرق، وكان الجو صافيًا وباردًا جدًّا، ويوجد على كل فرع من فروع الأشجار عشرة ملايين بللورة تتلألأ حتى أصغر غصن. كان للشجرة، التى توجد خلف نافذتها مباشرة، عدد ضخم من الخيوط المتلألئة كما لو كان كل فرع وكل غصن مغزولاً من الجليد، ومن بين الخيوط تقفز الطيور أجسادًا صغيرة سوداء وباردة.

شعرت «مارلى» كأنها لم تتأمل العالم طويلاً قبل الآن مطلقًا.

سمعت الباب فى الدور السفلى يُفتح ويُغلق ثانية. هل كان الأب يخرج فى هذا البرد القارس؟ تذكرت أنه بعد عودته للبيت كان يرتجف دائمًا ويظل بالفراش أيامًا، واضعًا وسادة ساخنة عند قدميه. والآن خرج إلى هناك فى عالم من الثلج الصلب.. لم يكن الأب! وعندما انحنت لتنظر من النافذة، استطاعت أن تسمع فروع الشجرة المجاورة لنافذتها وهى تصطك ببعضها البعض.

لكنه لم يكن «الأب».. كان «چو» وقد ارتدى معطفه الثقيل وحذاءه ذا الرقبة وقفازه، وقد وضع وقاء الأذن الأخضر.. سحبت «مارلى» النافذة، لكنها لم تتزحزح.

دقت عليها وصاحت، فالتفت «چو» ورفع بصره إليها. حتى من هذه المسافة استطاعت أن ترى نظرة الاشمئزاز تعلو وجهه، وتحرك فمه ببعض الحركات بدت كأنه يقول لها «اخرسى!»، ثم استدار وأسرع يصعد التل، تابعته وهو يختفى.

حسنًا! هل ظن نفسه بارعًا ليخرج فى مغامرة سرية قبل أن يستيقظ أحد؟ لدقيقة شعرت بالغيرة الشديدة، وشعرت بها كما لو كانت قد وصلت إلى أصابع قدميها فرفعتها عن الأرض الباردة.. لكن، على أية حال، من يريد أن يخرج فى كل هذا الثلج؟ لم يكن «چو» بطلاً عظيمًا فى آخر مرة اختفى فيها فوق التل حسبما ظن نفسه. عندما فكرت فى ذلك، شعرت أنها فى حال أفضل، وأن بإمكانها ـ إذا أرادت ـ أن تذهب أيضًا. لمَ لا؟ ارتدت ملابسها، وأسنانها تصطك من البرد.

أثناء تسللها عبر الردهة، سمعت صوت «الأب» وهو يغط فى نوم عميق. بررر! حتى المطبخ كان باردًا. فتحت الباب، ودخلت هبّة من الهواء البارد.. الرحمة! لينعم «چو» بالفضاءات الممتدة هذا الصباح. مَنْ يريد الخروج؟

ثم طرأت لها فكرة. سوف تفاجئ الجميع. ستشعل نارًا مناسبة، وتُعد الإفطار. وعندما يهبط «الأب» و«الأم» إلى الطابق السفلى، سوف يقفان عند الباب ويحملقان ويقولان: حسنًا، لِنَرَ من استيقظ هنا مبكرًا هكذا؟ نعتقد أننا قد شممنا رائحة شىء طيب.

كمية وفيرة من الورق والخشب والفحم. رفعت الغطاء الأول عن الموقد القديم، ووضعت فيه جزءًا من كل هذه الأشياء الغريبة. سوف تغلى الماء وتُعد قهوة، ثم تعجن عجينة من الفطائر المحلاة!

كان أمرًا مثيرًا أن تشعل النار. لم تشعل نارًا بنفسها فى حياتها أبدًا، ملأت الموقد بأشياء قابلة للاشتعال، ثم أشعلت عود ثقاب. أمسكت الورقة بالنار على الفور وتوهجت على نحو ساطع. كم كانت النار جميلة، فكرت، وتذكرت السيد «كريس» وهو يضع كتل الخشب على النار فى مصنع السكر.. وضعت الغطاء مكانه وانتظرت.

لكن على الفور، بدا خطأ ما فى هذه النار. فبدلاً من أن تتّقد وتصير دافئة كما يجب، بدأت دوائر الدخان تتصاعد من جميع أغطية الموقد. فكشفت الغطاء لترى. توقف الورق عن الاشتعال، ليتصاعد منه الدخان فقط. وجدت عود ثقاب آخر وحاولت ثانية، وهى تسعل.

لكن حدث نفس الشىء، تصاعد دخان كثيف هذه المرة حول كل غطاء، فكشفت أحد الأغطية، ووضعت كمية كبيرة من الورق بسرعة، وأشعلت عود ثقاب آخر، والآن أصبح الدخان يتصاعد ليس فقط من الورق، ولكن من المواد الملتهبة أيضًا.

جاء صوت «الأم»: يا إلهى، ماذا حدث؟ «دال».. إن شيئًا يحترق!

وطأت أقدام «الأب» الأرض، كان يجرى بطول البهو وهبط السلالم، و«الأم» خلفه مباشرة.

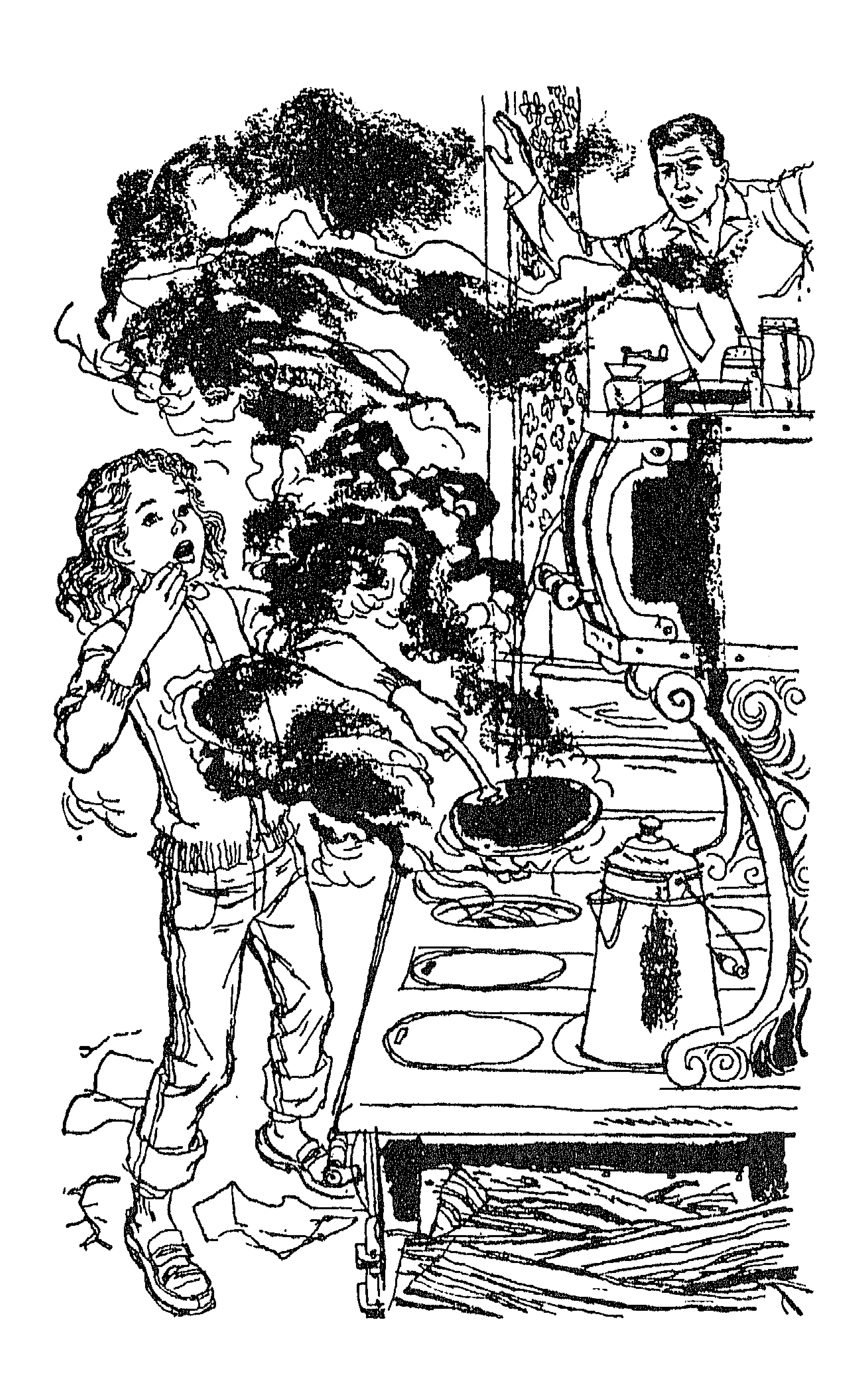
«مارلى» ماذا يحدث؟ دفعها دفعة قوية بذراعه؛ أوقعتها على الأرض. وكشف غطاء الموقد فاندفع الدخان فى سحابة أخرى ضخمة، كتلة هائلة. ثم أعاد الغطاء واستدار ليصل إلى جانب الموقد ودفع شيئًا.. وفجأة، توقف انبعاث الدخان. كان عملاً كالسحر ومفاجئًا مثلما كان الحال مع «كريس» والدهون.

لم تحرك «مارلى» ساكنًا وشعرت بقلبها يدق أعنف وأعنف، ووقف «الأب» ينظر إلى الموقد، ثم التفت ونظر إلى «الأم»، ثم نظر إليها. أدركت أن غضبه كان أقوى مما رأته على مدار حياتها، وأيقنت أنه غاضب للغاية، غاضب لدرجة أنه لم يستطع الكلام، بل استدار وغادر الحجرة والمنزل ولم يَعُدْ لساعات وساعات.

بعد أن عاد، سألها الأب: ماذا كنت تحاولين أن تفعلى؟ حرق المنزل؟

قالت «الأم»: آه، ستائرنا الجميلة!

قالت «مارلى»: أردت فقط أن أدفئ المكان وأن أعد طعام الإفطار. كنت سأُعِدُّ لكم فطائر محلاة، كمفاجأة.. أصدقك القول يا أبى، إننى... فقط. كان



صوتها ووجهها وجسدها كله يبدو مشلولاً من الخوف عندما رفعت بصرها إليه وقد وقف أمامها ضخمًا للغاية فى بيچامته، ناظرًا لأسفل. التفتَ إلى الموقد وكشف الأغطية مرة أخرى وجذب بعض الأشياء التى وضعتها. صارت يداه تهتزان بعنف، وبدا وجهه صارمًا. انتظرت أن يستدير إليها ثانية، ويقول ما كان سيقوله، وسوف يكون مُحقًّا أن يوبخها هذه المرة. فإن ما فعلته كان عملاً أحمق ورهيبًا.

قال: يا له من فزع! لقد وضعت كمية كبيرة يا «مارلى» فى المقام الأول. انظرى! هذا كثير للبداية، كان يجب أن أخبرك عن ذلك الصمام المنظم. استدار، وكان يبتسم! وقال: لقد فعلت نفس الشىء فى صباح أحد أيامى الأولى هنا. والآن انظرى.. عندما يعود الصمام المنظم إلى وضعه الأصلى...

شرح كل شىء عن ذلك الموقد الكبير القديم، اقتربت منه لترى. شعرت بغصّة فى حلقها وغمرها شعور بأنها خفيفة حتى أنها كادت تطير.

قال «الأب»: يمكن أن تذهبى إلى الفراش يا «لي»، حتى يصير البيت دافئًا، سأشعل أنا و«مارلى» النار داخل الحجرة الأخرى أيضًا. لقد بدأت فى إعداد طعام الإفطار وسوف تكمله، ولكن لم يكن ما قاله توبيخًا. كان نوعًا من السخرية، والاختلاف بينهما شاسع.

قالت «الأم»: يا للسماء، لم أعد أقوى على صعود السلم. رأت «مارلى» علامات الارتياح عليها، ليس فقط لعدم وجود حريق، ولكن لأن «الأب» لم يأبه بشأن الدخان، وقال: «ظننت أن الحريق شب فى البيت كله. تعرفين ما دار فى عقلى تلقائيًّا؟ لم نحصل على تليفون حتى الآن. وهكذا سيحترق كل شىء ويسوّى بالأرض»، ضحكت وهى ترتعش. ثم استدارت واختفت صاعدة السلم.

وقف «الأب» يَفرك يديه فوق النار، وقال: أقول لك شيئًا، سوف أقوم أنا وأنت

بإعداد تلك الفطائر المحلاة ونأخذ طبقًا مملوءًا منها إليها فى الدور العلوى، لتأكل فى الفراش مرة، مثل سيدة راقية.

فجأة، وبلا سبب على الإطلاق جرت نحوه واحتضنته بقوة وبدأت تبكى.

قال: كُفّى عن البكاء. لم يحدث أى مكروه!

لكنها لم تكن تبكى بسبب النار. كانت كما لو كان شىء يمور فى بالون داخلها انطلق عندما رأته فى تلك الدقيقة. شعرت براحة كبرى، كل شىء حتى تلك الغصة فى حلقها ذابت وابتلعتها واختفت كُليةً.

قال «الأب»: حسنًا يا «پولى».. ضعى الغلاية!

فعلت ما أمرها به وصنعا ألذ فطيرة محلاّة تناولتها طوال حياتها، وعندما دخل «چو» وقد احمر وجهه وهو يشعر بالبرد، كانت تضع بعض الفطائر فى المقلاة. لم يسأل «الأب» «چو» أين كان، بل قال: تعال وتناول بعض الفطائر المحلاة، إن فطائر «مارلى» يا «چو»، جميعها مزخرفة بزخارف «كريس» التى لم يرها أحد من قبل!

كانت كل فطيرة بنيّة ومستديرة ومتقنة. ملأت طبق «چو» بعناية، وكان أمرًا مسليًا أن ترى وجهه، وقد علته الدهشة الشديدة.. وسألها فى صيحة استحسان: هل أعددت هذه؟

أدركت «مارلى» الآن لماذا كانت أمها تبدو مسرورة عندما يبدون إعجابهم بما تصنع. بعد أن صاح «چو» مستحسنًا، لم يقل كلمة واحدة حتى انتهى من أكل صف به تسع كعكات محلاة.

6 رحلة إلى ميدو بوتس

دأب «چو» أن يقول إنه سوف يصبح مستكشفًا، بينما كان يعرب أولاد آخرون عن رغبتهم فى أن يكونوا من رجال الشرطة أو محصّلين فى حافلة أو من رعاة البقر، ولكنه مازال يعلن أنه يريد أن يستكشف. لحظة وصوله إلى مكان جديد تظهر «نظرته الاستكشافية»، ولا طائل من سؤاله عن وجهته أو صحبته. كانت «مارلى» تعرف أنه لا يسمح لأحد بالذهاب إلا بعد أن يعرف كل شىء حوله، ثم يقول بعد ذلك: «أعرف مكانًا جيدًا للتنزه...» أو يقول: «يوجد مكان عميق يناسب السباحة...» أو قد يكتفى بقول: «مارلى»، أستطيع أن أتفوق عليك فى صعود هذا التل.

حتى فى المدينة كان «چو» يستكشف بمفرده، وسرعان ما بدأ يستعرض أماكن مثل الحديقة ومتحف التاريخ الطبيعى وحديقة الحيوان والجسور ومصانع الصلب كما لو كان هو الذى أقام كل واحدة منها.. إضافة إلى ذلك، يتصرف كما لو كان قد أقامها لك خصيصًا. بعد كل اكتشاف يكون «چو» فى حالة جيدة. كانت «مارلى» تنسى دائمًا أنه عندما يتصرف بذكاء عن معرفة أدق التفاصيل عن كل شىء فإنه سرعان ما سيصحبها. كانت تشعر بالغضب؛ لأن البنت لا تستطيع أن تستكشف بنفسها، لكن «الأب» و«الأم» لن يسمحا لها بذلك.

اعتقدت فى البداية أن البنت تستطيع، وحاولت مرة ومرتين، لكنها شعرت فى

«بيتسبرج» أنها صغيرة وقلقة للغاية، خاصة بعدما حدث أن ضلت طريقها ذات يوم عندما نزلت من الحافلة فى المكان الخطأ. كان الشرطى الذى سألته لطيفًا. لكن «الأم» كانت قلقة. لم يحدث أن نزل «چو» فى المكان الخطأ، وحتى لو حدث ذلك فلن يخبر أحدًا. تخيلت «مارلى» أنه إذا نزل «چو» فى المكان الخطأ، فسوف يشرع فى الاستكشاف.. أينما كان، سيدعى أنه كان يقصد النزول فى هذا المكان.

لم تكن «مارلى» تستطيع أن تتظاهر مثل «چو»؛ لأنها تفزع دائمًا. تستطيع بالكاد أن تسأل شرطيًّا دون أن تشعر بغصَّة فى حلْقِها. وبالطبع لم يكن هناك رجال شرطة فوق تل «مابل» لتسألهم.

طلبت «مارلى» من «چو» مرة أو مرتين أن تذهب معه، لكنها لم تكن تتوقع استعداده لأن يصطحبها. فقط عندما يصل إلى نهاية كل طريق صغيرة أو إلى قمة كل تل، يكون مستعدًّا لاصطحابها؛ ليريها القليل من الأشياء خلال الطريق، وكانت تعطله؛ لأنها كانت تريد أن تقف وتنظر إلى كل شىء.

توقعت «مارلى» أن يذهب السيد «كريس» إلى أماكن أكثر مما فعل، لكنه كان مشغولاً للغاية خلال الربيع، ثم لم يكن مفترضًا به أن يمشى كثيرًا، بل يقود سيارة إلى مكان أراد أن تراه ثم يمشى ببطء وينظر إلى كل شىء هناك. كان يصفّر للطيور وترد الطيور عليه وتأتى متنقلة بين الشجيرات على الطريق. وكان هناك طائر «الكردينال»(*) يأتى كل مرة، وقال السيد «كريس»: يظل هذا الطائر وأليفته هنا طوال الشتاء.

كان يعرف أسماء معظم الأزهار والأشجار، قال: لكنها ليست دائمًا نفس الأسماء التى يستخرجها «چو» من كتبه، إننى أعرف فقط الأسماء العادية الشائعة التى يطلقها الناس على الأشياء حولنا هنا.

وقبل عيد الفصح بأسبوعين، حضر السيد «كريس» مبكرًا فى الصباح، بينما

(*) الكردينال: طائر أمريكى مغرد.

كانت «مارلى» تتناول إفطارها، وقال: أسرعى.. هناك حدث مهم يجرى فى الغابة.

«حدث مهم؟ بدا كما لو كان سيركًا أو احتفالاً بالطريقة التى قالها».

سألت: ما هو؟ هل تستطيع أن تخبرنى بأى شىء عنه؟

ضحك وقال: حسنًا.. إنه نوع من مسابقات الجمال. أترين؟ فى كل ربيع تتسابق الزهور لتكون الأجمل. أحاول أن أجعل النحل يقرر، لكنه لا يفعل. يبدو أنه يريد أن يفوز الجميع.

إذن، فالأمر يتعلق بالزهور، وبدأت تتكهن طوال الطريق المزيد من مظاهر الجمال فى الربيع؟ لا. ربما «حشيشة الكبد»، فهناك ألوان أخرى لابد أنها موجودة غير الأبيض والقرنفلى والأزرق والأرجوانى. لا أظن. ربما نوع آخر من الزهرة الثلاثية.

لكن، ماذا كانت بالفعل، اتضح أنه كان لدى السيد «كريس» اسم خاص به، لقد أطلق على هذه الزهور: «شموع عيد الفصح».

قال: إن معظم الناس ـ وحتى فى كُتب «چو» ـ يعرفونها باسم جذورها بدلاً من أزهارها؛ لأن معظم الناس لم يشاهدوها أبدًا مثلما سأريها لك الآن.. إنها تزهر بسرعة شديدة، ولفترة قصيرة، ومن السهل أن تفوتكِ إن لم تكونى دقيقة جدًّا وتعرفى متى تتوقعينها.

وعند قمة التل، جعلها تغطى عينيها.. ولفترة قادها من يدها بطول طريق ممتلئة بخشب الأشجار، قال إنه يريدها أن تكون فى وسطها تمامًا عندما يقع نظرها عليها للمرة الأولى.

يا للسماء! يا له من منظر! عندما قال: حسنًا، يمكن أن تفتحى عينيك الآن. فعلت ذلك بسرعة.. كان أكثر جمالاً مما يمكن أن يعتقده أى شخص لم يره بنفسه؛ كانت الأرض حولها مغطاة بأوراق خضراء كبيرة، فى جنب كل منها شق، ومن

كل شق خرجت ساق رفيعة، وفى أعلى كل ساق برعم مدبب مثل لهب الشمعة تمامًا. بعضها كان يتفتح، واخترقت الشمس طريقها خلال الأوراق الجديدة الخضراء الصغيرة.. وعندما تحركت على الأرض وانتشر ضوؤها، كانت البراعم المدببة تتفتح أكثر وأكثر.. كانت البتلات ناصعة البياض مثل الجزء الداخلى من الصَدَفة، كان هناك مئات ومئات ومئات منها اتجهت ناحية الشمس.

قال السيد «كريس» فى صوت هادئ: ستختفى غدًا. نادرًا ما يراها أحد وهى تتفتح هكذا. أخبرنى بشأنها شخص يدعى «هنرى» - يعيش على الجانب الآخر من التل - لأول مرة بعد أن عشت هنا حوالى عشرين عامًا، يطلقون عليها الجذور الدموية(*).. انحنى وقطع واحدة من الأرض بمطواة، كان الجذر قرمزى اللون صافيًا كالدم، ومن هنا اكتسب هذا الاسم.. تستمد بعض النباتات أسماءها من الأوراق، والبعض من الأزهار، والبعض من البذور، والبعض من الجذور، وأغرب الأشياء أن زهورًا مثل البنفسج والورد استمدت أسماءها من ألوانها.

قال السيد «كريس»: سادت خرافة أن الساحرات قتلن الناس بدمٍ من هذا الجذر، لكن بالطبع كانت مجرد حكاية عن الساحرات على أية حال، لكن الحقيقة المؤكدة أن من يأكلها يتوقف قلبه خلال يوم.

حملقت «مارلى» فيها وهى فى يده، تفكر فيما قاله السيد «كريس» عنه وعن قلبه، قالت: سيد «كريس»، ربما كان من الأفضل لك ألاّ تمسكها بيدك.

ضحك، ليست بهذه الدرجة من الخطورة يا «مارلى»، هذه الزهرة تعيش طويلاً إذا وضعت فى الماء، خذيها، استمتعى بها واعرضيها للناس؛ فلا فائدة من قطف زهور الدموية ما لم تأخذى النبات كله: الجذور وكل شىء.. فهى مثل الأشياء الجميلة فى الربيع، تذبل فى يدكِ.

إذا كانت هناك مئات من زهور الدموية، فلابد أن هناك آلافًا من حشيشة

(*) الدموية: نبات أمريكى من الفصيلة الخشخاشية.

الكبد؛ فهي تنمو فى كتل هائلة ذات لون قرنفلى وأبيض، وكل درجة من درجات اللون الأزرق مختلطة تمامًا باتجاه أسفل التل.. قال السيد «كريس»: إن الناس تعتقد أن أوراق «الهيباتيكا» مفيدة كدواء للكبد حيث إن أوراقها لها شكل الكبد، وقال: لذلك يطلق عليها أحيانًا: «حشيشة الكبد». ياللزهرة الجميلة! لقد أطلق عليها أسماء يصعب إحصاؤها، ويعتبرها البعض «عشب الثالوث المقدس» بسبب الأوراق الثلاث، والبعض يطلقون عليها «كأس السنجاب» بينما يسميها البعض الآخر «أذن الفأر».. اختارى ما شئت.

كانت أول زهرة ثلاثية تتفتح ذات لون أحمر داكن، وربما كان هذا سبب تسمية عامّة الناس لها بـ«اللوف الأبقع»، ثم ظهرت الزهور البيضاء فى كل مكان وغطت أرض الغابات بطبقة أكثر سُمكًا من «أزهار الدموية».. كان بعضها ضخمًا، عرضها على الأقل ست بوصات، كان السيد «كريس» يعرف أين تنمو الأحجام الكبيرة، وكان يعرف أين يذهب ليجد الزهور الصغيرة جدًّا التى لا تزيد على حجم زهرة التفاح الملونة باللون الأحمر الوردى فى منتصفها.

ابتسمت «الأم» عندما أبدت «مارلى» دهشتها لكثرة الأشياء التى يعرفها السيد «كريس» ثم قالت: هكذا كانت الجدة.. كانت تُدوّن فى يومياتها، ما ظهر فى حديقتها وما تفتح فى الغابات والحقول، وهكذا أصبح بوسعها أن ترجع إلى دفترها لتقرر متى تفتحت أية زهرة وفى أية سنة، ثم تراقب كلاًّ منها حتى تظهر ثانية.

قالت «مارلى»: ولكن السيد «كريس» يقول إنه يجب القيام بمراقبة فعلية، فقد تظهر مبكرة قبل موعدها فى بعض السنوات وأحيانًا أخرى تتأخر.

هذا حقيقى بالطبع، إننى أتذكر الجدة وهى تقول إنك لن تستطيعى أن تقتلعى شيئًا من الأرض حتى تكون جاهزة.

قالت «مارلى» بجدية: بالطبع بوسعك المساعدة.. لقد تحولت اليوم لأساعد الزهرة الثلاثية.

كانت هذه حقيقة، وكان عليها أن تفسرها.. كانت الأزهار تدفع سيقانها إلى أعلى خلال طبقات وطبقات من الأوراق البنيّة القديمة، وأحيانًا تكون إحدى الأوراق جافة للغاية ولا تتحرك ولذا تلتصق الزهور المسكينة ولا تتفتح.. وهكذا، فبمجرد أن فتتت «مارلى» الأوراق، تفتحت الأزهار. كان شيئًا جميلاً أن أقوم بذلك، رغم أن هذه الأوراق تبدو مجعدة وضعيفة إلى حد ما لمدة يوم أو نحو ذلك، وتعانى السيقان الأرسمية(*) نفس المتاعب.. إن عملية إنقاذ هذه السيقان الصغيرة العجيبة، الصلبة والطويلة تحت مظلات مخططة خضراء أو قرمزية، كانت أكثر مرحًا من نزهة، رغم أن «چو» قال: إنه لم يسمع فى حياته عن شىء فى سخافة ما نفعل.

قامت بذلك؛ لأن السيد «كريس» جعلها تشعر كما لو كانت كل زهرة صديقًا قديمًا.. كان رائعًا أن ترى وجهه عندما يلحظ شيئًا للمرة الأولى تلك السنة. يمكن أن يقول أشياء تبدو متشابهة تمامًا بالنسبة لـ «مارلى» ــ لفترة قصيرة على الأقل ــ مثل سروال الهولندى(**)، المهمازية(***)، خاتم سليمان، والسيقان المجدولة بكئوسها الصغيرة، وزهور البنفسج! يا إلهى، فجأة ملأت زهور البنفسج المكان بوفرة لدرجة أنك لا تستطيع السير دون أن تدوس عليها، كانت بيضاء وصفراء وزرقاء وقرمزية اللون منقطة ومخططة، بعضها صغير جدًّا والبعض ضخم، وهناك زهرة صفراء طويلة كان اسمها «البنفسج النابى» لكنها كانت مختلفة وكانت بالفعل واحدة من نبات «لسان الحيّة»(****).

كانت «مارلى» تحضر للأم باقة من الزهور كل يوم أثناء وجودهم فى تل «مابل». وأحيانًا، عندما كانت تسير بالقرب من البيت على المنحدر الأول الصغير، كان ينتابها شعور غريب تجاه العالم.

(*) الأرسمية: عشب أمريكى.

(**) سروال الهولندى: نبات له زهور أشبه بالسروال.

(***) المهمازية: عشب ينبت فى أمريكا الشمالية.

(****) لسان الحية: نوع من السراخس، ورقه مثل: لسان الحية.

كان هناك الكثير من الطرق الضيقة التى تنعطف بين الأشجار والعُلّيق والأزهار. كانت تسمى طرق الخشب؛ لأن الشاحنات والحافلات عَبدتها قبل سنوات عندما كانت الأرض ممتلئة بالأشجار.. والآن، بدأت الأشجار تنمو ثانية، لكن كانت توجد أكوام من الأغصان الكبيرة المتشابكة وأصول أشجار باقية بعد قطعها مكسوة بالأُشنة والطحلب وأوراق صغيرة خضراء والسرخس، وإذا ما توقّفت وسط آلاف الأشياء النامية فى كل اتجاه ينتابها ما تُطلق عليه الدفقة الشعورية. كان كل شىء يندفع لأعلى باتجاه الشمس، محاولاً أن ينمو أعلى وأكبر، لم تفكر فى ذلك من قبل طوال حياتها، لكن كل هذه المعجزات التى تحدث أسبوعيًّا جعلتها تفكر، فى البداية، كانت الأوراق البنية الرطبة تغطى كل شىء فى كل مكان، ثم فجأة بدأت تظهر ثقوب تخرج منها الأوراق والسيقان.

وعندما أخبرت السيد «كريس» عن الدفقة الشعورية أبدى اهتمامًا بالغًا بها.

قال : أظن أن لكل شىء نسغه الخاص، ويجب أن يصعد، هذا كل ما فى الأمر، لا أحد يعرف السبب.. إنه مثل الشمس فى الصباح.

حدثت مغامرة مخيفة لـ «مارلى» أثناء عطلة عيد الفصح.. كانت تمر ذات يوم عبر طريق الأخشاب بعد أن خرجت من البيت، عندما رأت شيئًا جديدًا لم يذكره السيد «كريس»، لونه أصفر زاهٍ؛ زهرة مختلفة كانت وراء المرعى القديم، بالقرب من الغابة؛ مما جعلها تضحك، فربما تكون قد وجدت زهرة لم يقابلها السيد «كريس». مشت نحوها بجوار السور الحديدى الذى يَحُدُّ أرض الجدة. قال السيد «كريس»: الأسوار ذات القضبان مفيدة؛ لأن الشجيرات والأشجار الصغيرة وأشياءَ أخرى كانت تنمو فى جميع الأركان، على كلا الجانبين، مُشكّلة أماكن آمنة لبناء الأعشاش ــ فى مثل أمان الشجيرات الشائكة. تستطيع السناجب أن تجرى بطول الأسوار أيضا؛ رأتها «مارلى» تجرى أعلى الأسوار كما لو كانت تعتقد أن هذه الأسوار طرقها السريعة، الخاصة، الصغيرة، ورأت أسفل

التل الزهور الصفراء فوق السور، كانت مثل برك من الذهب بين أوراق نبات ذيل القط، تسلقت السور وحاولت أن تتجه مباشرة صوب باقة من الزهور. لكن الأرض كانت موحلة تحت قدميها، وشعرت بوجود مكان به حشائش تحت أقدامها ومكان آخر، وآخر.. وأخيرًا، تمكنت من الوصول إلى الزهور بعد أن بذلت جهدًا وبدأت فى جمع بعضها. كانت تشبه الحوذان(*) عندما اقتربت منها، كانت فقط أكبر منها، بنفس اللون الناصع على بتلاتها.. وفجأة، سمعت شيئًا ورفعت بصرها إلى أعلى، بدا الصوت وكأن مجموعة من الجاموس تجرى فى قطيع، كما فى الأفلام السينمائية، تضرب الأرض معًا... لكن هنا، بحق السماء، لم يكن هناك أى جاموس.

ثم رأتها قادمة. لم تكن جاموسًا، بل مجرد بقر صغير أبيض الوجه وبأعداد كبيرة، وكانت قادمة نحوها مباشرة!

ألقت الزهور وبدأت تتجه نحو السور، لكنّ قدميها انغرستا فى الوحل، ولم يكن أمامها وقت للبحث عن أماكن بها أعشاب غير مبتلة الآن. تناثر الوحل على ملابسها، وغاصت أقدامها فى الوحل مع كل خطوة. فوجدت نفسها تصرخ وكانت تسمع أنفاسها، شعرت بالحذاء الذى ترتديه فى إحدى قدميها وقد سقط منها فى أعماق الوحل، ثم وقفت على جزيرة صغيرة من العشب، كانت مرعوبة وعاجزة عن أن تخطو خطوة واحدة.

أقبلت الأبقار تعدو إلى حافة المستنقع الصغير، وهناك توقفت جميعها فجأة، واندفعت الأبقار فى الصفوف الخلفية إلى الصفوف الأمامية؛ لتحملق فيها.. وقفت تتطلع إليها وتتطلع؛ المجموعة الكبيرة بكاملها بعيونها المستديرة الواسعة.

حدّقت فى البقر بدورها ولكن الأبقار لم تتحرك، باستثناء أنها كانت تهز رأسها

(*) الحوذان: عشب ذو زهر أصفر.



أحيانًا كما لو كانت غاضبة منها؛ لوجودها فى مكان لا يخصها، وتساءلت: هل الأبقار تعترض على الناس الذين يقطفون زهورها؟ وعندما بدأت تفكر فى ذلك، تذكرت أنها سمعت عن زهور صفراء تسمى زهر الربيع العطرى، ربما كانت هذه هى زهورها الخاصة.

صاحت ولوحت بذراعيها ناحيتها قائلة: ابتعدى.

تبادلت الأبقار النظرات فى دهشة، ثم نظرت إليها، لكنها لم تتحرك بعيدًا، اقتربت منها فقط.

صرخت: ابتعدى - كما كانت تفعل مع الكلاب التى كانت تتعقبها وهى

راكبة دراجتها. خطت خطوة واحدة بحرص نحو السور، وبدأ طابور الأبقار الطويل يتحرك ثانيةً. كيف وبأية طريقة يمكنها أن تتسلق هذا السور ثانية؟ يبدو كما لو كان على مسافة ميل، وكأن هذه الأبقار لا تريدها أن تصل إلى هناك. تحركت نهايات الصفوف قليلاً، وهكذا وقفت فى وسط نصف الدائرة الواسع الذى كونته الأبقار. كانت عيونها مثل أضواء مقدمة خشبة المسرح وهى وسطها تمامًا.

وبحرص، خطت خطوة أخرى نحو السور، وتحركت الأبقار ثانية. تحدثت إحداها إليها بصوت خوار خفيض: «موووووووووووو!».

بدأت تحدث نفسها قائلة: إنها ليست مجرد أبقار صغيرة عادية، إنها فضولية.

لكن السبب الذى ذكرته كان؛ لأنها لم تكن متأكدة. يمكن أن تقترب منها الأبقار، إن أرادت، وتدوسها تحت أرجلها. ولن يعلم أحد أين اختفت.. عظيم، أصابتها رعشة امتدت من رأسها إلى أخمص قدمها. آه، «چو»، فكرت فيه. لو كان هنا الآن! كان «چو» معها ذات مرة عندما شاهدا بقرة تجرى فى حقل، صمد لها وواجهها بما أوتى من شجاعة، وتوقفت البقرة عنده وأصدرت خوارًا، وقال: سوف أظل أثير انتباهها إلى أن تبتعدى يا «مارلى» وقد فعل.. وعندما كانت فوق السور، تلفتت حولها لترى ماذا سيفعل للهرب بنفسه، ومشى مباشرة ودنّا من البقرة وأخذ يحك أنفها الطويل.

كانت كمن لمس أسدًا.

لكن هذه الأبقار كانت أصغر كثيرًا من تلك البقرة.. وأدركت أنها لم تكن أكثر من عجول صغيرة، كانت هذه الأبقار كثيرة العدد، وإذا ما فعلت إحداها شيئًا تهرع الأخريات لفعله أيضًا. هزت إحداها رأسها وكذلك فعلت الباقيات، وإذا خطت إحداها خطوة، خطت كل واحدة منها خطوة.

جربت نتوءًا آخر، وكان ثابتًا تحت قدميها، لكن كل الأبقار تحركت عندما خطت هذه الخطوة الواحدة وشعرت «مارلى» بهن يتنفسن فعلاً، كم كانت أعينهن كبيرة وثابتة ولا تطرف أبدًا.

قالت لنفسها: مرة أخرى لن أذهب إلى أى مكان بدون «چو» أو أمى أو أبى أو السيد «كريس»، ثم خطر لها خاطر مخيف بأنها لن تذهب إلى أى مكان مرة أخرى، بمفردها أو بصحبة أحد، بل ستظل ما بقى من وقت عالقة فى هذا المستنقع.

صاحت ثانية: ابتعدى، وهزت ذراعيها نحوها.

خارت واحدة: «موووو» ورفعت أنفها وهى تخور كما لو كانت تصدر إشارة لشخص بعيد ثم خفضت رأسها.. خفضت كل بقرة فى الدائرة رأسها ثم خارت: «مووو»، كان أمرًا مخيفًا.

أخذت «مارلى» تتمتم فى سرها كما لو كانت تصلى: من فضلك دعينى أصل إلى السور.. دعينى أصل إلى السور.. ثم نظرت بعناية إلى كل بقعة خضراء بينها وبين السور الجميل، حيث كانت السناجب تجرى، تتوقف دقيقة لتراقبها ثم تجرى مسرعة مرة ثانية. لو أنها قفزت بسرعة فوق هذه البقعة وتلك، وإذا لم تنزلق وتقع، ستصل إلى السور.

كان عليها أن تجرّب. ليس هناك شىء آخر تستطيع القيام به.

أخذت نفسًا عميقًا ونظرت إلى الأبقار مباشرة وتكلمت بصوت منخفض بطريقة توحى بالمودة، قالت: اسمى «مارلين» لكن الجميع ينادوننى «مارلى». هل أنتِ ملك للسيد «كريس»؟ أراهن أنكِ أبقار السيد «كريس»، ألستِ كذلك؟ لقد سمعته يحدث أمى بأنه يمتلك عجولاً جميلة كثيرة. ظهر على الأبقار الاهتمام، نظر.. لبعضها البعض، وبالفعل أومأت إحداها. ثم أومأت جميعها؛ الصف بأكمله، وعندئذ خطت خطوة.

مرة أخرى ، تحرك صف الأبقار بأكمله.

علىّ أن... علىّ أن...، ساعدينى فى الوصول إلى هذا السور، التفتت ووثبت وثبة كبيرة، ووثبة أخرى وطرطشت، وغرست وجرت فى الماء وبين نبات عشبة البرك(*)، وتشبثت بالسور، ثم تسلقته وأصبحت على الجانب الآخر.

وفى الحال، كان صف الأبقار بأكمله بجانب السور مباشرة ينظر إليها، لكنها كانت فى أمان.

جلست على الأرض ترتعد رعبًا. بدا صف الأبقار مسرورًا للغاية وقانعًا؛ متطلعًا لرؤية ماذا ستفعل بعد ذلك.. والآن، رأت كيف أن منظرها غريب، أنها صغيرة، وذات عيون واسعة، كانت تمامًا مثل صف من الأطفال ينظر من فوق أسوار حديقة الحيوان. ابتسمت لها، مدركة أنها لن تستطيع أن تتخطى السور. دهشت إلى حد

(*) عشبة البرك، التيفا، نبات مائى.

ما عندما وجدت أنها لم تبادلها الابتسام. ظلت الأبقار تراقبها طوال فترة عبورها الحقل. تستطيع أن تخمن كم اعتقدت ـ الأبقار ـ أنها رائعة ومثيرة للاهتمام، وهى حافية القدمين يغطيها الوحل. أدركت أن الأبقار لم تشأ إزعاجها. كانت مندفعة، وربما تكون قد شعرت بالأسف؛ لأنها دفعتها إلى المستنقع وجعلتها تضل طريقها فى الوحل.

استطاعت الآن أن تتبين ما حدث. لقد سمعت صوت طرطشة غريبة حولها فى المكان الذى تشرب منه، وكان عليها أن تكتشف من يكون.

بإمكانها الآن أن تضحك.

وعندما أخبرت العائلة عند العشاء، ضحك الجميع، لكن «الأم» قالت: من العار أن تفقد حذاءها، حتى لو كان الحذاء القديم.. وعندما أخبرت السيد «كريس» فى اليوم التالى، قال إنه سوف يصحبها معه ويقدمها إلى هذه الأبقار بطريقة سليمة، وقد فعل. لم تأبه وهى معه من مواجهة دائرة الأبقار كلها، رغم أنها لم تتعلق بيد السيد «كريس» الكبيرة.

أما الشىء الغريب فهو أن السيد «كريس» قال إن مغامرتها ربما أنقذت حياة كل عجل منها، أضاف: كان علىَّ أن أسور هذا المستنقع قبل ذلك بسلك كهربى. وذات مرة، خرج قطيع وأكل تلك الزهور التى كانت تبحث عنها، وكانت تسمى أحيانًا زهر الربيع العطرى، وأحيانًا أخرى قطيفة المستنقع. إذا أكلت الأبقار كثيرًا منها؛ تتورم أمعاؤها وأحيانًا تموت قبل أن يأتى الطبيب للمساعدة.

يا لها من أسماء عجيبة، تلك التى يعرفها عن تلك الزهرة! البعض يسمونها «الكبَّر» وآخرون يسمونها «ميدو بوتس» وعندما كان صبيًّا كانت أمه تطلق عليها «الرهان المجنون».

قالت «مارلى»: سوف أسميها «ميدو بوتس»، هذا ما تحتاج إليه حيث تنمو.

وبعد الانتهاء من السور، عادت مع الأم من أجل باقة ورد جميلة وبعض

الخضراوات لطعام العشاء.. قال السيد «كريس»: من الأوراق كانت تصنع خضراوات رائعة، قبل معرفة السبانخ، جاءت الأبقار مندفعة كالرعد نحو «مارلى» و«الأم» بنفس الطريقة السابقة، لكنها توقفت بعيدًا فجأة بطريقة سحرية، ولم تستغرق وقتًا طويلاً لمعرفة مكان تثبيت السور المكهرب. ظهر عليها الحزن واعتقدت «مارلى» أن ذلك ربما لعدم مقدرتها على الاقتراب لرؤية ما كانت تقوم به.

7 ثعالـــب

كان آخر يوم جمعة فى آخر أسبوع من الدراسة، وأثناء قيادة «الأم» لأعلى التل، أطلقت تعليقها المعتاد «الهروب الكبير» إشارة للمرة الأولى التى علقوا خلالها هنا.. وفجأة، قال «چو» شيئًا عجيبًا لـ «مارلى»: أتعرفين أن أغرب مكان يوجد أعلى هذا الجانب من الأجمة السكّرية؟ إن نبات الأشنة(*) يُغطى المكان كله بكميات كبيرة، سوف أصطحبك لرؤيته غدًا إن شئتِ.

حبست أنفاسها ثم قالت: هل انتهى من الاستكشاف، وأصبح يريد شخصًا ما ليعرضه عليه؟

قالت «الأم»: إننا نسمى هذه الأشياء رابية.

قال «چو»: بعضها مستعمرات نمل، وقال: الكائنات صغيرة، ثم ابتسم وقال: سأريك إياها غدًا.

كادت «مارلى» تجزم بأن هناك شيئًا يدور برأسه، ثم سألت نفسها: هل أعد طعام الغداء؟

كان يجب أن تُعد الغداء لو لم يكن سيؤخرهم كثيرًا عن بدء الرحلة، وأضافت: أستطيع أن أستيقظ مبكرًا وأعده.

قال: سيكون ذلك رائعًا.

وخمنت أنه أخيرًا قد حان الوقت. الآن تستطيع أن تذهب إلى أى مكان وتكون فى أمان لحد ما. حتى إن وجدت أبقارًا، فلن تكون بحاجة للخوف ولو قليلاً. كانت قد استيقظت مبكرًا صباح اليوم التالى، حتى قبل الطيور، وظلت تهمهم مثل القطة وهى تُسْرِع فى تجهيز الشطائر والكعك والفاكهة.

(*) الأشنة أو شيبة العجوز: نبات لا زهرى يتألف من كائنين نباتيين، أحدهما طحلب والآخر فطر.

كم كان «چو» مندهشًا ومبتهجًا عندما نزل إلى الدور السفلى وقد وجدها أعدت كل شىء.. كانت هناك، تنتظره على السلم الخلفى وبجانبها كيسان نظيفان، أحدهما لها والآخر ضعف حجمه تمامًا لـ «چو».

أخذ «چو» يشرح بعض الأشياء وهما يصعدان الطريق. قال السيد «كريس»: إن جبل «مابل» جبل غريب؛ لأن به مستنقعات وأراضى سبخة فى أعلاه؛ وكانت المروج الوعرة ذات النتوءات جزءًا من غرابته أيضًا، وانتقل «چو» و«مارلى» من رابية إلى أخرى، وقاما بفتح بعضها لمراقبة النمل، ولينظرا إلى الطحالب الغريبة والنباتات الصغيرة التى تلمع مثل النجوم فى روابٍ أخرى.. كان مع «چو» منظاره المكبر، وحدقًا فى العوالم الغريبة حيث توجد بعض الحشرات الصغيرة الغريبة التى تتجول فى الأشنة مثل حيوانات فى دغل.

واصلا سيرهما حتى وصلا إلى وادٍ صغير، ثم تلاه جدول صغير، كون بدوره منحنيات حادة الواحد تلو الآخر، مضاعفًا نفسه مثل حبل ملفوف.

قال «چو»: ترجع هذه المنحنيات إلى وجود صخور فى مجرى الجدول، وهذه الصخور مليئة بالقواقع القديمة التى جُلِبَت إلى هذا المكان منذ زمن سحيق، عندما كان المحيط فى كل مكان. كذلك كانت توجد مواضع محفورة على الأحجار الكبيرة والأحجار المستديرة تمامًا، وقال «چو» عنها: إنها شُكِّلت بفعل كتل الجليد الضخمة التى انزلقت واستقرت فى ذلك المكان منذ نحو مليون سنة، أو ربما بليون. لم تستطع «مارلى» أن تدرك الفرق بين تلك الأرقام، سوى أن أحدهما أكبر من الآخر بكثير.

شعرت بالفخر بكل ما يعرفه «چو»، ربما يعرف السيد «كريس» عن الزهور والطيور والأشياء، لكن «چو» كان الشخص الذى يعرف عن الحشرات والنباتات الغريبة التى تنمو فوق ما تبقّى من الأشجار بعد قطعها وفوق الأشجار التى سقطت على الأرض. وكانت لها أسماء لطيفة أيضًا.. على سبيل المثال، كانت هناك أشياء غريبة مثل الأقماع المسدودة، بعضها رمادى ويسمى «كئوس الجنيات» والبعض

أحمر ناصع ويسمى «الجنود البريطانيين»، كما كانت هناك بعض الرفوف الغريبة تبدو كما لو كانت قد صنعت لتجلس عليها الجنيّات. قال «چو» إنها مجرد خشب فاسد، وكان على جذوع الأشجار العتيقة أشياء سوداء طويلة تسمى «أصابع الرجل الميت»، وأحد نباتات «الفارقون» السام وكان لونه أصفر ناصعًا ويطلق عليه «الوهج المستنقعى»، الذى قال «چو» عنه إنه يصدر ضوءًا بالليل.

قالت «مارلى»: «چو»، إنك تعرف أشياءَ أكثر من السيد «كريس».

ومما أثار دهشتها أنه قال: آه، لا، لا أعرف! لا أحد يعرف أكثر من «كريس». أتدرين من أخبرنى بكل هذه الأشياء؟ لقد جئنا إلى هنا الأسبوع الماضى، وأرانى «كريس» بعض الأشياء التى أردت أن أريكِ إياها.. خلال فصل الخريف، يكثر فطر عيش الغراب فى كل مكان، وكان أحد الأُجراء عند السيد «كريس» قبل «فريتز» قد اعتاد كل خريف أن يجمع الكثير منه ثم يبيعه لرجل إيطالى فى المدينة ويحصل على مبلغ من المال.

بالكاد سمعت آخر ما قاله، ثم قالت: «چو»، لم يصعد السيد «كريس» هذا التل، أليس كذلك؟ صرخت فى دهشة قائلة: إذا سمعت «كريسى» بذلك.

احْمَرّ وجه «چو» وتظاهر بأنه لم يسمع ما كانت تقوله، لكنه انحنى ثم ركع على الأرض مباشرة وقال: انظرى هناك، إلى تلك الخنفسة المخططة، إنها حشرة «الذرّاح»! وقد وجدتها عندما وصلنا إلى إحدى البرك، سوف أريك بعض الخنافس الغواصة أيضًا.. هل رأيت الخنفسة «المدوّمة»؟

سألت: «چو» ـ هل رآها؟ لأنه لم يجب عليه ذلك. فقد طلبت منى «كريسى» أن أبحث عنه وألاّ أدعه يصعد أىَّ تلٍّ حتى ولو كان صغيرًا، وهذا التل... ثم نظرت خلفهما إلى الطريق المنحدرة.

قال «چو»: أتعرفين، إننى فى اليوم التالى رأيت ذكر نحل طنانًا كبيرًا جدًّا وقد وقع فى شَرَكِ نبات خُف السيدة، ولم أتحرك لإنقاذه؟ سمعته يطنُّ على بُعد بناية.

قاطعته «مارلى»، ليس لأنها لم تكن مهتمة بذكر النحل الطنّان هذا، بل لأنه

كان على «چو» أن يعرف أهمية رعاية السيد «كريس»، إن لم يكن قد عرف بعد، ثم قالت: «چو»، كان من المفترض أن تذهب أنت و«كريس» إلى المدينة ذلك اليوم بالسيارة.

وقف فجأة والتفت إليها: أحسب أنك ستذهبين وتخبرينها مثل أى بنت لا تستطيع أن تحتفظ بسر لنفسها! بالتأكيد ذهبنا إلى المدينة، وتحدثنا إلى ذلك الرجل فى المطعم، وفهمت أنه يشترى كل الشراب من السيد «كريس»، ويقول إنه أحسن شراب فى العالم، ويشترى من السيد «كريس» عصير التفاح أيضًا، وقال إنه اعتاد أن يشترى الكستناء ــ لكن ذلك كان منذ سنوات وسنوات. وبعد أن عدنا أنا والسيد «كريس» إلى هنا، اصطحبنى لرؤية ما تبقى من أشجار الكستناء ــ هل ترين هناك؟

كانت هناك أشجار كثيرة يمكن الحصول منها على نصف «بوشل»(*) من الكستناء فى ساعة واحدة.

سألت «مارلى»: «چو»، لم يمش السيد «كريس» حتى هنا بالتأكيد، أليس كذلك؟ كان يجب عليك ألاّ تدعه يفعل، هكذا قالت «كريسى». لقد أخبرتنى أننا يجب أن نساعده؛ لأنه عندما كان يهم باصطحاب الناس لمشاهدة الأشياء، فإنه ينسى نفسه.

«حسنًا، حسنًا. لقد مشينا ببطء شديد، وأخبرنى كيف كان شكل هذا البلد فى الماضى. كانت هناك غابات أكثر من الآن. كانت هناك الأمراض مثل ذلك المرض الذى قضى على كل أشجار الكستناء، ثم قام السكان بقطع أشجارهم وهكذا اختفت معظم الغابة البكر».

وقفت «مارلى» ساكنة؛ كما لو كان ما قاله قد أطلق صوتًا، بدأت فجأة تسمع صوت منشار. هل عند السيد «كريس»؟ «چو»، إن السيد «كريس» لا يقطع الأشجار، هل يفعل؟ ألأجل المال فقط؟ لقد أخبرنى بأنه ما كان ليفعل ذلك.

(*) البوشل: مكيال للحبوب= 8 جالونات أو حوالى 32.5 لتر.

بالطبع لا يفعل، بدا مُستاءً لمجرد أن تسأل، وقال: لكننى أريد أن أشاهدهم وهم يقطعون تلك الشجرة.. إنها شجرة قيقب عجوز.

وبينما كانا سائرين صار صوت المنشار يعلو حتى أنه بدا كما لو كان يحدث دوائر هائلة من الصوت فى أرجاء الغابة، وعلا الصوت حتى وصل إلى الأجمة السكّرية فى النهاية.

كان السيد «كريس» هناك وبصحبته «فريتز» ورجل غريب معه منشار كهربائى. كانت الشجرة التى يعمل بها المنشار شجرة ميتة فيما عدا فرع كبير أخضر بين أكوام الفروع الذابلة، كان سُمكها أكثر من ياردة(*) وكان المنشار يجد صعوبة فى نشرها.

لوّح السيد «كريس» لـ «چو» و«مارلى» وهما آتيان، وعندما كان يتكلم كان يرفع صوته فوق صوت المنشار المرتفع، قائلاً: شجرة كبيرة عجوز، شجرة سكر جيدة لسنوات وسنوات، وقد استخرج منها النسغ فى المواسم السابقة حتى هذا الموسم الأخير، وذلك لمدة ثلاثين عامًا على الأقل، واعتدنا أن نغلى النسغ مباشرة هناك على فرن طويل وقدر كبيرة، ويمكن أن ترى الأحجار القديمة حيث كان الفرن قائمًا.

وقف «چو» و«مارلى» يشاهدان. ولم يحاولا الكلام، ولم يقل السيد «كريس» أكثر من ذلك لبرهة، وكان صوت المنشار يشبه الصرخة عندما اقترب من مركز الجذع.. مال السيد «كريس» بالقرب من أذن «مارلى» وقال: عندما تسقط، سوف نعد الحلقات ونعرف كم تبلغ من العمر.

بدأ سنجاب أحمر يصرخ من شجرة أخرى كما لو كان يتشاجر معهم.. رفع السيد «كريس» بصره، وهز قبضة يده ضاحكًا، وصاح: كل شىء على ما يرام يا رفيقى القديم. سنترك لك شجرة الجوز الأرمد(**)، لكننا سوف نأخذ شجرة القيقب العجوز هذه معنا إلى البيت لنتدفأ بها هذا الشتاء.

جلس السنجاب ينظر إليه وقد ثنى كفه أمامه كما لو كان يتلو صلواته، ثم

(*) الياردة= 91.44 سم.

(**) الجوز الأرمد: نوع أمريكى من الجوز.

بدأت شجرة القيقب الكبيرة تتصدع وتئن، واستدار السنجاب واختفى فى جُحر. صاح «فريتز»: احترس! إنها تسقط.

سقطت الشجرة الكبيرة كالعملاق، وقد ضربت أغصانها الضخمة الميتة الأرض أولاً ثم انكسرت، تحطمت وضعفت وأحدثت صوتًا عاليًا وكانت كأنها تتشاجر مع الهواء، ظلّت تهتز كلها فترة قصيرة ثم هدأت.

أرادت «مارلى» أن تصرخ، لكن «چو» ضحك وهتف: يا سلام! يا سلام! وقبل أن تستقر الشجرة على الأرض، كان قد اتجه نحو الأغصان وبدأ يعد الحلقات، ثم قال: لقد نمت هذه الشجرة طوال أكثر من مائة عام.

كان وقت الغسق، عندما شرعوا فى العودة إلى البيت، وبعد أن توقف صوت المنشار، كان الصمت طاغيًا رائعًا. استطاعوا أن يسمعوا حفيف الأشجار التى مازالت تقف شامخةً فى الهواء.

وفجأة وبمجرد أن وصلوا إلى موقع الأكام، تشبث «چو» بذراع «مارلى»، ودون سابق إنذار وضع يده على فمها هامسًا: ششششش!

من حسن الحظ أن رآه «چو» أولاً، أو ربما كانت ستصرخ مثلما فعلت عندما شاهدت الأيل. همس «چو»: انظرى!

وفوق إحدى هذه الأكام الوعرة، كان يقف ثعلب أحمر وذيله الكثيف الضخم متدليًا وراءه، وقف ينظر أسفل التل وقد رفع قدمًا مثل جرو يتابع بانتباه كل شىء حوله، ثم وثب فجأة إلى أكمة أخرى ووقف هناك ينظر، وكانت الشمس قد غابت. وغَمَرَ ضوء غريب كل شىء، فبدا الثعلب مُتألقًا بأكمله.

لم تتحرك «مارلى» و«چو»، وكذلك لم يتحرك الثعلب.. وفى النهاية، تسلل الثعلب من الأكمة دون صوت، كما لو كان ظلاً ملونًا، تسلل واختفى.. اختفى فى «الوهد»(*) بالقرب من الجدول.

(*) الوهد: وادٍ صغير، ضيق، شديد الانحدار.

قال «چو»: أراهن أن للثعالب جُحرًا فى المنطقة. كان صوته منخفضًا، وعندما مشى، مشى بهدوء فى طريق معينة يعرفها، مثلما كان يمشى الهنود ـ كما تعلم. لم تستطع «مارلى» أن تسمعه وهى على بُعد عشر ياردات، ثم أرادت أن تصيح: «چو»، لا تَغِب عن نظرى؛ لأن الظلام كان فى بدايته، وقد ظهر هذا الضوء الغريب، بل المخيف، الذى يظهر عندما يغمر الظلام تل «مابل» لكنها لم تَصِحْ؛ لم تصدر أى صوت.

وبعد لحظة، عرفت أنه من الأفضل ألا تصيح؛ لأن «چو» خرج متسللاً من بين الظلال، مشيرًا إلى شىء ما.

قال: ششششش! واحذرى أن تسقطى فوق شىء!

«ما الأمر، يا «چو»؟».





«صه».

انحدر التل فجأة إلى أسفل فى أحد الأماكن. أمسك «چو» بيدها بشدة، ثم أشار باليد الأخرى.

كانت هناك خمسة ثعالب صغيرة تلعب مع بعضها فى الظلام. كانت تلعب مثل الجِراء الصغيرة. كانت تجرى خلف بعضها، وتصدر زمجرة ضعيفة متظاهرة بأنها تتشاجر. كانت حمراء اللون ماعدا أنوفها السوداء المدببة وآذانها السوداء المنتصبة وطرفًا أبيضَ على ذيولها الحمراء الطويلة.

ظل «چو» و«مارلى» يرقبانها حتى لم يعد يظهر منها غير الأطراف البيضاء على ذيولها الطويلة، ثم اختفت هذه الأطراف أيضًا، فأمسك «چو» بيد «مارلى» وقادها فوق الآكام نحو البيت.

أبدًا، لم تحبه طوال حياتها بهذه الدرجة.. قالت: «چو»، لولاك ما كنت شاهدت أى شىء مثل هذا أبدًا.. أبدًا.

قال: ولمَ لا؟ إننى أرى أشياءَ طوال الوقت، لكنها خمنت أنه كان سعيدًا بما قالت.

عند عودتهما، كان آل «كريس» و«فريتز» بالبيت، وبمجرد أن دخلت «مارلى» من الباب ورأتهم حتى صرخت: خمّنوا ماذا رأينا ـ «چو» وأنا ـ فوق، بجانب المرعى.. بعض ثعالب... وفجأة صرخت: آه؛ لأن «چو» لكزها بقوة.

لم يلكزها فى الوقت المناسب؛ لأنها كانت قد تفوهت بالكلمة.

مال «فريتز» فى كرسيه إلى الأمام، التفت إلى السيد «كريس» قائلاً: «ثعالب»؟ رائع! إذًا، هو المكان الذى كانوا فيه! لقد أدركت أنهما كانا فى مكان قريب منا، أليس كذلك يا «كريس»؟ أستطيع أن أذهب فى الصباح وربما أستطيع الإمساك بالمجموعة كلها إذا ذهبت قبل بزوغ الضوء.

يمسكها؟! شعرت «مارلى» بعينيها تتسعان، وقالت: «فريتز»، إنك لا تعنى أنك تريد أن تصطاد هذه الثعالب الصغيرة، هل ستفعل؟ لماذا، فهذه الأنثى لها خمسة صغار جميلة.

رأت «چو» ينظر.. آه، إنها لا تعرف أبدًا متى تُبقى فمها مغلقًا! هذا ما كانت نظراته تقوله لها، لقد كانت واضحة مثل الشمس.

قال السيد «كريس»: خمسة صغار، هوه؟ لا عجب فقد كانت مشغولة. كم دجاجة تأخذها الثعلبة الأم كل يوم؟ كل يوم لمدة أسبوع متواصل تأتى هذه الثعلبة الشريرة إلى دجاجى. لقد وضعنا مجموعة الدجاج تحت الخن فى الليلة الماضية، ووصلت إليه من تحت الجدار، أو كان زوجها.. إن لم يكونوا أمهر الـ...

وقالت «كريسى»: وذلك الكلب، «تونى»، ألم يعد يلحظ ذلك؟ لقد قلت لـ «كريس» إنه صار عجوزًا على الحراسة الآن؛ لأنه ينام مثل الحجر.

شعرت «مارلى» بجفاف حلقها وسألت: ماذا ستفعلون؟ لم تجرؤ حتى على النظر إلى «چو».

ساد سكون قصير.. فجأة، تذكر الجميع «مارلى» وتلك الفئران.

سعل السيد «كريس» وقال: أصدقك القول يا «مارلى»، لقد اجتاحت الثعالب هذه البلدة منذ سنوات قلائل. التفت ثانية إلى «فريتز» و«الأب» كما لو كان من الأفضل ألاّ يتحدث إليهما بعد الآن.

قال: إن الثعالب توجد بوفرة الآن، وإذا استعددت للضربة فيمكن أن تحصل على عدد أكبر، ثم نظر إلى «چو» مباشرة وقال: اصحب «فريتز» إلى المكان فى الصباح يا «چو». ربما استطعت أن تصطاد واحدًا بنفسك.

هل كان ذلك السيد «كريس»؟ حدقت «مارلى» النظر إليه.

قال «فريتز»: أخبرك بشىء، سوف نقسم هذا العدد الوفير. لا يهم من يفوز بها. كانت «مارلى» تعرف أنه صياد ماهر، فقد سمعتهم يتحدثون عن عدد الأرانب وطائر التدرج(*) والسناجب التى يصطادها «فريتز» فى موسم الصيد.

قال «چو»: حسنًا.

التفتت «مارلى» إليه غير مصدقة، بعد رؤية هذه الثعالب الصغيرة تلعب عند غروب الشمس، وقالت: «چو»، إنك لن تفعل.

قال السيد «كريس» بسرعة: هذه الحيوانات تأكل الفئران أيضًا، إنها تأكل مئات ومئات الفئران، وذلك ينفعنى إن كانت عندى ماشية وحبوب أو حتى بساتين، أقول كلما زاد عدد الثعالب كان أفضل لكن الدجاج...

لم تَعِ «مارلى» كلمة أخرى أو تستعد لتسمع كلمة، كان الجميع موافقين، وأدركت أنه لا فائدة، ولا حتى من «چو» بعد ما رآه.

(*) طائر التدرّج: طائر طويل الذيل يشبه الحجل.

فجأة، استعادت الأغنية التى كان «الأب» يغنيها أحيانًا. ليست الأغنية عن الثعلب الذى كان يجىء من أجل البطة السوداء، بحق السماء لا. لكن الأغنية عن الصيادين قساة القلوب بمعاطفهم القرمزية، والولد اللطيف الذى شعر بالأسف لأجل الثعلب ورفض أن يدلهم على الطريق التى سلكها. هل نسى «چو»؟ وعندما ذهبت آل «كريس» و«فريتز»، نادى «فريتز» على «چو» ثانيةً وأخبره بأنه سوف يناديه فى الصباح الباكر، ربما حوالى الساعة الخامسة.

عندئذ، ذهب «چو» إلى فراشه مباشرة بدون كلمة، وشعرت «مارلى» ببرودة فى جسدها، فمدت يدها إلى ذراع والدها على السلم وقالت: أبى.. ماذا عن الثعالب؟

قالت أمها: أرجوكِ يا «مارلى». ليس هناك جدوى من القلق بشأن أشياء كهذه، يجب أن تتعلّمى.

قالت «مارلى»: فقط، كنت سأطلب من أبى أن يغنى لى الليلة، لقد جعلتنى هذه الثعالب أفكر فى أغانى الثعالب.

تبادل «الأب» و«الأم» النظرات..

قالت «مارلى» لتلفت انتباههما عما كانت تنوى عمله: أولاً الأغنية عن الثعلب الذى يسرق الإوزة، ثم فكرت إذا غنى أبوها الأغنية عن الصيادين والولد الرائع الرحيم الذى لم يخبرهم أين ذهب الثعلب، فإن «چو» سوف يدرك ما سوف تقوله عندما تصعد إلى الدور العلوى. إنه لن يستطيع المساعدة، لكنه سوف يفهم، بعد هذه الأغنية.

قال «الأب»: حسنًا، موافق. هاتان الأغنيتان فقط. تعرفين يا «لي» إننى أستطيع أن أغنى أغنية الصيد بطريقة جيدة مرة أخرى .

واستطاع فعلاً. كان الجزء الأول عن مجىء الصيادين بالمعاطف القرمزية مسرعين والأبواق تتعالى أصواتها، فتحت «مارلى» الباب المؤدى إلى السلّم؛ كى تتأكد أن «چو» يسمع.

صاح الصيادون : قل أيها الشاب إنها هناك.
قُل، هل رأيت الثعلب يمر بجانبك؟
يجرى مسرعًا، يجرى مسرعًا، يجرى مسرعًا، يجرى مسرعًا،
يجرى مسرعًا، يجرى مسرعًا فوق التل؟

والآن، فكّرت «مارلى»، وفتحت الباب أكثر قليلاً. فها هو المقطع الذى يجب أن يسمعه «چو»:

لكن، هل يجب أن أخبرهم؟ لا ، لست أنا!
إننى قد رأيت الثعلب يمر من جانبى متعبًا!
متعبًا لاهثًا مرهقًا ومنهك القوى
هل أخبرهم بالطريق التى سلكها
يجرى مسرعًا.. يجرى مسرعًا.. يجرى مسرعًا...

كان الأب رائعًا، حيث جعل الكلمات بطيئة ومرهقَة كما لو كان الثعلب المسكين على وشك السقوط، ثم فجأة صاح وهو يقول الكلمتين الأخيرتين: «**لا.. لست أنا**».

كلما سمعت «مارلى» هذه الأغنية اهتز شعرها فى كل مرة. كانت رائعة. لكن بصفة خاصة الليلة. قبّلت والدها قُبلة المساء بحرارة غير مسبوقة وصعدت السلم وأغلقت الباب خلفها، لكن باب «چو» كان مغلقًا وكان النور مطفأ، لم تكن تريد التحدث فى هذا الموضوع.

لكنها فعلت. فتحت باب غرفته مجرد فتحة ضيقة وهمست: «چو»...

لا صوت.

قالت: «چو».

فجأة، تكلم «چو»، لم يكن فى الفراش إطلاقًا، كان جالسًا فى الظلام بجوار النافذة.. وقال فى صوت خفيض: اسكتى لحظة فقط.. هل تستطيعين؟ إننى أفكر فيما يمكن أن نفعله. ماذا لو تسلقت وألقيت بعض الصخور، ثم تجولت فى المنطقة هناك بحثًا عن الوكر... تصورى، لو استطعت أن أرعبها لتفر قبل أن يصل «فريتز» إلى هناك...

قالت: أوه «چو»، بالطبع تستطيع، ثم قالت بحماس: الليلة؟ «چو»، اذهب إلى التل الليلة؟

بدت نبرة استياء فى صوته وقال: لا يمكننى الانتظار حتى الصباح هذه المرة، هل أستطيع؟ إذا حدث وسمع «فريتز» أننى أقوم بمثل هذا العمل، فسوف يعتقد أننى مجنون، لماذا؟ لأن هناك سبعة منها. أربعة دولارات مقابل الواحد منها. هذه كمية كبيرة من النقود! استشعرت نظرة عينيه فى الظلام. قال: آه لو تكفّين عن سرد كل ما تعرفين! أحيانًا أعتقد أنه من الأفضل ألا أخبرك بأى شىء.. أو أن أريك أى شىء.

إننى آسفة يا «چو».. بأمانة لن أُفشى أى شىء ثانية أبدًا.. أبدًا، قال: لماذا اعتقدت أن السيد «كريس» و«كريسى» و«فريتز» يحبون تلك الثعالب الصغيرة؟ نظرت خلف «چو» خارج النافذة، كان الظلام حالكًا ومخيفًا وانتابتها رعشة، وقالت: «چو»، سيكون الأمر مخيفًا أن تذهب بعيدًا إلى هناك.

قال بهمس وكأنه يفكر: لو حملت مشعلاً ووجهته إلى الأرض ناحية الجحر ـ أعتقد أنكِ تستطيعين أن تحملى المشعل ـ حينئذ سيكون بوسعك إخراجها من مكانها.

«چو»، هل تقصد أننى أستطيع الذهاب؟ شعرت بالسعادة تغمرها، وكأنها فجأة تجرى من البرد إلى بيت دافئ جميل.. فقد كانت السبب فى تعرض الثعالب للخطر، لكن ها هى ستخرج ليلاً وتساعدها على الحياة فى أمان.

المشكلة أنها ربما تهاجمنا. لا أعرف، لنر المكتوب فى (كتاب المزرعة). أغلق الباب، وأشعل مصباحه ليريها المكان، لابد أن أخبرك بأن الذكور تطعم الإناث والصغار، و تطرد الأعداء من جُحرها ولو كلفها ذلك حياتها.

ردت قائلة: لسنا أعداءها.. إنه «فريتز» الذى يجب إبعاده.

وأضافت موجهة سؤالها إلى «چو»: يا للحظ العاثر، الثعلب الأب لا يعلم ذلك.. أليس كذلك؟

إنك تقولين أسخف أشياء سمعتها فى حياتى، لكنها ليست مسألة إبعاد «فريتز»، إنه يعرف جحرهم الآن.

صرخت : لو أننى لم أذكر شيئًا!

لا تندمى على ما فات. فلم تكونى تعرفين. جلس يحملق فى الكتاب وكأنه يستلهم فكرة، قال لها: ربما لو أشعلنا نارًا صغيرة عند أحد الأبواب، لاضطرها الدخان إلى الخروج من الباب الآخر، مثل النحل ـ هناك دائمًا باب أمامى، وباب خلفى...

سحرتها الفكرة، فقالت: كم أنت بارع يا «چو»، باب أمامى وباب خلفى!

قال لها: تصرفى وكأنكِ تتأهبين للذهاب إلى الفراش، لكن ارتدى جوارب وملابس ثقيلة، سننطلق حالما يستغرق أبى وأمى فى النوم.

لكأنما مرت دهور قبل أن يصعد الأب والأم إلى الطابق العلوى وينتهيا من دخول الحمام ويصعدا إلى فراشهما، وقبل أن يعلو شخير الأب، سمعت «مارلى» باب غرفة «چو» يُفتح.. ومن شدة انفعالها كانت تتنفس بصعوبة ، وأحست بدوار بسيط غريب خلف رقبتها.. تحركت وهى تحرص على ألا يصدر عنها صوت. وتبعت ظل «چو» وهو ينزل السلالم، كان يخرج بطاريات الإضاءة من الدولاب، ثم ملأ جيوبه بأعواد الثقاب، وبقطعة قماش وعلبة كيروسين.

يا إلهى! كانت الطريق مظلمة.. قاد «چو» المسيرة، وهو يشعل ضوءًا كل فترة.. ثم تقاربت الفترات! مرًا ببيت «كريس» الذى لفه الظلام ثم عرجا على الحقل والمرعى. كان الليل طويلاً وممتدًا ولم تره «مارلى» بهذه الضخامة من قبل، وعندما شرعا فى صعود التل، نظرت لأعلى وانتابتها مشاعر لم تحسها من قبل طيلة حياتها. لو لم يكن «چو» يمشى قريبًا جدًّا منها وهو يتقدم الطريق؛ لكانت قد ماتت بسبب مخاوفها.

كانت الظلال تحلق فوق رأسيهما، وتتلوّى بين الأشجار والصخور. أشعل «چو» ضوءًا عند قمة المنحدر حيث يوجد جُحر الثعالب. ووقف ساكنًا منتظرًا لفترة

طويلة... هل كان خائفًا؟ أزعج «مارلى» أن «چو» قد يكون خائفًا؛ لأنه لو كان «چو» نفسه خائفًا، فهذا يعنى أن الأمر خطير، لكنه لم يكن خائفًا.. كان فقط يفكر فيما ينبغى عمله. بعد برهة، تكلم بصوت مسموع فجفلت، فقد كانت تعتقد أنه سيهمس. قال لها: اسمعى يا «مارلى»، وجّهى بطاريتى الإضاءة ناحية الفتحة. عندما أجدها، سوف أضع هذه الخِرقة وأبللها بالجاز ثم نجرى، هل فهمتِ؟

قالت: إلى أين سنجرى؟

رد قائلاً: هنا فى الخلف، حيث يمكننا المراقبة ومشاهدة ما سيفعلون. ترك صخرة وأشياء أُخرَى تتدحرج خلفه.

هذا بالضبط ما فعلاه. أحدث «چو» ضوضاء وهو ينزل المنحدر، ودحرج صخورًا وأشياءَ أخرى. فلقد أتيا لإخافة الثعالب، وبالطبع كلما كان ذلك أسرع، كان أفضل.

قال: ها هو الجُحر، كانت فتحة كبيرة فعلاً، تغطى قمتها حشائش وكأنها حاجب هائل، فلا يستطيع أى إنسان أن يراها من أعلى. اهتزت يدا «مارلى» فتراقص الضوء. أشعل «چو» الثقاب وتوهجت الخِرقة سريعًا، دسّها «چو»، وأسرعا يجريان وهما يتعثران أثناء نزولهما التل. لم ينتظرا طويلاً. من المخرج الآخر شاهدا جسمًا يخرج، وآخر، وآخر أصغر،كان هناك صف طويل.

كانت الثعالب واضحة كل الوضوح على ضوء المشعل الذى سلطه «چو» تمامًا عليها.

برقت أعين الثعالب وكان هذا كل شىء.. خبت الخرقة وتلاشى الضوء، ولم يكن ثمة صوت.

انتظرا، نبح كلب على بُعد، أوه.. هل كان كلبًا؟

قال «چو»: لست واثقًا أن الأب كان هنا، لقد رأيت واحدًا كبيرًا، ربما خرج ليصيد وأليفته تنادى عليه.

سمعا النباح مرة أخرى، كان يأتى من بعيد. قال «چو»: لو كان هذا عويل أنثاه بالفعل، فإنها بعيدة عنا، لا أعتقد أنهم سيعودون.. ولكن على سبيل الاحتياط، من الأفضل أن نضع بعض الصخور والأحجار لسد الأبواب. سألها: هل استبد بكِ التعب؟

ردت قائلة: «كلا، لست متعبة على الإطلاق». كانت «مارلى» منفعلة بدرجة لا تسمح لها بالتعب! عملت معه يدًا بيد، وقاما معًا بوضع الكثير من الأحجار على المخرجيْن.

قال «چو»: حسنًا، أعتقد أن هذا كل ما بوسعنا أن نفعله.. والآن بعد انتهاء المهمة، كانت «مارلى» متعبة ولا تقوى على السير، لكنها لم تُفصح عن ذلك. وعندما وصلا إلى المنزل، لم يصدر عنها صوت.. ولكن أمام غرفتها مباشرة، أمسك «چو» فجأة بذراعها وضغط عليه وهمس: إياكِ أن تحكى لأحدٍ ما حدث، هل تفهمين؟!

قالت: لن أقول كلمة واحدة.

قال: وعد!

قالت: وعد صادق.

كان هذا آخر شىء عرفته حتى سمعت صوت بوق سيارة «فريتز» فى الفجر.. وكان يتجول بالشاحنة فى كل مكان؛ لإنجاز مهام كثيرة من أقصى المزرعة إلى أقصاها. نزل «چو» السلالم وراقبته «مارلى» من النافذة، كانت بندقيته معه، رقدت فى سريرها ترتعد وتصطك أسنانها، ففكرت أنه من الأفضل أن تنهض، فنزلت وأشعلت نارًا متأججة، وبدأت تُعدُّ بعض البسكويت.

قال الأب: انظروا، من استيقظ مبكرًا!

خرج ليسمع ثم عاد، وسألها: هل سمعتِ أى طلقات الآن يا «مارلى»؟

ردَّت: كلا.

ربت على يدها وقال: وأنا أعلم أنك كنت تنصتين.

شعرت أنه يظن أنه فهم كل شىء، لكن كان مخطئًا كليةً هذه المرة. إنه لم يدرك حتى نصف الحقيقة، وهى لم تكن على استعداد لإخباره إن عاجلاً أو آجلاً.

إنهم لم يسمعوا أية طلقات رصاص. ليس فى ذلك الصباح! وبدلاً من ذلك سرعان ما سمعا صوت الشاحنة. نزل «چو» عند البوابة ولوّح ببندقيته مودعًا «فريتز» وهو يرحل. دق قلب «مارلى» بقوة عندما ظهر «چو» عند الباب. نظرت إليه، فغمز لها.

قال لها: شىء عجيب حقًا، لقد ذهبنا إلى ذلك المكان ولم نجد أثرًا لأى ثعلب، كان الجحر مليئًا بصخور وأشياء أخرى ، وقال «فريتز» إنه لم ير شيئًا كهذا من قبل.

أسرعت «مارلى» لتلقى نظرة على البسكويت، كان قد نضج تمامًا وأصبح لونه بنيًا.. أحست أنها ستنفجر خارجة من جلدها من فرط سعادتها، وهكذا بدأت تغنى: «ثم يجرى ويقفز... ويقفز»، تحشرج صوتها وهى تغنى: «لا. ليس أنا»؛ لأنها كانت على طبقة صوت أعلى من طبقتها، لكنها لم تهتم.

قال «الأب»: إننى لأعجب.

لكنه لم يقل ما سبب عجبه، ولم يعلّق أحد.

8 هــاری الناســك

قالت «الأم»: يا إلهى، كم أمقت التنقل بين مكانين طيلة العام. لقد سئمت حزم الأمتعة جيئة وذهابًا. لكنها كانت تبدو سعيدة سواء أكانت متعبة أم لا. لن يكون عليهم العودة إلى المنزل طيلة فصل الصيف.

كانت الرحلة هذه المرة فى ضوء النهار، طوال الطريق، وإن كانوا قد استغرقوا وقتًا طويلاً فى إعداد كل شىء وإغلاق المنزل، ومن أسفل التل رأوا «الأب» بوضوح يخرج ويلوّح بيديه.

قالت «الأم»: حسنًا، إنه يرتدى مريلة، لابد أنه يعد العشاء.

كان كذلك بالفعل. لم يكن يعد عشاءهم فقط ولكن أيضًا لـ «كريس» و«فريتز» وكذلك «كريسى». كان مشغولاً لدرجة أنه لم يسألهم عن الدرجات التى حصلوا عليها فى شهادات المدرسة أكانت جيدة أم لا أو حتى إن كانوا قد نجحوا أم لا.. غمرته السعادة عندما أخبروه، فقال: كنت أعلم أن هناك أسبابًا كثيرة للاحتفال فى هذا البيت.

عندما وصل آل «كريس»، كان وجهه ساخنًا ومحمر الجلد وهو ينحنى أمام الفرن، قال: إن الطعام الذى أجرؤ على إعداده من أجل طباخ ماهر مثل «كريسى» هو شرائح اللحم المشوى، فهى كل ما لدينا.

قالت «كريسى»: كل شىء؟ كما لو لم يكن فى العالم ما هو أفضل!

كانت الأمسية كلها جميلة ورائعة وخاصة، كانت أجمل أمسية مرت بهم فى

تل «مابل»، باستثناء تلك الليلة الأولى فى معسكر السكر، عندما نفدت كل شرائح اللحم، جلسوا وغنوا وتحدثوا وحكوا القصص. أبدى آل «كريس» وكذلك «فريتز» رغبتهم فى العودة للمنزل، وصافحوا الجميع، وعند الباب قال السيد «كريس»: ليتكم لا تغادروننا حتى يتغير لون أوراق الشجر.

وقالت «الأم»: أخشى أن نغادر قبل ذلك بكثير.. إننى أتذكر كيف كانت الجدة تقول إننا غادرنا قبل أن تقع أعيننا على أجمل المشاهد التى يمكن رؤيتها فى السنة.

وقفت «مارلى» عند مدخل الشرفة تتنسَّم روائح الزهور وتتطلع إلى النجوم المتلألئة قائلة: لا يمكن أن يكون الخريف أجمل من هذا، لا يمكن.

بدا القمر عبر أوراق أشجار القيقب المتدلية من حواف سقف الشرفة ـ كما لو كان يؤكد كلامها.

تعددت أحجام الأوراق الآن، من أوراق جديدة صغيرة إلى أوراق كبيرة مكتملة النضج، تامة النمو. بدا أن السيد «كريس» يفكر فى أمرها؛ لأنه قال: يبدو أن النبات المتسلق «ڤرچينيا» يحب كل أفراد هذا المنزل مثلنا، الصغير والكبير على السواء.

وفى الصباح التالى، ظلت «مارلى» راقدة لفترة طويلة، فقط تستمع لطيور كثيرة تغرد! وكانت الأوراق يصدر عنها حفيف خارج نافذتها التى كانت مفتوحة مما سمح لها بأن تسمع أقل الأصوات. كانت تسمع صوت تَدَافُع المياه نازلةً من التل، وهو صوت مريح للأذن مثل صوت زخّات المطر.

إننا الآن فى تل «مابل».. حقًّا فى تل «مابل».. كانت تقول ذلك لنفسها وهى تنهض من فراشها، وترتدى ملابسها، وتنزل الدَّرَج مسرعةً؛ كى تخرج لاستقبال ضوء الشمس الساطع. كانت قطرات الندى تلمع فى كل مكان، ولكن الجو كان دافئًا.

قالت «مارلى» لنفسها: لو لم يكن المرء جائعًا كثلاثة دببة مجتمعة معًا، لما احتاج لإشعال نار طوال اليوم.

صاح شخص من أعلى التل: كان «چو» بالطبع. لم يطق صبرًا على أن يدعها تعرف أنه نهض قبلها، بغض النظر عن أنها استيقظت مبكرًا. لكنها لوَّحت وردَّت له الصيحة: «يووهووه».

سرعان ما نسيت أمر «چو»، إذ كان هناك شيء جميل بجوار البيت تمامًا. كان هناك صف طويل من نقاط حمراء صغيرة تبرز من الأرض وذات أوراق مجعدة. كان «نبات الروند». وهى لم تره معروضًا فى السوق طيلة حياتها. كانت منحنية عليه عندما خرج والدها من البيت.. قال باعتزاز: لقد وجدت ذلك الصف من «الروند»، إنه ينمو بشكل جيد. أتدرين يا «مارلى»؟ هناك «هليون» أيضًا فى طريقه للخروج من الأرض.

عندئذ أخبرها بكل ما هو موجود فى حديقته. صحبها مفتخرًا عبر كل صف، وعَرضَ عليها الصفوف الملتفة من الأوراق الصغيرة. كان يعرف كل شىء عنها رغم التشابه الكبير فيما بينها ما عدا بوادر الجذر.

كان ذلك اليوم هو البداية. ومنذ ذلك الحين تتابعت المفاجآت، الواحدة تلو الأخرى. لم تكن بدايات الربيع بأفضل من بدايات الصيف بسبب تزايد نمو النباتات. لم تعد هناك نباتات تشق الأرض ، لكنها كانت تنمو وتنمو كل يوم. تستطيع قياس مستوى نموها ـ كما اشتكى «چو» ـ عندما تكون مضطرًا لجز الحشائش، خاصة ـ كما قال «الأب» ـ عندما يكون عليك الاعتناء بالأعشاب فى حديقة.

على جانبى الطريق، كانت نباتات «السرخس»، التى لم تكن سوى تجذرات متماسكة تكسوها الشعيرات، تقف بشموخ بطول الطريق.

لم تتوقف «الأم» عن العثور على أشياء فى حديقة الزهور؛ كانت تحبها الجدة. ظهرت أولاً براعم ثم ورد أصفر على الأجمات الموجودة فى الشرفة.

قبل أسابيع، كانت زهور النرجس تبزغ من بين الأعشاب الذابلة، وأيضًا

السنابل البرية المعطرة والسوسن متعدد الألوان. ظهر البنفسج الإنجليزى بعد تنظيف أحواض الزرع.. تحت الأشجار، وعلى الجانب الظليل للمنزل كانت هناك زهور «سوسن الوادى»، فى أجمات كثيفة تجعل من السهل ـ كما قالت «الأم» ـ أن تجمع باقات عُرس كاملة دون ملاحظة من أين تم قطعها.

كانت روائح السوسن الأبيض والأرجوانى تهب على الشرفة فى الأمسيات عندما تهب إحدى النسمات.

وظهر التوت الأحمر فى البرية خلف المكان الذى أعده «فريتز» لحديقة الخضراوات الخاصة بـ «الأب».. دأب «الأب» من الصباح الباكر وحتى المساء الحالك على العمل فى حديقته أو فى الكرمات. عندما كان السيد «كريس» يأتى فى زيارة، كان هو و«الأب» يقفان بالخارج، أو يجلسان على العشب، كانت شهيتهما مفتوحة على الدوام للحديث عن البذور وآفات النباتات والمبيدات والثمار، مثلما كانت «الأم» و«كريسى» لا تتوقفان عن الحديث عن الزهور وحلوى الچيلى والمربى.

مرة قال السيد «كريس»: أعتقد أن «مارلى» سألت العديد من الأسئلة، لكننى أعتقد أن «ديل» سينال الجائزة. إذا لم نجتهد أنا و«فريتز» فإنه سيزرع خضراوات يحصد بها كل شارات التكريم فى السوق الموسمية للمزارعين.

قال «الأب»: سنرحل قبل بداية السوق الموسمية. قالها كما لو كان واثقًا من الحصول على كل شارات التكريم إذا لم يرحل، ولا غرابة فى ذلك مع الطريقة التى تنمو بها النباتات الخاصة به.

انتابت «فريتز» بعض الغيرة من حديقة «الأب» حتى أنه قال: إن هذا المكان لم يُزرع منذ فترة طويلة، ومع ذلك فهو خصب وثرى.

كان «فريتز» يأتى أحيانًا ويقول لـ «الأب» إنه عمل بما يكفى، ويذهبان معًا لصيد السمك.

بالطبع، كان «چو» يذهب معهما، أما «الأم» و«مارلى» فكانتا تستمتعان بما أطلقت

عليه «الأم»: «وقتًا نسائيًا لطيفًا»، فلم تكونا مضطرتين لطهو قدور كاملة من الطعام مع كل وجبة، بل كانتا تأكلان ما تبقّى. لكن حينما يأتى الرجال، يتناولون سمكًا رائعًا، مقلاة كاملة من السمك الصغير المقرمش. كان «فريتز» يصطاد كثيرًا سواء اصطاد «الأب» أم لا. أما «چو»، فكما قال «فريتز»، وُلد ليكون صياد سمك.

فى ليلة صيف دافئة بينما «الأب» و«الأم» يجلسان وأمامهما طبقان من عظام صغيرة، سمعت «مارلى» «الأب» يقول: مازال بوسع عائلة ما أن تعيش تمامًا على ما تنبته الأرض.

سألت «الأم» وهزت رأسها: «تمامًا، وماذا عن الأحذية؟».

أدركت «مارلى» ما تعنيه «الأم». إن أشياء كثيرة لا تنمو فى الأرض بالطبع.. فى كل مرة كان يثار حديث عن الاعتماد على ما تنبته الأرض، كان أحدهم ينهيه قائلاً: كيف استطاع الناس قديمًا أن يتعايشوا، لنتوجه مباشرة إلى البرية كما فعلوا؟

ذات ليلة، حكى لهم السيد «كريس» قصة عن ولدين صغيرين كانا أول أناس بيض البشرة يقضيان شتاء بأكمله فى هذا الوادى بالتحديد. كانت أمهما أرملة ولديها أطفال كثيرون وبقرة. أحضرت أسرتها الصغيرة والبقرة لكى تزرع الأرض، وكانوا قد حضروا فى الربيع.. وعندما حل الشتاء، عادت إلى بلدة بعيدة حيث كانت تعيش وتركت اثنين من أبنائها ليعتنيا بالبقرة، وبالبيت الذى شاركوا جميعًا فى بنائه.

قال السيد «كريس»: أعتقد أن الولدين قاما بالمهمة خير قيام، كان أكبرهما فى الرابعة عشرة. عادت الأسرة فى الربيع التالى، واستقروا جميعًا. تستطيع أن ترى اسم هذه العائلة فى كل أنحاء هذه المنطقة الآن، على العشرات من صناديق البريد.

رد «چو» قائلاً: أستطيع عمل ذلك بسهولة؛ لو كان عندى بيت وبقرة.

قال «فريتز»: وبندقية بالطبع.

قال السيد «كريس»: هناك رفيق يعيش بهذه الطريقة هنا، نسميه «هارى الناسك».. إنه يعيش فى نهاية الجبل جنوبًا، أعلى البرْكة التى يحط عندها البط.

قالت «كريسى» وقد أمسكت أنفها: إن استطعت أن تسمى هذه حياة! يقول الناس إنه يربى ماعزًا تعيش معه فى الشتاء.

فى الصباح التالى لم تندهش «مارلى» وهى ترى «چو» يتجه جنوبًا.

قالت لنفسها وهى تشعر أنها تحسده: ليتنى أرى الناسك أنا أيضًا، ثم خطرت ببالها فكرة. ولمَ لا؟ إنها تستطيع أن تنطلق خلف «چو»، تجعله على مرمى بصرها ولا تصدر صوتًا أو تنادى عليه. إنه لم يدعُها، لكن إذا تبعته، فماذا بوسعه أن يفعل؟

أدركت أنه يجب أن يسرع ليكون فقط على مرمى بصرها، ما عدا عند قمم التلال، فلا يجب أن يكون مُسرعًا. مرَّ بمنزل «كريس»، ثم عرج على طريق ضيّقة وسرعان ما ظهرت بحيرة صغيرة جميلة، دار «چو» حولها، وانحنى ليتفحصها عن قُرب.. وللحظة، ظنت أنه لن يغادر المكان على الإطلاق، إلا أنه عاود سيره. توقف عند صندوق بريد غير ثابت فى الأرض، وجهته لأعلى التل.. فى البداية، كان هناك مرج واسع خال من الأشجار، فقط حشائش يحركها الهواء. بعد المرج، كان هناك بيت صغير، ثم مخزن صغير للحبوب وكان المنظر غريبًا إذ إن المخازن فى بنسلفانيا أكبر عشر مرات من منازلها، وكانت هناك طريق صخرية شديدة الانحدار تمتد مباشرة إلى أسفل التل، منتهية عند صندوق البريد الذى وقف «چو» بجواره.

شاهدت «چو» يدور حول الصندوق، ربما كان يبحث عن الاسم.

ثم نظر إلى شىء داخله.. خطاب؟! بالتأكيد لم يكن يتجسس على خطابات أحد! فقد كانت هناك قوانين رادعة تمنع الناس من ذلك، هكذا أمام المنزل مباشرة!

قررت أن تنادى عليه، فقد حانت اللحظة التى يجب أن يعرف فيها أنها تبعته.

لم تبد عليه أية علامة دهشة لرؤيتها عندما جاءت إليه هابطة الطريق، قال لها: هل ظننتِ أننى لم أركِ؟ كنت أعلم أنكِ تتبعيننى طيلة الوقت.. لكن، انظرى هنا

يا «مارلى»، ما رأيك فى هذا؟ كانت هناك ملاحظة مدونة أمام كومة صغيرة من شمع العسل داخل الصندوق: «خذ العسل واترك نقودًا، أنا غير موجود طيلة اليوم» وبجانبها قطعة معدنية من فئة ربع دولار وأخرى من فئة النكلة(*).

قال «چو» وهو يحملق باتجاه المنزل: واضح أنه يثق بالناس، أليس كذلك؟ إن كان قد خرج لقضاء أحد شئونه، فلماذا لا نلقى نظرة على المكان؟

لا يوجد فى الدنيا كلها أبدًا مكان أجمل من هذا يستحق إلقاء نظرة عليه، حيث كان البيت مبنيًّا بألواح خشبية، وجدرانه ملساء ومطلية باللون الرمادى. كان الباب الخلفى مفتوحًا، وكان الذباب يطنُّ بسعادة وهو يدخل ويخرج من ثقوب شبكة السلك.

قالت له «مارلى»: لا تقف محدقًا هكذا يا «چو».. أعتقد أنه ليس من اللياقة أن نُحدِّق فى بيوت الآخرين وهم غير موجودين، لكن «چو» ظل واقفًا يُحدِّق، ثم استدار إليها قائلاً: إذا أردتِ أن ترى شيئًا مثيرًا، فتعالى وانظرى.. أخبرنى «فريتز» أن هذا العجوز يصنع سلاسل خشبية، هناك العشرات منها من كل الأحجام معلقة على كل الحوائط.

ألقت «مارلى» نظرة أيضًا، وعندما ابتعدا عن المنزل، رأيا سلسلة مُعلَّقة على شجرة بلّوط ضخمة فى الفناء الخلفى للمنزل، لم يكن قد انتهى من صنعها. كانت عبارة عن كتلة خشب حجمها مثل حجم «چو» مرة ونصف ــ كما كان السيد «كريس» يصفها. كان قد انتهى فقط من قطع الوصلات الضخمة، لذا بدت كالقوائم الطوطمية(**) فى المتحف، بأشكال تشبه «الأسقلوب»(***) تغطى الجهات الأربع.

قال «چو» منفعلاً: يمكنك أن تعرفى كيف يصنعها بالنظر إلى واحدة منها. حاول «فريتز» أن يشرح لى، لكننى لم أفهم ما يقصد. لقد شرح له الناسك كيف

(*) النكلة: قطعة معدنية من فئة الخمسة سنتات.

(**) الطوطم: مُجسم لحيوان أو نبات يتخذ رمزًا للعشيرة أو القبيلة.

(***) الأسقلوب: محار مروحى الشكل.

يفعل ذلك. إن كل «أسقلوب» ونظيره بالجهة المقابلة يصنعان معًا وصلة واحدة. عندما يتم قطع كل الخشب تتحرر الوصلات ومع ذلك تبقى مربوطة معًا.. أتفهمين؟

لم تفهم فى واقع الأمر، لكنها لم تقل ذلك.

قال «چو»: لِمَ لا؟ أراهن أننى أستطيع صنع واحدة من هذه.

بعدئذ استكشفا المكان خلال هبوطهما التل. كانت هناك درجات تم حفرها فى المنحدر وتثبيتها بأحجار مستوية. نمت الأُشنة على الأطراف تحوطها حشائش كثيفة. سارا إلى بيت صغير لا تقع عليه العين من أية جهة.. فقط، يمكن رؤية سطحه المنحدر من أعلى التل، كان له باب صغير محكم ارتفاعه حوالى أربع أقدام.

بدأ «چو» فى فتح الباب من فوره، وقالت له «مارلى»: «چو»، أتظن أنك يجب أن تفعل ذلك..؟

حدجها بنظرة، ثم سألها: ماذا تظنين بالداخل.. ساحرات؟ قالت لنفسها: لن يهتم لذلك؛ لأن «فريتز» يعرفه جيدًا، ثم إنه غير موجود، علاوة على أننا لن نلمس شيئًا.

كان منزلاً ربيعيًّا، من النوع الذى قرأت أن الرواد كانوا يمتلكونه قبل اختراع الثلاجات وصناديق حفظ طعام الرحلات. كانت هناك مغرفة مصنوعة من القرع، ومعلقة على الحائط، وفى الجوار حوض عميق داكن مملوء بالماء تم تثبيته بأحجار مستوية مثل تلك التى كانت على التل. كانت فتحة رفع الماء لا تزيد على حجم دلو موضوع إلى جانب الحوض.. وحول الحواف وعلى أحجار نظيفة رطبة، شاهدا خلايا نحل، وقالبًا مستديرًا جميل المنظر من جبن لونه أصفر فاتح.

كان هناك وعاء معدنى مستدير به لبن أيضًا ومغطى بشاش مُنسدل على الجوانب، ومثبت على الأرض بأحجار.

كانا كمن ينظر إلى ماضٍ سحيق. انحنت «مارلى» وغمست الوعاء وملأته

بالماء. كان ماءً صافيًا وباردًا.. فجأة، وبينما كانت تهم بالشرب، سمعا صوت أقدام تنزل الدَّرَج.

صرخت وهى ترتعد: «چو»، وانسكب الماء على ملابسها وحتى حذائها. ماذا لو كان هو؟ ونحن هنا...

حدجها بنظرة تستحلفها بالله أن تصمت، فصمتت.. وقفا ساكنين تمامًا، والماء ينسكب قطرة قطرة، وصوت الأقدام يقترب، كانت الصخور تصطك كما لو أن النازل ـ أيًّا من كان هو ـ كان يضع مسامير ضخمة فى حذائه. تمنت «مارلى» لو أنها تضاءلت مثل: «أليس فى بلاد العجائب»، حتى تختبئ خلف إحدى قطع الجبن، أو وراء حجر، أو أى شىء.

توقف وَقْعُ الأقدام. ساد صمت مُطْبِق. حبست «مارلى» أنفاسها وأحسَّت بأنفاس «چو» عميقة وثابتة بجوارها. جرى سنجاب عبر الباب نصف المفتوح، ثم عاد وألقى نظرة سريعة، وابتعد مرة أخرى.. وبعد فترة طويلة، همست «مارلى»: أين ذهب؟ هل ابتعد؟

رأت «چو» يبتلع ريقه. كان الصمت أسوأ وقْعًا من صوت الأقدام بعد اختفائه. تطلع «چو» باحثًا عن نافذة أو فتحة فى الحائط، لكنه لم يجد. كان الضوء الوحيد يأتى من الباب. أدركت «مارلى» لماذا كان ينظر هكذا. كان يشعر مثلها بأن شخصًا ما يراقبها. انتظر مرة أخرى. لا شىء! ثم همس «چو»: «سأستكشف..»، ثم تحرك بحرص ناحية الباب.

ثم قفز عائدًا. لم تر «مارلى» تلك النظرة على وجه «چو» من قبل، قال لها: إنه واقف هناك يراقبنا، إنه يعرف أننا هنا، أخيرًا.

لأول مرة يتكلم «چو» همسًا.

لم تكن طبيعة «چو» ألا يتحرك ويقول شيئًا. فلطالما تحدث مع رجال شرطة وسائقى حافلات ومع كل الناس.. شعرت «مارلى» أن الدم تجمّد فى عروقها وكان جسمها كله يرتعد، ومع ذلك ظلَّت ممسكة بالمغرفة فى يدها.

«ما يمكن أن نفعله الآن هو أن نتسلل و... ثم...».

«ماذا؟».

«ثم تجرى يا «مارلى»، إنه يمسك عصا غليظة.. فنظر إليها وقال: هل باستطاعتكِ أن تجرى سريعًا ولو مرة واحدة فى حياتك».

لم تكن «مارلى» واثقة أنها تستطيع مجرد الحركة، ناهيك عن الجرى، لكنها أومأت. فماذا بوسعها أن تفعل غير ذلك؟ همست: «چو»، ما كان يجب أن نأتى ونلقى نظرة على المكان هكذا.

تسلل «چو» ثانيةً ناحية الباب وهو يشير إليها أن تتبعه. الآن سأقفز خارجًا وأبدأ فى هبوط التل ، وأنت اركضى خلفى بأسرع ما يمكنك، لا تنظرى إلى الدرجات الحجرية، أو أى مكان.. فقط، اجرى.. اجرى.

شعرت أنها شُلَّت، لكنها وجدت أنها تستطيع أن تتحرك. هرعت وراء «چو» بحاذاة الحائط الحجرى المبلل بقطرات الماء وكانت قريبة منه، تكاد تلمسه. وصل «چو» إلى الباب وسمعته وهو يأخذ نفسًا عميقًا.

قفز خارجًا حيث الشمس المشرقة وجرى بكل قوته، وجرت وراءه وهى تتعثر وتكاد تسقط على الدرجات التى تؤدى إلى سد صغير، ثم تتعرَّج عبر المرج.

صاح «الناسك» ينادى عليهما، وعندما بلغا المرج مرًّا أسفل السور السلكى، ولأول مرة تجرؤ «مارلى» على النظر خلفها. كان هناك، طويلاً، ذا لحية وكان واقفًا على الدَّرَج فى منتصف المسافة، كان يلوح بذراعيه وكان فوق كتفيه أغرب شىء شاهدته، كانت على كتفيه تعليقة يتدلَّى دلو من كلا طرفيها، كان يبدو كنسر عظيم قد فرد جناحيه، وكان يمسك بعصا فى إحدى يديه.. قال «چو»: أُخمِّن أنه كان ذاهبًا ليحضر ماءً عندما أحس بوجودنا.. أسرعى.

وهما فى طريقهما، قال لها «چو» إنه لم يحس بالخوف حقيقة، وإن الأمر يتعلق فقط بصعوبة التكهن برد فعل مثل هذا النوع من البشر.

إنك تسمعين عن تلك الأشياء الغريبة، وتقرئين فى الصحف كل هذه



القصص المرعبة، مثل قصة ذلك العجوز الذى اختبأ فى قطيرة(*) بولاية نيو مكسيكو.. كان «چو» لا يكف عن النظر خلفه، وواصل كلامه: لو كنت بمفردى لوقفت وتحدثت معه. «فريتز» يقول إنه غريب الأطوار، لكنه لطيف عندما تتعرف عليه، توقف وهو يقول: ربما لم يكن علينا أن نجرى هكذا.

«چو»: لم يكن بوسعنا أن نبقى وتمكنه منّا ، غير معقول!

كان «چو» يبدو منزعجًا للغاية وهو يقول: بدا الأمر وكأنه لا حيلة لنا، أليس كذلك؟ ومنذئذ، لم أفكر فى أى شىء آخر يمكن أن نفعله. أما الآن ـ ووقف ساكنًا ـ فأنا على وشك العودة يا «مارلى». كان تصرفنا غبيًّا ـ أن نجرى هكذا، كنت أفكر فيك.. بدا من صوته أنه يتهمها؛ لماذا تتبعين دائمًا شخصًا ما؟

ردَّت «مارلى»: كنت ستجرى أنت أيضًا! لقد كنتَ خائفًا مثلما كنتُ خائفة، وأنت تعرف ذلك! ثم إن الخطأ كان خطأك ـ أن تذهب وتتجسس هكذا على كل شىء بالطريقة التى فعلتها.

لماذا؟ لأنه ربما كان فى المنزل فعلاً وأنت تتجول داخله.

قال «چو»: إن الورقة التى كانت على الصندوق تعنى أنه غير موجود.

ـ إنها لم تذكر اليوم، ولم تذكر موعد عودته.

نظر إليها بغضب وقال: لماذا لم تفكرى فى ذلك من قبل؟.. لم ترق له فكرة أنه عندما كان يتلصص عبر السلك، ربما كان فى مواجهة «الناسك» ذاته.

قال: سأرجع وأعتذر له.

ردَّت: الآن يا «چو»، بمفردك.

ـ «حسنًا، لستِ مضطرة أن تأتى معى».

ـ لم أقصد أننى أريد الذهاب معك، كنت أفكر فقط أنه من الأفضل أن تذهب مع «فريتز» أو شخص ما.

(*) قطيرة: عربة مقطورة على شكل بيت متحرك قائم على عجلتين أو أربع.

الشىء الواجب عمله هو أن يقدمك شخص ما يا «چو».

بدا «چو» غير متأكد، لكنه بدأ فى السير تجاه المنزل مرة أخرى، قائلاً: ربما كان الأمر كذلك.

يا إلهى، كم يكون الأولاد سخفاء. لم تلمه مطلقًا على شعوره بالخوف، من كان يستطيع غير ذلك؟ كما أنها لا تمانع فى أن تصرح له بأنها شعرت بالخوف أيضًا، لكنها كانت تعرف جيدًا أنها لو ذكرت كلمة واحدة عن الطريقة التى غادرا بها هذا المنزل وهبوطهما التل، إذن لخاصمها أسبوعًا، إن لم يكن إلى الأبد، كانت تريد أن تحكى الأمر وتجعله يبدو رهيبًا قدر استطاعتها، لكنها كانت تعلم أن «چو» لن يسامحها لو أشارت له مجرد إشارة.. وللمرة المليون، كانت سعيدة بفكرة أنها ليست ولدًا. من الطبيعى أن تخاف الفتيات أو أن يشعرن بمشاعر بلهاء أو حتى يطرحن أسئلة غبية. ويضحك الجميع معتبرين ذلك أمرًا مسليًا. أما إذا علم أحد أن «چو» سأل سؤالاً سخيفًا أو أنه كان خائفًا ولو قليلاً، فإنه سيغضب ويثور ويتلوّن وجهه بالألوان الأحمر والأبيض والقرمزى.

كان أبى كذلك بعض الشىء، رغم كبر سنّه.

وعندما وصلا، قالت له: «چو»، إننى لا ألومك البتّة على شعورك بالخوف.. أنا صادقة..

قال لها: اصمتى، لا تذكرى شيئًا عن ذلك.. ألا تستطيعين؟

جاهدت لتمسك لسانها، كم كان ذلك شاقًّا. كان عليها فى الواقع أن تمسك طرف لسانها بأسنانها حتى لا تحكى، خاصة عندما خرج «چو» مع «الأب»؛ لنزع الحشائش الضارة، وكانت هى و«الأم» وحيدتين مع الأطباق.

بمجرد أن بدأت تقول: هذا الصباح، «چو» وأنا... توقفت وعضّت لسانها.

قالت «الأم»: هل رأيتم «كريسى» هذا الصباح؟ لم تكن على ما يرام ليلة أمس.

كلا، لم نفعل. كانت «مارلى» تفهم جيدًا أنها لو بدأت تحكى فلن تخرج ثانية

مع «چو» طيلة حياتها. شعرت براحة بعد الانتهاء من غسل الأطباق، صعدت إلى غرفتها وأغلقت الباب. قضت فترة بعد الظهر فى القراءة؛ حتى لا تنزل وتبدأ فى رواية ما حدث. وعندما حان وقت المساعدة فى إعداد العشاء، كان «چو» فى المطبخ يغسل الأطباق.

نظر إليها مليًّا قائلاً: أراهن ببقرة أنك حكيتِ لأمى.

ـ كلا، لم أفعل.

سأل «الأب» أثناء دخوله: ما الذى لم تفعليه يا «مارلى»؟

همست «مارلى» لـ «چو» وهى تضحك بخبث: هذه المرة، سيكون عليك أن تخبره بنفسك.

قال «چو»: سأذهب بعد العشاء لأرى «فريتز».

شاءت الظروف ألا يحدث هذا، كما أن «مارلى» لم تعد بحاجة للقلق من إفشاء الحكاية بعد الآن؛ لأن الشخص الوحيد فى العالم الذى كان يعرف القصة، بالإضافة لها و«چو»، حضر بعد العشاء مباشرة وحكاها بنفسه.

وكان من الممكن أن توقع «چو» على الأرض ولو بريشة عصفور ــ على حد تعبير السيد «كريس».

وعندما طُرق الباب، تصادف أن ذهب «چو» ليفتح، ووقف هناك محدقًا ونسى أن يقول: «تفضَّل». نهض «الأب» من كرسيه وأخرج الغليون من فمه وقال: مرحبًا، تفضل.. تفضل.

عندما دخل «الناسك» سرت فجأة فى الغرفة رائحة الماعز ـ كما قالت «كريسى». لم تكن هيئته تختلف كثيرًا عن أى رجل متقدم فى السن، أو يكاد، وكان ذا لحية رمادية مشذبة، وقد أحكم أزرار معطفه كلها. كان شعره مصففًا بعناية، وكان طويلاً، نحيفًا، ويحمل العصا ذاتها التى لوَّح بها هذا الصباح.

قال :أسعدتم مساءً.

كان لصوته نبرة مهذبة وخاصة، بعيدة كل البعد عن أن تكون فظّة؛ بالرغم من رائحة الماعز البرى التى تفوح منه.

قال: أتيت لأسأل السيد «كريس»، أين يعيش هذان الصغيران. لأننى أخشى أننى أرهبتهما هذا الصباح، ونظر مباشرة فى وجه «چو» ثم «مارلى».

استطرد: لم أكن أدرى من كان بمنزلى، كنت أعتقد أنهم هؤلاء الصبية المشاكسون الذين يأتون أحيانًا لسرقة الجبن، لدرجة أنهم ــ ذات مرة ــ ألقوا الجبن وسكبوا اللبن فى نبع الماء.

نظر «الأب» و«الأم» إلى بعضهما، ثم إلى «چو» و«مارلى» بنظرة متسائلة.

صرخت «مارلى»: فى نبع الماء ! لماذا فعلوا ذلك؟ إنه نبع جميل!

سأل «الأب»: هل كنت هناك يا «چو»؟ وأنت يا «مارلى»؟ لقد كنت أسأل نفسى أين كنتما طوال اليوم!

قال «الناسك» مرة أخرى بسرعة ورفع لفافة من ورق الجرائد: لم يحدث مكروه، أتمنى أن يحضرا مرة أخرى وكان ينظر إلى «الأم»، التى تحركت ناحيته وأخذت اللفافة من يده.

قال: لقد أحضرت بعض العسل والجبن من إنتاجى. مذاقهما رائع. لا يوجد جبن من لبن الماعز مثل هذا إلا فى سويسرا، التى أتيت منها وأنا صبى.

قالت «الأم»: شكرًا جزيلاً.

قال: إذا حضر الأولاد مرة أخرى غدًا، سأريهم كيف أصنع الجبن.

قال «چو» متسائلاً: و«السلاسل»؟ كانت أول مرة يتكلم فيها بحماس وارتياح.

قال «فريتز»: دعه يرى كيف تصنع هذه السلاسل الخشبية.

ضحك «الناسك»، كانت أسنانه طويلة ولونها بنيًا، لكن كانت ضحكته جميلة - كما ظنت «مارلى»، كانت تعبر عن السعادة، قال: أما عن السلاسل، فأمرها سهل، إن كان لديك خشب وسكين جيدة فسوف أريك الآن، الليلة.

نظرت «الأم» إلى «الأب». أدركت «مارلى» أنها تسأل «الأب» بعينيها إن كان سيوافق على بقاء رجل الماعز. فقد كان لا يحب من يأتون ويبقون، وبخاصة كبار السن غريبو الأطوار الذين لا يكفون عن الكلام.. وعلى ما يبدو أن الأم كانت تتعرف على أنماط كثيرة من البشر فى أى مكان تذهب إليه، وكانوا يأتون لزيارتها والأب غير موجود.

قال له «الأب»: تفضل بالجلوس.

ثم أشار إلى «چو» قائلاً: «چو» أحضر تلك السكين التى شحذناها.

من كان يمكن أن يظن هذا الصباح أن «الناسك» سيجلس معهم فى المطبخ الليلة؟ أخذ قطعة خشب من الصندوق، تشممها قائلاً: خشب القيقب، ثم شرع يصنع منها عمودًا طوطميًّا صغيرًا، كان يعمل سريعًا بأصابع طويلة ملطخة.. كأنها أعجوبة.. ظهرت أول وصلة، فالثانية، فالثالثة، ولم ينسَ أن يشرك «چو» فى العمل؛ حتى يتعلم. كان «چو» يعمل ببطء وفمه مُطبق.

قال له «الناسك»: إنها غير متقنة، فقط لأعلمك. يجب أن تُصنع بعناية. مكث يعمل أربع ساعات متواصلة وقبل انتهاء صنع السلسلة أعدت «الأم» إبريق قهوة، وتركته يغلى ويغلى؛ حتى يطرد رائحة الماعز من المنزل.

قال وهو ينصرف: عدانى أنكما ستحضران قريبًا، وأيضًا «الأب» و«الأم».

نظر إلى «مارلى» وقال: لدىَّ تلسكوب، والسيد «كريس» يقول إنك ستحبين النظر من خلاله ليس إلى النجوم فقط، ولكن الأشياء الصغيرة فى كل مكان، ثم ابتسم وهو يكمل كلامه: من موضعى على التل أصبحت أعرف كل البط فى البركة.

قال «چو» بدون أن ينظر إلى «الأب» أو «الأم»: آسف لأننى اقتحمت منزلك بهذه الطريقة.. كنت أعتقد...

تساءلت «مارلى» إن كان «چو» سيقول الحقيقة، إنه كان يعتقد أن «الناسك» غير موجود بالمنزل حينها لكنه لم يفعل، لم تخرج العبارة من فمه.. قال «الناسك»: إن

لم أكن موجودًا، تعال واعتبر البيت بيتك، أحيانًا أكون فى المخزن، أو فى الغابة، أو عند خلايا النحل، ثم نظر إلى «الأب» وهو يقول: لفترة، كان ابنى يعيش معى على الجبل، لكنه ذهب إلى الجيش.

وعندما رحل جلس «چو» على الدرج يراقبه. جلس لفترة طويلة يؤرجح السلسلة فى يده.

قالت «الأم»: ماذا سنفعل بهذه الجبن الفظيعة؟ إن رائحتها قوية.

قام «چو» ودخل المنزل وبدا مثل «الأب» تمامًا، عندما يكون غاضبًا بشدة.

قال: إنها جبن رائعة، وإنه عجوز رائع. سوف أتعلم منه صنع الجبن والسلاسل وكل شىء، سيكون لى منزل وسأعيش مثله تمامًا.

وصعد السلم ببطء.

قال «الأب»: حسنًا.

9 قــرار مهــم

نما عالم الصيف ونضجت نباتاته، ووصلت الأعشاب على حواف الحقول وفى أركان السور الحديدى إلى خِصر «مارلى».. وبحلول الرابع من شهر يوليو كانت بداية التحوُّل إلى اللون البنى، وحذر «الأب» «چو» و«مارلى» ألا يتقاذفا شرائط ألعابهم النارية خاصة المشتعلة منها. وفى احتفالات المدينة، كان الأيس كريم يتساقط قبل أن تلعقه مرة واحدة، كان صيفًا بحق.

فى تلك الليلة بعد انتهاء الألعاب النارية، وبعد انصراف الجميع لتناول آيس كريم مُعد فى البيت فى شرفة منزله، قال السيد «كريس»: الصيف، إنه وقت الثمار مثلما يكون الربيع وقت الزهر. أدركت «مارلى» أن هذا كلام صحيح. وطوال الصيف كانت تتأكد صحة مقولته أكثر وأكثر، وكانت كل زهرة من الزهور التى أينعت تحمل نوعًا من البذور أو الفاكهة، وكان مدهشًا رؤية كم هى متنوعة.

على سبيل المثال، أجراس زهرة الأقلنطونية(*) الخضراء أصبحت توتًا أزرق جميلاً، لكن عددها كان قليلاً، بحيث يتعين عليك أن تجوب الغابة بأسرِها لتصنع سوارًا .كان ثمر «الورد البرى» فى كل مكان، أصفر وأحمر، وكان بوسعك أن تصنع عقودًا من بذورها التى تنمو عند أصابع قدمك وأنت جالس فى الشرفة دون أدنى حركة.

كان «سوسن الوادى» يحمل عناقيد شديدة الحُمرة، لكن «سوسن الوادى

(*) الأقلنطونية: عُشب، زهره أصفر.

الكاذب» فى الغابة كان يحمل حبات توت تشوبها نقاط بنية اللون، وكان نبات «خاتم سليمان» يحمل حبات توت ذات لون أزرق داكن فى صف منتظم، حيث تكون الأزهار معلقة تحت الأوراق؛ كأن أجراسها الصغيرة هربت وتركت ألسنتها، وأسقطت الأوراق الذابلة لـ «البودوفلون الدَّرقى»(*) بتلاتها، وزاد انتفاخ وسطها أكثر. قالت السيدة «كريسى»: إنها مستعدة لدفع ثمن جيد مقابل سلة لتخزنها، لكن من الصعب العثور على كمية تعادل عدة باينتات(**) وذلك لأن الحيوانات تحبها كثيرًا.

أينما نشرت نباتات الاطرليون بتلاتها البيضاء العريضة، كنت تجد عقودًا طويلة من التوت، بعضها أحمر والآخر أسود.

وعلى الساق الملتوية حبات توت صغيرة جدًّا وشفافة حتى أنك كنت تستطيع أن ترى من خلالها.

قال السيد «كريس»: لـ «سروال الهولندى» ثمر ضار بالأبقار لو أكلته، ولهذا كان اسمه الصيفى «دُوار الماشية الأزرق الصغير». جمع «چو» و«مارلى» قدرًا كبيرًا من التوت، والفراولة وتوت العليق، وكذلك التوت الأسود، حتى قال إنه لم يعد لديه مكان له. لكنهما استمرا. أراهما «فريتز» منطقة يكثر فيها التوت الأسود حتى أنهما جمعا مقدار «كوارت»(***) بدون خطوة واحدة، وكانت كل حبة توت بحجم إصبع إبهام السيد «كريس»، وفى كل مرة كان هناك أيضًا احتمال إعداد فطيرة بعد ذلك. وبالتوت الأزرق وتوت الحقل كانت تصنع كعكات وفطائر على الإفطار، وربما لحلوى البودنج بعد الغداء ولفترة، استمر «الكرز» كثيفًا على الأشجار، على امتداد الطرق التى تقطع فيها الأخشاب التى غشاها ضباب أبيض لوجود الأزهار البيضاء فى وقت سابق.. كان وجودها يبشر بصنع «الچيلى»، وهذا ما يتم عند ظهور التوت لاحقًا.

أكْل. أكْل. أكْل. لم يقتصر ذلك على الأشياء البرية بل امتد إلى كل الأشياء التى نبتت فى حديقة «الأب» وأصبحت صالحة للأكل فى نفس التوقيت، حتى قالت «الأم» إنها

(*) البودوفلون الدَّرقى: عشب شمال أمريكى ذو ثمر بيضى الشكل.

(**) الباينت: وحدة وزن تساوى نصف كوارت أو ثمن جالون.

(***) الكوارت: يساوى ربع جالون.

تحس أن الطعام يخرج من أذنيها. صنعت مربى وعصائر بقدر ما تستطيع وجمدت كميات من الأشياء؛ حتى يمكن استخدامها فى عطلات نهاية الأسبوع أثناء زيارات الشتاء.

قالت: أشعر أننى مثل «يوسف» النبى فى مصر، وهو يستعد أثناء سنوات الرخاء للسنوات العجاف.

فى شهر أغسطس، وجدت «مارلى» أغرب توت شاهدته فى حياتها. كان السيد «كريس» قد حذرها :لا تأكلى نباتًا غريبًا، لذا حملت قدرًا منه؛ لكى تسأله عنه. كانت كل حبة توت مستقرة على زهرة حمراء قانية فاتنة تبقى فى مكانها بعد نزع حبة التوت.

قال السيد «كريس»: «عنب الذئب».. هل أصبحت جاهزة بالفعل؟ لقد اعتدنا أن نصنع منها حبرًا أيام الدراسة.

أخبرها أنها بوسعها أن تتذوقها إذا أحبت، وبالطبع تذوقتها مرة واحدة، لكنها سرعان ما أحسَّت أنها تشرب حبرًا على الإفطار.

عندما رأتهما «الأم» ضحكت وقالت: كانت الجدة تسميه توت الحبر. لم تكن تفرح لرؤيته ينضج، فقد كان إشارة إلى قرب موعد عودتنا للمنزل، وللمدرسة.

جمعت «مارلى» كمية كبيرة منه وصنعت كمية صغيرة من الحبر، قالت «الأم»: إنها لم تر فى حياتها مثل هذه الفوضى لصنع مقدار قليل من العصير. صيف كامل من صنع العصير والچيلى لم يخلف هكذا فوضى فى المطبخ. كانت هناك بقع أرجوانية فى كل مكان، على السقف وحتى فى الدواليب المفتوحة بالكاد.. وفى النهاية، كان فى الطبق حبر يكفى لكتابة نصف خطاب لـ «كارول».. قالت «مارلى»: تخيلوا خطابًا بتوت الحبر. إنه أمر رائع كباقة من الفراولة.

انتشرت «الغُلْطِيرة المسطحة»(*) مثل البساط وطرحت ثمار التوت الأحمر، وقال السيد «كريس» إنها لا تتوقف عن النمو طوال الشتاء. اعتاد من يضلون طريقهم أن يبحثوا فى الثلج عن هذا التوت ليأكلوه؛ إنقاذًا لحياتهم، كان طعم الأوراق الخضراء السميكة مثل اللبان.

(*) الغُلْطِيرة المسطحة: شجيرة تنمو فى أمريكا الشمالية بيضاء الزهر حمراء الثمر.

قدمت «كريسى» حلوى العشاء ذات ليلة قائلة إنها أفضل خليط توت فى العالم بأسره، توت «الغُلطيرة المسطحة» الذى لم ينضج تمامًا بعد، والتوت الأزرق. لم تشاركها «مارلى» رأيها، فقد رأت أن توت العليق والكِشْمِش أفضل بالنسبة لها.

ومساءً بعد آخر، تعالَى غناء الكائنات فى البرك التى أخذ ماؤها يجف، كذلك تعالَى غناء الكائنات فى الحقول يومًا بعد آخر.

قال السيد «كريس»: إن هذه الكائنات تحس بقرب قدوم الشتاء، ولهذا يتعين عليها إخراج كل الضوضاء من أجهزتها.

بدأت أوراق قليلة تتساقط، ورقدت البذور المجنحة على الأرض تحت أشجار الخزامى، وعلى طول الطريق بدأت قرنات الصقلاب(*) تنشر خيوطًا حريرية بيضاء.

بدا أن الأيام تمر أسرع وأسرع، وبدا الحزن على السيد «كريس».. ذات ليلة، تطلع إلى السماء وقال فى نبرة حزن لم تسمعها منه «مارلى» مطلقًا: عندما يكتمل القمر فى المرة القادمة، سيكون هناك صقيع قاتل.

بدت «كريسى» حزينة أيضًا وكانت تكرر بينها وبين نفسها: أتمنى لو أنك تستطيعين رؤية عودة اخضرار الأوراق يا «لي». بعد ذهابك، لن أقدر على الوقوف والنظر فى هذا الاتجاه بالليل.. كان جميلاً أن يكون معنا شخص فى هذا البيت يعتنى بإضاءة البيت فى المساء مثلما كنت أفعل عندما كانت جدتك هنا.

ثلاثة أسابيع، ثم أسبوعان قبل موعد العودة للمدرسة. أحست «مارلى» بغرابة أن يحدث ذلك فجأة بعد صيف طويل. بدا الصيف وكأنه لن ينتهى، والآن أوشك على الانتهاء.

كرهت فكرة أن تُغادر تل «مابل» مثلما كرهت الصناديق التى بدأت «الأم» تعدها. فى حين كان «چو» يصفر أثناء إنزاله الصناديق إلى الطابق السفلى، قالت لنفسها: يبدو أنه لا يكترث لشىء.

وذات يوم وهى تهبط إلى الطابق السفلى، سمعت «الأب» يقول شيئًا غامضًا ومهمًا.. خمنت من نبرة صوته كم هو مهم.

(*) الصقلاب: حشيشة اللبن.

سمعته يقول: حسنًا، لم يعد بإمكاننا الاستمرار فى تأجيل هذا الأمر، أليس كذلك؟ يجب أن نقرر الآن.

قالت «الأم»: أتوقع أن «مارلى» ستسعد لذلك، لكننى لا أدرى ما رأى «چو».

قال «الأب»: إننى حتى لم أفكر فى أننا سنروح ونجىء بسهولة، لكن «كريس» يقول إن هناك كمية «دقشوم» كافية فى المنطقة المنخفضة.. إذن، فلن تكون هناك مشكلة، إن مجلس المقاطعة يحافظ على الطرق ممهدة من أجل حافلة المدرسة.

شعرت «مارلى» أنها بدأت ترتعد من الفكرة، فقد بدأت تفهم ما يتحدثون بشأنه. استمر «الأب» يقول: كل اعتراض لى كان «كريس» يجد له مخرجًا.. إنهم فعلاً يريدوننا أن نبقى هنا.

نبقى هنا! فى تل «مابل» طيلة الشتاء؟! كانت «مارلى»، تسترق السمع حتى أن أذنيها كانتا كأذنى حمار على كلا الجانبين. لكن الأم كانت أمام المقلاة تحركها على النار. فلم تستطع سماع كل كلمة قالتها.

فى ظروف صعبة كالماضى، أليس كذلك؟ بعد كل شىء، لقد عاشت الجدة هنا طوال السنة؛ سنوات طويلة حسبما أتذكر، وحتى قبل ذلك ـ وكما يقول «كريس»، لو أدخلنا نظام تدفئة.. ليس البيت هو ما يقلقنى يا «ديل».

أحسّت «مارلى» بالحزن فى صوت «الأب»: أعرف ما يقلقك. ليس هذا منصفًا بالنسبة للأطفال.. لولا المدرسة...

بالطبع، إننى لا أرى عيبًا فى مدارس المقاطعات، إن الأولاد يتلقون عناية أكثر مما يتلقونها فى مدارس المدن المزدحمة. كل ما فى الأمر أن «چو» كان سعيدًا فى مدرسة كبيرة، كل شىء فيها جديد، ثم إنه يحب أصدقاءه، كذلك كان يريد أن يشترى بوقًا ويشترك فى فرقة.

وبالكاد، سمعت «مارلى» الكلام الذى جاء «مدارس المقاطعات».. كانت هى و«چو» قد رأيا مدرسة «ليتل مابل ماونتين» وكانت تبدو ككنيسة، لها برج جرس غريب، لدرجة أنه كانت هناك مقبرة خلفها، فوق تل منخفض وصخور متراكمة ومشاهد قبور.

تتبعا بعض الأسماء الغريبة المكتوبة على بعضها مثل «ميهيتابل»، و«چوزيفوس»، وبعض أبيات شعر مرعبة عن الموت، وعندما نظرا من خلال نوافذ مبنى المدرسة التى علاها الغبار، ضحكا وضحكا. كانت هناك صفوف من الصور مازالت مثبتة على الحوائط بالدبابيس: طيور، وصفصاف أمريكى وزهور التيوليب التى لوَّنها الأطفال خلال الربيع.

وكان هناك أكبر المواقد وأكثرها استدارة، كانت أكبر مما رأيا فى حياتهما. كان هناك ستة صفوف من مقاعد الدراسة؛ تتدرج من الأصغر للأكبر. قال «چو»: إنها تبدو كمدرسة لـ «الدببة الستة» ـ من الدببة الصغيرة إلى الدببة الكبيرة.

قال: تخيلى أننا مضطرون للذهاب إلى مدرسة كهذه.

بماذا كان «چو» سيفكر؟ لم تستطع الانتظار حتى تحكى له وترى رد فعله. أسرعت تقفز السلالم وتدخل غرفته! كان لا يزال نائمًا، كان يبدو طويلاً وهو راقد فى فراشه خاصة أنه كان يفرد جسمه فى كل اتجاه. لكنه عندما يستقر على المرتبة لا يتحرك، ويقول «الأب» إنه ينام كحجر وجذع شجرة معًا.

قالت: «چو».

زمجر وتقلب فى الفراش وسحب ملاءة السرير على وجهه.

جلست على حافة السرير، وظنت أنه سيكون من الممتع مضايقته عندما تتحدث عن هذه المدرسة العجيبة؛ لذلك مالت قرب أذنيه وقالت: خمن يا «چو»! إننا لن نعد أبدًا إلى «بيتسبرج»، سنقيم هنا فى تل «مابل» طوال الشتاء.

ـ «ماذا؟» قالها وهو ينهض بسرعة حتى كادت تسقط من حافة الفراش، وكأنه وكأنه لم ينم منذ أسبوع مضى.

ـ «نعم وسمعت توًّا أمى وأبى يتحدثان.. قال «أبى»: إن البيت يصلح للبقاء فيه خلال فصل الشتاء، ويقول السيد «كريس»: إن بوسعنا أن نروح ونجىء، وتقول «الأم»: إن حافلة المدرسة ستمر علينا، وتأخذنا إلى هذه المدرسة الغريبة الصغيرة والقديمة قرب المقابر. خرجت كلماتها متداخلة بعضها فى بعض، وبدت

لـ «مارلى» وهى تنطقها غير صحيحة تمامًا، حتى الآن على الأقل. لكنها لم تكن قد اكتشفت، حتى هذا الحين، أن «الأب» كان يأبَى أن يخضع لرغبة «الأم». وكان بوسع أى شخص أن يدرك من الطريقة التى يتكلم بها أنه كان يريد البقاء فى تل «مابل».

تملك «چو» فزع شديد وقال: تلك المدرسة؟ كان بوسعها أن ترى على وجهه أنه كان يفكر فى المدرسة الجميلة التى اعتاد الذهاب إليها فى «بيتسبرج».

وهى عبارة عن مجموعة مبانٍ متراصّة، وبها حجرات عديدة، وصالة ألعاب رياضية وكل شىء، وكان بها رجال الشرطة يساعدون التلاميذ على عبور الطريق.

قال وهو ينهض من الفراش متجهًا صوب الباب: لا أصدق هذا الكلام.

أسرعت «مارلى» خلفه منادية: «چو»، «أمى» و«أبى» كانا يتحدثان فى هذا الشأن... أتفهم، لا أعتقد أنهما اتخذا قرارا نهائيًا، لكن «أبى»...

قال «چو»: «لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، أنت تسيئين فهم الأشياء دائمًا». وقف ونظر إليها غاضبًا وقال: أراهن أن القصة كلها من تأليفك. ما الذى يجرى، لقد بدأنا حزم أمتعتنا بالفعل منذ الأمس.

قالت: لقد سمعتهما. قالت أمى إنها لا ترى عيبًا فى مدارس المقاطعات، لقد سمعتها.

ـ «أتقولين الصدق؟».

«نعم، أقول الصدق، قال «أبى» إن هذا ليس إنصافًا بالنسبة لى ولك، وأنا لا أرى عيبًا فى ذلك».

«تخيلى ـ قاطعها «چو» كما لو كان غير قادر على الوقوف وسماع كلمة أخرى. وتلك المدرسة! كل هؤلاء الأطفال الصغار فى نفس الفصل. لماذا؟ اعلمى أننى ما كنت لأذهب إلى هذه المدرسة حتى لو كانت آخر مدرسة فى العالم...» وبدا عاجزًا عن العثور على الكلمات التى يعبر بها عن استيائه من الفكرة.. استدار وفتح الباب، لكن «مارلى» أمسكت ذراعه.

رسمت «مارلى» الكآبة على وجهها بقدر ما تستطيع وقالت: «أعرف شعور «أمى».. أما «أبى»، فكما ترى إنه أفضل هنا، أليس كذلك؟

وقف «چو» ينظر إليها لدقيقة، رأت وجهه وقد علاه الخوف، بالضبط مثلما كان يظهر على وجه «الأب» عندما يكون فى محنة. حدث مرة أن «الأب» مد يده وصفع «چو» على وجهه بقوة، أسرعت الأم تمسك بيده وتقول: «كيف تجرؤ؟» ـ إن التعبير على وجه «چو» الآن مثل تلك اللحظة بالضبط.

قالت «مارلى»: منذ عدة أيام، كنت أنا و«أمى» فى الحديقة، وكان «أبى» على الطرف الآخر، قالت «الأم»: أليس شيئًا رائعًا أن يكون «الأب» أحسن حالاً فى تل «مابل»؟ إنه يضحك ويتحدث ويحكى قصصًا ويغنى طوال الوقت، ودأب على التقاط ما تبقى من قرنات البقول واقتلاع الجزر والبنجر..

وبينما كانت تتحدث، تسلل «چو» ببطء عائدًا إلى فراشه. رقد وسحب الغطاء مرة أخرى. كانت تعرف الأشياء التى يحبها «چو» فى المدينة: دور السينما الضخمة والمتاحف والحفلات الموسيقية ومعارض العلوم، كان يحب الجسور والتلال وحتى مصانع الصلب. كان يحب ضوضاء المدينة والناس ورجال الشرطة. كانت له رفقته، وكانوا يذهبون معًا إلى كل هذه الأماكن.. إن المدن أفضل بكثير للأولاد حتى لمن كان يحب الاستكشاف منهم.

سألته: ألا تحب تل «مابل».. يا «چو»؟!

جاء صوته واهنًا من تحت الغطاء : بالطبع أحبها، لكن... ثم ظهر وجهه وهو يقول: لماذا..؟ كنت سأحصل على البوق واشترك فى الفرقة وكل شىء.

قالت: «چو»، ربما لن نبقى هنا.

«صرِّح لـ«أبى» بحقيقة شعورك».. كانا يقولان توًا أن عليهما أن يتخذا القرار.

نهض مرة أخرى قائلاً: ماذا تقصدين يا «مارلى»؟ كنت أحسبك تقولين إن الأمر قد حُسم.

ـ قالت: كانا يناقشان الموضوع ، وقال «أبى»: لابد أن نقرر.

أطاح بالغطاء بقوة، لدرجة أنه سقط على الأرض وقال: حسنًا، سأنزل وأعرف الحقيقة بنفسى. أنت تقولين شيئًا ثم تقولين عكسه. إذا كنت لا تعرفين شيئًا فالزمى الصمت حياله وكان على الدرج حينها، وقال: «سأنزل وأعرف الحقيقة».

سمعت «مارلى» «الأب» وهو يقول: يعرف ماذا؟

قالت لنفسها :لماذا انفعلتُ وقلت له أشياء غير حقيقية. على الأقل لم يتخذ فيها قرارًا بعد. أحيانًا تتقرر وأحيانًا لا. تبعت «چو» على الدرج وهى تتمنى لو أنها لم تقل كلمة واحدة.

سأل «چو»: هل سنبقى هنا طيلة الشتاء ونضطر إلى الذهاب إلى تلك المدرسة المضحكة كما تقول «مارلى»؟

استدارت «الأم» من الفرن الذى كانت واقفة أمامه، وسألته: هل قالت «مارلى» ذلك؟

كيف بالله طرأت تلك الفكرة على بالها؟

استدار «چو» إلى «مارلى» يوجه إليها نظرات اتهام وهى تدخل المطبخ، فقالت وهى تحس بحرارة وجهها:

«لقد سمعتكما تتحدثان فى هذا الشأن.. كنت نازلة و...».

قال «الأب»: تعالا واجلسا أنتما الاثنان، نظر إلى «الأم» واسترسل حديثه: قلت لك من الأفضل أن نحسم الأمر يا «لى»، والآن.

بدا الصراع على وجه «چو» المسكين مرة أخرى، لم ينظر إلى «مارلى» مطلقًا. «إذا كان «الأب» سيقرر أنه بخير هنا، بينما يمرض فى مكان آخر، فما الذى سيتبقى لكى نقرره؟».

قال «الأب»: لقد تعجلت «مارلى» كعادتها، إننا لم نقرر شيئًا بعد.. نحن أربعة، وهذا قرار مهم.

لذلك، أخذوا يناقشون الأمر على الإفطار، ولفترة طويلة بعده. أحضر الأب بطاقات تسجيل قديمة وشطب من عليها «نحن» و«هم»، ثم كتب نقاطًا مع البقاء ونقاطًا مع الرحيل.

لكنها لم تكن مثل البطاقات المعروفة على الإطلاق؛ حيث يوجد على كلا الجانبين نفس الرقم مما يجعل الأشخاص مقيدين به. كانت بعض النقاط أكثر أهمية من غيرها، حيث إن نقطة واحدة تسجلها «الأم» مثل: «الأب» أفضل حالاً فى تل «مابل»، تلغى أربعين نقطة على الجانب الآخر، كان الكل يدرك ذلك عندما كتب «الأب» تلك النقطة، يائسًا للغاية.

قال موجهًا كلامه لنا: الآن، تذكروا جميعًا، لا شىء أهم من المدارس والمزايا التى على الجانب الآخر، لكن هناك الكثير فى الجانب الخاص بـ تل «مابل». كانت أشياء سخيفة فى الواقع مثل «الحياة فى الريف أرخص، آل «كريس»، الحياة على معاش الحكومة وعدم اضطرار «الأم» للعمل». فكرت «مارلى» فى اقتراح معجزات بالنسبة لذلك الجانب، لكنها خافت ألاَّ يدركوا قصدها، ولم تكن متأكدة أيضًا من قدرتها على الشرح.

عندما بدأ التصويت، أدرك «چو» أن المدينة ليس لها فرصة على الإطلاق، وبدا كأنه يرى بوقه والمدرسة الكبيرة الراقية تطفو بعيدًا، لكنه كان يتمتع بروح رياضية دائمًا، بل إنه فى الواقع أعطى صوته إلى البقاء فى تل «مابل»، رغم تردده وتردد الاختيار فى حلقه. ثم خرج واختفى فى الطريق.. تساءلت «مارلى» إن كان سيبكى فور أن ينفرد بنفسه، هى يمكن أن تبكى، لكنها خمنت أنه لن يفعل.

كان «الأب» واقفًا عند باب المطبخ يراقبه وهو يبتعد، قال: هذه السنة فقط، بعدها سأكون مستعدًا للعودة إلى وظيفتى القديمة، أنا متأكد من ذلك.

أحسَّت «مارلى» برغبة فى أن تجرى وراء «چو» وتحكى له ما قاله «الأب»، لكنها قررت أن تنتظر. إن كان لابد له أن يبكى، فلن يحب أن يراه أحد وهو فى هذه الحالة.

لذا أسرعت إلى آل «كريس» تخبرهم بالقرار المهم. كانوا كلهم سعداء بالخبر. أمسكها السيد «كريس» ودار بها وهو يضحك. قالت له «كريسى»: ««كريس»، انتبه! وضحكت هى الأخرى، بدأوا الحديث عن كل الأشياء الرائعة التى حدثت فى الشتاء فى تل «مابل» وكيف كان عيدا الشكر والميلاد على أروع ما يكون، وكيف حصلت «مارلى» و«چو» على حِصان يجر لهما تلك الزلاّجة الصغيرة الظريفة.. قال السيد «كريس»: يستطيع «چو» أن يطليها باللون الأحمر مثلما كانت، وسأنزع الأجراس من زلاجتنا القديمة، ستدركون أنكم فزتم بجائزة «عيد الميلاد».

قالت «مارلى»: سأخبر «چو» بشأن الزلاجة، إنه يشعر بالتعاسة من فكرة تلك المدرسة الغريبة.

نظرا كلاهما إليها مندهشين. احمر وجه السيد «كريس» أكثر من المعتاد، ثم قال: ماذا؟ إنها مدرسة جيدة، إن لدينا مدرسة محترمة كغيرها من المدارس فى هذا البلد، إننى أصدقك القول، وهى كبيرة أيضًا، وتزداد اتساعًا كل يوم.

ارتبكت «مارلى» فى بادئ الأمر، ثم اتضح من الحديث أن «چو» لن يذهب إلى تلك المدرسة الصغيرة، التى بجوار المقبرة على الإطلاق. إن «چو» فى الثانية عشرة، لذا سيذهب بالحافلة إلى المدينة.. تساءلت بشغف: هل لديهم فريق موسيقَى؟

- «فريق موسيقَى!» أقول للعالم كله إن لديهم فريق موسيقَى. إن كان «چو» يريد ذلك ! فسيحب هذا الفريق، إنهم يعرفون بزيهم الأحمر والذهبى أثناء عزفهم فى كل مباريات كرة القدم، والعام الماضى اشتركوا فى مسابقة وحققوا مركزًا مرموقًا.

استبدت بـ «مارلى» رغبة عارمة فى أن تحكى لـ «چو» عن المدرسة وعن فريق الموسيقى، فأخذت تعدو طوال الطريق إلى البيت، لكن «چو» لم يكن موجودًا، إنه حتى لم يعد عند الظهر لتناول الغداء.

قال «الأب»: أتعرفون؟ لن أندهش إذا علمت أنه ذهب لزيارة صديقه

«الناسك». أليس هذا بشيء عجيب حقًا، تلك الطريقة التى أحب بها هذا الرجل؟! فقالت «مارلى» لنفسها: إن صوت «الأب» لا أثر به للغيرة.

قالت «مارلى»: إن «چو» يساعده فى أمور النحل والماعز، كما أنهما يبنيان سورًا رائعًا.

قالت «الأم»: ليته يرجع، على الأقل ليأكل، وأخذت تتطلع من النافذة إلى أسفل التل تجاه الطريق الخالية، لكن لم يكن له أثر.

قال «الأب»: هناك أشياء أفضل من جبن الماعز، ومن العسل، يقول «كريس» إن «هارى» أحسن من يخبز «خبز الغجر».. بعد الانتهاء من غسل الأطباق، تسللت «مارلى» ومشت إلى حيث يعيش «هارى». بمجرد أن دخلت المنعطف الثانى، كان بمقدورها رؤية أن «چو» هناك.

كان هو و«هارى» منهمكين فى تشييد السور الصغير من عيدان حادة الأطراف، حول البيت ربطوها إلى بعضها بواسطة أغصان الصفصاف المتشابكة. أخبر «چو» «مارلى» عن السور. كان سورًا كالذى كان يصنعه الهنود المكسيكيون، مع اختلاف بسيط هو أنهم كانوا يصنعونه من نبات الصبار الذى عند إزهاره تتفتح عليه زهور حمراء زاهية.. قال «هارى» إن سوره ستكون له جذور تحت الأرض وتنمو عليه أوراق خضراء فى الربيع.

رآها «چو» وهى قادمة، وقبل أن تنطق بكلمة عن المدرسة أو عن فريق الموسيقى أو أى شىء كان يصيح بما لديه من أخبار: «مارلى»؛ خمنى! سآخذ عنزتين إلى البيت فى الشتاء.

لماذا يا «چو»؟ لن توافق أمى.

قاطعنى بغضب قائلاً: لماذا لن تسمح لى؟ إن كنا سنعيش فى الريف، فيجب أن نتعلم كيف نتدبر أمرنا. إن «هارى» يعلمنى كيف أحلب وكيف أفصل اللبن لصنع الجبن والزبد وكل شىء، هل دار بخلدك أننى سأظل طوال الشتاء أروح وأجىء أطلب اللبن من آل «كريس».

كان «هارى» جالسًا على الأرض وهو يعمل على جعل أطراف العِصى المستخدمة فى السور حادة. تطلع إلى «مارلى»، وكانت لحيته الرمادية تهتز وهو يضحك، قال: إن «چو» على حق. يجب أن تعدّى كل ما تحتاجين إليه قبل أن يبدأ الشتاء بالفعل. عندى لكما شىء أيضًا، وسوف يصنع لهم «چو» سورًا مثل هذا ليشيدوه حول المنزل، لكنه سيكون أعلى كثيرًا.

وظهرت الدجاجات، فقال «هارى» لـ «مارلى» إنه كان لديه دجاج كثير، ويجب عليهما أن يأخذا ثمانى على الأقل، اليوم.. الآن، كان قد أعد قفصًا جميلاً بأحبال محكمة من كل طرف، قدمه لهما كهدية ليحملا فيه الدجاج. قال «هارى» لـ «مارلى»: ستهتمين أنت بهذا الدجاج، كل فرد فى المزرعة يجب أن يهتم بشىء حى ومفيد.

لم تكن «مارلى» قد جرؤت من قبل على النظر مليًّا إلى وجه «هارى»، لكنها الآن كانت تنظر مباشرة فى عينيه، كانتا حادتين وزرقاوين، لكن كانتا براقتين تدلان على نَفْسٍ تعرف الحنان.

كان شيئًا غريبًا، لكن «مارلى» انشغلت بأمر الماعز والدجاج حتى أنها نسيت ما كانت بصدد قوله لـ «چو». لم يكن المكان مناسبًا لها، لكن «چو» أخذ يطلعها على شىء فى الوادى الضيق الذى يقع بين جبلين.. ففى غرب التل الذى يعلو منزل «هارى»، كان قد بنى ثلاثة سدود صغيرة رائعة، كانت مصنوعة من أحجار كبيرة مسطحة أو صنعت بإحكام بجوار بعضها البعض. كانت جميلة، كحوائط حجرية بديعة، وعليها وبجانبها تنمو أشنات. كان كل ما حول منزله عبارة عن مربع صغير.

مساحات محاطة بأسوار؛ لإبقاء الأرانب بعيدًا، ولإتاحة هذه الفرصة نفسها للخضراوات والأزهار. أمام الباب وجدت مجموعات من الزيزينيا والأقحوان الأصفر والراوند.

كان المكان الذى يقوم فيه بقطع الأخشاب لطيفًا. اتخذه «هارى» تحت أكبر شجرة بلوط شاهدتها «مارلى» فى حياتها. كان هناك حصان النشر، وكذلك ثلاثة

أكوام من الخشب المختلف الأحجام. إحداها كبيرة والأخرى متوسطة والثالثة صغيرة لإشعال النار. لكن كانت كلها موضوعة بعناية ونظام. كان الصديق الغريب «هارى» متعبًا فى ذلك اليوم، فجلس مستندًا إلى مسند خشبى، قال إنه نحته من شجرة صغيرة، وإنه يناسب كتفيه تمامًا.

وكان مغطى بنقوش جميلة.. كان كل شىء مشغولاً بنقوش جميلة حتى الدعامات حيث كانت الماعز تضع رءوسها والمرابط فى المخزن الصغير. كانت هناك منصة صغيرة شكلها غريب يقفز إليها الماعز حتى يتمكن «هارى» من حلبها. وكان لكل عنزة اسم من أسماء الشخصيات التى ألفها شكسبير.

قال «چو»: لقد أطلق عليها «روزالين» و«أودرى».

كانت السلاسل الخشبية فى كل مكان، من الكبيرة المستديرة ذات الروابط المستديرة كرأس «مارلى» إلى الصغيرة جدًّا لدرجة أن «چو» كان يستعملها ليضعها علامة على الصفحة التى وقف عندها، فى الإنجيل الخاص به.

وعندما غربت الشمس، أخذها «هارى» إلى أعلى المرج حتى تنظر من خلال التلسكوب. كان التلسكوب موجهًا إلى البرْكة حيث يسبح البط، قال: يأتى البط الأسود والبط البرى كل يوم، وعندئذ سنحصل على لحم طيب. أدار عدسة التلسكوب ناحية المرج أيضًا وشاهد طيور التدرج، تروح وتجىء.. وبالكاد، استطاعت «مارلى» أن ترفع عينيها عن التلسكوب. إن مشاهدة طائر خلال هذا الأنبوب الطويل يجعلك تشعر وكأنك تتمشى معه. كانت ترى الطوق الأبيض حول رقبته وخصلات الشعر البيضاء على أذنيه ، والشمس تسطع عليه وهى تميل نحو المغيب، وعشرات الألوان تتراقص على طرف ذيله الطويل المنتصب.

ابتسم «هارى» عندما رآها تتراجع أخيرًا وقال لها: تصورى.. أحيانًا يسألنى الناس إن كنت أشعر بالوحدة هنا!

كان يبدو سؤالاً سخيفًا جدًّا. كان لديه ست من الماعز وخمس خلايا نحل، وسرب من الدجاج ، وآخر من الإوز، وزوج من طيور الكاردينال التى استقرت

قرب بيته. كانت هناك أرانب تأتى لتأكل من يديه، وغزلان تأتى لتشرب عند سدوده كل صباح ولا تهرب إذا ما حدثها. كان هناك المرموط(*)، وراكون(**)، والسناجب، وسناجب الصدنانى(***).

كانت هناك بومة يحادثها بالليل، وكان هناك زوج من طائر السنونو. كانت لديه طيور التدرج وطيور الطيهوج(****). كان هناك البط فى البركة، والسمك خلف السدود. كانت هناك كتاكيت، ضفادع، ناهيك عن العنكبوت حيث كان هناك الآلاف من صغارها على نوافذه. أراها أنثى عنكبوت تحمل أربعة أكياس بيض وهى تتهادَى على منضدته، بينما يراقبها وهو يأكل. وكذلك هناك السوس والفراشات والخنافس والسحالى وسمندل الماء.

قال «هارى»: «عصافير الدورى» لا تفارق المكان.

قال «چو»: و«الثعابين».. قال ذلك؛ لأنه يعلم كم تخاف «مارلى» منها، لكنه أضاف بسرعة: «مارلى»، انتظرى حتى ترى الماعز. سوف توافقيننا على أنها الأحسن فى المنطقة كلها. كان ما قاله حقًا، كان وجه كل عنزة مختلفًا كالاختلاف بين البشر. كأن الواحدة منها تنظر مباشرة فى عينيك، كان الفضول سمة مشتركة فيما بينها. كانت هناك ثلاث عنزات متوسطة الحجم، وكم كان لطيفًا وكوميديًا مشاهدة الطريقة التى تحب بها «هارى» وتقبل عليه. حاولت الاقتراب منه؛ كى تتمسح به عندما دخل المخزن، مدت جسمها وصدر عنها ثغاء وهى تمد عنقها لتحظى بلمسة بسيطة على الأنف.

وعندما سمح لها بالخروج، قفزت واندفعت تجرى وتقفز كل حواجز المرج. وكانت تتطلع حولها من فوق كل مرتفع صغير، كما لو كانت تملك العالم.

سألها «چو»: هل تعرفين يا «مارلى» أن «هارى» عاش فى إحدى المدن لمدة خمسين عامًا؟ لقد أخبرنى ذلك عندما حضرت هذا الصباح.

(*) المرموط: حيوان من القوارض.

(**) الراكون: حيوان ثديى من اللواحم يعيش فى شمال أمريكا.

(***) الصدنانى: سنجاب أمريكى صغير مخطط.

(****) الطيهوج: طيور من رتبة الدجاج.

سمعه «هارى»، فقال: لقد بقيت هنا بسبب السيد «كريس».. كنت قد سئمت العالم بأسره، وكانت زوجتى قد هجرتنى. لقد خُضت حروبًا مع القوات المسلحة، وفى الشوارع عند عودتى للوطن، وحتى فى بيتى. لقد سئمت الصراع مثلما يقول «چو» عن والدك. لذا فى أحد الأيام، وضعت متعلقاتى فى كيس كبير وبدأت أمشى كأى شريد.. ذات صباح وصلت إلى هذه الطريق، كنت مستغرقًا فى التفكير عن البشر، وكنت جائعًا، ثم فجأة رأيت ذلك الرجل يعمل فى حقل هناك، أسفل المكان الذى عنده السد الآن، توقفت عنده وبدأنا نتحدث معًا.

وجه «هارى» نظرة تجاه البركة، وعلى الوادى الأخضر بأسره بحقول الكرنب الزرقاء المربعة والمروج التى تتخذ لونًا بنيًّا هنا وهناك استمر «هارى» يقول: كان أول خاطر قد دار بعقلى هو أن ذلك الرجل يبدو كشجرة.. كان يبدو واقفًا وقدماه مزروعتان فى الأرض.

قالت «مارلى» وهى تشعر بانتصار: وهذا ما فكرت فيه أيضًا.

قال «هارى» وهو يضحك: إن أشياء كهذه تحدث فى الحكايات القديمة، ربما كان شجرة فعلاً.. سألته إن كان يريد من يعاونه فى عمله طيلة الشتاء؛ لأننى كنت محتاجًا لوجبة عشاء. وهكذا بقيت تلك الليلة، ثم اتضح أنه يحتاج لمن يعاونه طيلة الشتاء، فقد كان الرجل المعاون له قد رحل.. وبعد سنة، أعطانى هذا المنزل لأعيش فيه، ثم اشتريت قطعة أرض صغيرة من الجبل المحيط به.

سألته «مارلى» مندهشةً: هل كل شىء صالح يعود للسيد «كريس»؟ كان قد قدم أول زوج من الماعز لـ «هارى»، وأمده بأول دفعة من الدجاج، ثم قالت «مارلى»: أبدًا لم يذكر كلمة واحدة عما فعله من أجلك.

قال «هارى»: عندما تقومين بالكثير من الأشياء العظيمة، تنسين أن تتحدثى عنها. إن من يقوم بمجهودات ضئيلة وتافهة هو الذى يملأ الدنيا ضجيجًا عن بطولاته.. كان لايزال واقفًا ينظر تجاه الطريق، وتجاه بيت السيد «كريس» الكبير الجميل.

قال: لقد تقدمت بى السن، بحيث لم أعد أنفعه حيث يعيش، لكننى أردت أن أبقى وأعيش هنا؛ لذا أرسلت فى طلب كتبى وسكاكينى. عما قريب سيكون قد مضى عشرون عامًا فوق هذا التل. إن الأمر يبدو تمامًا ـ كما قال الكاتب الكبير «ثورو»: لماذا أستكشف العالم، بينما هناك الكثير لم يستكشف بين تلك الطريق وعتبة دارى؟!

كان موكبًا غريبًا ذلك الذى قطع الطريق عند الغروب.. قاد «هارى» العنزتين حيث علق حول رقبتيهما أكاليل زهور من عصا الذهب(*) والأسطر البرى(*) حتى يجعله «موكبًا ملكيًا»، كان «الناسك» والعنزتان يحملون حزمات من العصى المستخدمة فى بناء الأسيجة من أجل أن يبنى «چو» حظيرة الدجاج الخاصة به.

وكان «چو» و«مارلى» يحملان قفص الدجاج، ويجتهدان ألا يَرُجّاه كثيرًا من جانب لآخر.. ومع ذلك، فقد أخذ الدجاج يصيح طوال الطريق ويخرج رأسه من فتحات القفص ليشكو.

ماذا ستظن «الأم» و«الأب»؟.. بالضبط كما توقعت «مارلى» تمامًا.. فقد خرجا من المنزل عندما سمعا الموكب يقترب. كانا هناك واقفين يتابعان هبوطهم التل. لحظتها فقط، تذكرت «مارلى» فريق الموسيقى والمدرسة.



(*) عصا الذهب: نبتة ذات زهيرات صفراء.

(*) الأسطر البرى: زهرة النجمة.

قالت: «چو»، يقول السيد «كريس» إننى سأذهب إلى المدرسة الصغيرة، أما أنت فلا. أنت ستذهب إلى المدينة، أنت ستذهب إلى مدرسة كبيرة بها فريق موسيقى كبير يرتدى زيًا ذهبيًا وأحمر ويحصد الجوائز، ويمشى فى مواكب الاحتفالات.

بدا أنه بالكاد يسمع، كان نظره مع «هارى» وهو يقود العنزتين «روزالين» و«أودرى» ويدخل بهما من باب المزرعة، قال: إن «هارى» سيلقى خطبة.

وبالفعل كان ذلك، حيث وقف ممسكًا بقبعته المجعدة فى يده وكأنه رجل يقدم باقة ورد إلى سيدة عظيمة، قال: حكى لى أبى أن فى موطنه عندما كان الجيران يأتون بغرض البقاء، كنا نعطيهم اللبن فى العشاء والبيض للإفطار، وبما أنكم قررتم البقاء فى تل «مابل»، فقد أحضرنا لكم هدايا لنعبّر لكم عن سرورنا بقراركم.

عقدت الدهشة لسان «الأم»، ولم يستطع «الأب» أن يرد بغير «حسنًا.. حسنًا.. حسنًا» وهى كلمات لا تعادل خطبة بالطبع. بدأ الماعز يثغو سعادةً، وأخذ الدجاج يتبادل أطراف الحديث.

سأل «چو»: هل تريدون رؤيتى وأنا أحلب؟

كان «چو» بالفعل يستطيع الآن أن يحلب اللبن ويجعله يتدفق إلى الدلو. نظرت «الأم» إلى «الأب» واستطاعت «مارلى» أن تقرأ أفكارها، وسألته: هل تعتقد أنه إذا بقينا فى هذه المنطقة سيكون لـ «چو» مثل هؤلاء الأصدقاء غريبى الأطوار.

لكن «الأب» لم يكن ليستطيع أن يرفع عينيه عن «چو».

فجأة، قال: سيد «هارى»، هل تعتقد أنه بإمكانك البقاء للعشاء ؟

سر «چو» سرورًا كبيرًا، لكن «مارلى» لم تخفِ سرورها عندما قال «هارى» إن عليه أن يسرع إلى بيته لحلب الماعز وإطعام الدجاج والإوز، ذلك لأن «الأم» بدت مريضة بعض الشىء.

لاحظ «چو» أيضًا، فقد قال لأمه بعد رحيل «هارى»: انتظرى حتى تعرفيه حق المعرفة، إنه أروع رجل فى العالم.

قالت «مارلى»: بعد السيد «كريس».

خطرت لها فكرة فى نفس اللحظة التى ومضت فيها فى عقل «چو» فهتفا معًا: «بعد أبينا»، ثم شبكا إصبعيهما الصغيرين، وهذا ما يفعله شخصان قالا نفس الشىء وتمنيا نفس الأمنية فى لحظة واحدة.

والأمنيات لا يتم الإفصاح عنها، لكن «مارلى» أدركت من نظرة «چو» أمنياته بشأن القرار المهم، وكذلك كانت أمنياتها.

10 «چـو» يقوم بعمل نبيل فى «عيد الميلاد»

لو رأيت تل «مابل» لظننت أن حريقًا قد شبَّ به.

فى كل اتجاه، كانت الأشجار حمراء وصفراء. وعندما أشرقت الشمس فجأة مخترقة السحب العاصفة، كان سطوعها أشد مما يمكن أن تتحمله «مارلى»، وبدا أن الاحمرار يأتى من داخل كل شجرة بطريقة مذهلة، بنفس درجة الاحمرار التى رأتها عبر يدها عندما وجهتها إلى الشمس، وكان الاصفرار يلمع كخيوط الذهب أو الشعر الأشقر، وعندما تلاعبت الريح به كانت ومضات من الذهب تسقط على حواف الحشائش.

يا له من عالم رائع! كل صباح فى تل «مابل» كانت «مارلى» تستيقظ على معجزة قرمزية وذهبية.

قالت للسيد «كريس»: هذا أفضل أوقات السنة، فهز رأسه قائلاً: لكنه قصير جدًا يا «مارلى»، وهذا يعنى أن الشتاء على الأبواب وبالنسبة لى، الربيع هو أجمل أوقات العام.

شعرت «مارلى» أن صوته ينبئ عن حزن فتساءلت: كيف يمكن لأى إنسان أن يحزن وهو وسط هذا الجمال؟

كان مبنَى المدرسة القديمة ينتصب وسط نبات القيقب الأحمر، وكان أول شىء طلبته المدرسة من التلاميذ هو أن يرسموا أوراق القيقب. سُرَّت «مارلى» إذ كان هذا

طلبًا بسيطًا، يتيح لها أن تلقى نظرة على باقى التلاميذ حولها. كان غريبًا أن تجد نفسها فى فصل به تلاميذ من الصف الأول، والصف السادس ومن باقى الصفوف.. كان هناك ثلاثة أولاد وبنتان فى فصل «مارلى». قالت المدرِّسة: حسنًا، الآن انضمت إلينا «مارلى» وسيكون على الأولاد أن يصبحوا مهذبين.

كانت المدرِّسة مرحة وبدينة، كان اسمها الآنسة «بركنسن» وهو اسم وقْعُهُ لطيف على الأذن، هكذا ظنت «مارلى». كانت أكثر إنسان رأته «مارلى» فى حياتها منشغلاً بأشياء عديدة. تخيل - كان عليها الإلمام بالمقررات الدراسية للمراحل الست.. كل شهر، كانت تأتى مكتبة محمولة إلى فناء المدرسة، وكان السائق فتاة جميلة حمراء الشعر، وكانت تترك أكوامًا وأكوامًا من الكتب.

فى بداية الأمر، لم يتحدث «چو» كثيرًا عن المدرسة. لم يكوّن صداقات بسرعة، وكان يفتقد أصدقاءه فى المدينة. لكن بعد أسبوعين، نزل من الحافلة ذات يوم ومعه بوق يلمع، جرى مسرعًا نحو التل، وبمجرد أن وضع كتبه بدأ العزف. كان قائد فريق الموسيقى قد أعطاه درسًا بالفعل، وكان معه كتاب صغير يتطلع إليه وهو يعزف. ظل يعزف ويعزف ويعزف حتى قالت الأم إن السقف سينهار على رءوسنا قبل موعد العشاء.

قال «الأب»: اسمع يا «چو»، لقد أتينا إلى الريف؛ كى نستمتع بالهدوء. وضحك بعد أن قالها، وعندما انتهى «چو» من العزف أخيرًا – حتى يستطيع أن يتناول عشاءه – تناول «الأب» البوق وبدأ يعزف بنفسه، أصبحت وجنتاه كبالونتين واحمرّ وجهه، ولكنه لم يصدر أى صوت من الآلة، وكان على «چو» أن يعلمه كيف يفعل ذلك.

وكذلك شرح لـ «مارلى» كيفية العزف، ثم أخذ يعزف حتى قالت «الأم» بحزم إنه يجب أن يأوى إلى فراشه. كان قائد فريق الموسيقى قد أخبر «چو» أنه إذا تعلم العزف جيدًا، فإنه سيشترك فى استعراض الفريق السبت التالى مباشرة..

والتزم بوعده.

كان هناك استعراض فى المدينة بمناسبة «السوق الموسمية» وذهب الجميع إليه. ذهب كل التلاميذ فى مدرسة «مارلى»، كما ذهب الناس الذين يعيشون على بُعد أميال من كل اتجاه. ذهب أهل المقاطعة كلهم إلى المهرجان، وأخذ كل منهم معه أحسن ما صنعه فى تلك السنة. كان ذلك أجمل منظر وقعت عليه عينا «مارلى»، باستثناء روعة المناظر الطبيعية. حمل السيد «كريس» معه ثمرة قرع عسل ضخمة، وكوز ذرة ضخمًا جدًّا، وحزمة من عيدان الذرة كانت طويلة لدرجة أنها طالت سقف غرفة العرض. أخذت السيدة «كريسى» معها «علب ذرة وخوخًا وكرزًا»، كما أخذت أنواعًا مختلفة من الچيلى، وكذلك كعكة بيضاء كبيرة رائعة. كانت «مارلى» فخورة بالشرائط الزرقاء العديدة التى فاز بها آل «كريس»، بالإضافة إلى شريط أحمر أو شريطين. اصطحبت السيدة «كريسى» معها أيضًا باقة كبيرة من زهور الأقحوان التى تزرعها بنفسها، ذات لون ذهبى وكبيرة الحجم بحجم طبق العشاء، وداعبها السيد «كريس» لما رأى كبر حجم باقة زهور الأقحوان.

وكانت هناك الأرجوحة الدوَّارة، وجميع أنواع الأكشاك، وألعاب وأطعمة من كل نوع. لكن أفضل جزء فى المهرجان، كان منظر «چو» وهو يمشى بخطوات منتظمة مع فريق الموسيقى.

لم تلحظ «مارلى» من قبل، كم هو فتى مهندَم ووسيم، فقد كان يرتدى قبعة صغيرة يتأنق بها وعلى كتفيه أشرطة صغيرة ملونة.. يا إلهى! عندما رأته يرفع البوق ليبدأ العزف، انتابها القلق، بالطبع لم تقل ذلك لأحد، لكنها خافت أن يأتى عزفه نشازًا فيفسد عمل زملائه، لكن امتزجت الضجة الصادرة عن عزفه مع بقية أشكال الضجيج الأخرى، وهكذا لم يلحظ أحد. كانت الضربات على الطبلة وأنغام البوق كلها رائعة. كان «چو» يمشى بخطوات منتظمة وهو يعزف، حتى ليخيل لمن يراه أنه يفعل ذلك فى حياته اليومية.

عندما مرَّ «چو» من أمامهم فى العرض ، بدأت «مارلى» و«الأم»، وآل «كريس»

و«فريتز» جميعًا يصفقون. احمرَّ وجه «چو»، إلا أنه تماسك وابتسم ابتسامة عريضة وهو يمر من أمامهم، ثم بدأ يعزف ثانيةً.

كان ثانى شىء أحبته «مارلى» فى هذه «السوق الموسمية» هو ذلك المكان الذى تجمعت فيه الحيوانات، فقد أحضر الجميع معهم أفضل حيواناتهم أيضًا، وأحسن طيورهم، وبقى الأولاد والبنات بجوار المرابط ليناموا. كانت هناك فتاة من مدرسة «مارلى» معها عجلان صغيران قامت بتنظيفهما وتسوية شعرهما، كما لو كانا طفلين فى طريقهما إلى مدرسة الأحد، وقد فازت بشريط أزرق جميل وكذلك شريط ذهبى.

كان ترويض الخيول أكثر متعة من الأرجوحة الدوَّارة. فلم تر «مارلى» خيولاً بهذا الحجم من قبل. كانت هناك أمهار صغيرة وأبقار جميلة، مثل التى كانت لها مشاكل عديدة معها (فكانت تمشى بحرص بجوار «الأب» وهو يتفقدها)، ورأت أضخم أنواع البط والإوز، ودجاجًا عجيب المنظر له عُرف على رأسه وكعوب لأقدامه.

ورأت أرانب وخنازير وكل ما يخطر على البال واستمر «الأب» يقول: حسنًا، «لي»، إننا لم نبدأ بعد فى أن نكون مزارعين حقًّا، أليس كذلك؟

قال السيد «كريس»: إن أحسن وظيفة فى السوق الموسمية كانت من نصيب الحكام الذين يتذوقون كل شىء: الكعك، والفطائر، والخبز أو المعجنات المخبوزة، لكن مستر «كريس» قال: إن أظرف ما فى الموضوع هو صالة الألعاب الرياضية التى تُعْرَض فيها الزهور، كانت أشبه بحديقة كبيرة مغطاة.

كان السوق بأسره فى مدرسة «چو»، وبدا أنه يملك كل شىء وهو يتجول بعد انتهاء العرض الموسيقى.

سمعت «مارلى» «الأم» تقول لـ «الأب»: الحمد لله أن «چو» سعيد فى تلك المدرسة.

كانت «مارلى» كلما ذكرت شيئًا عن مدرستها أثناء تلك الأسابيع الأولى،

وجدت «چو» يتصرف بكبرياء وتعالٍ. لكنها لم تهتم.. ففى العام القادم، ستركب الحافلة الصفراء الكبيرة معه، أما الآن فلم تكن مستعدة للتخلّى عن الآنسة «بركنسن» البدينة، ولا مسئولة الكتب حمراء الشعر نظير كل مدرّسى العالم، وكل الأبواق كذلك.

ثم بجانب كل هذا، كانت هناك «مارجى».

كانت «مارجى» تعيش على بُعد ثلاثة أميال فى نهاية الطريق، وسرعان ما توطدت أواصر الصداقة بينها وبين «مارلى»، كان اسماهما توأمين فى الجرْسِ الموسيقى تقريبًا، مما جعل «مارجى» تقرر أنه لابد دليل على شىء خاص.



فى أول يوم سبت بعد السوق، صنعتا بيتًا من أوراق الشجر فوق التل: حجرة حمراء، وحجرة صفراء، وأكوام من الأوراق لصنع الأرائك والمناضد. فى ذلك الوقت، كانت بعض أوراق الشجر تتساقط، وكانت بعض الأشجار قد بدأت تفقد أوراقها كلها، وبدت كهيكل بنى اللون بين كثير من الأغصان المتشابكة. كانت مفاجأة أن وجدتا الأشجار التى تحف الطريق، أشجار الجوز السوداء. كسرتا بعضه من أجل «الأم» وسرعان ما بعثت لهما معجنات طازجة وحليبًا.

يوم السبت التالى، كانت «مارلى» عند «مارجى» وصنعتا بيتًا على نجيل مستوٍ، وأرسلت إليهما والدة «مارجى» كعكة شيكولاتة.

السبت الذى يليه كان عيد ميلاد «مارجى»، وأهدتها «مارلى» خاتمًا؛ دليلاً على الصداقة.. كانت فكرة «الأم»؛ لذا أحضرت «مارجى» خاتمًا هى الأخرى عند عودتها إلى المدرسة الأسبوع التالى وقررتا أن تكونا صديقتين حتى نهاية العمر.

كان لـ «مارجى» ثلاثة إخوة ذكور.. بدلاً من واحد.. وذات يوم من أيام شهر أكتوبر، خرج الثلاثة يجمعون نبات عيش الغراب، قال السيد «كريس»: إنه كان عليه أن يفحص نبات عيش الغراب، قبل أن يكون باستطاعتهم إرساله إلى صاحب المطعم الذى يعبئه باستخدام موقد ضغط. إن نبات عيش الغراب يمكن أن يكون خطرًا لو لم تكن على دراية به. كان أحد أنواعه واسمه «الملاك المدمر» يسبب موتًا أكيدًا فى خلال أيام لمن أكله وهو لا يعلم ـ وهناك أيضًا نوع اسمه «كئوس الموت»، لكن كانت هناك أنواع جميلة ولذيذة الطعم وصغيرة تنمو فى المروج حيث مرعى الأبقار.. وكان العثور عليها يشبه لعبة «الاستُغُمَّاية» أو ربما أقرب إلى لعبة «مَنْ حصل على الزرار». كان بعضها بالكاد بارزًا مِن الأرض، جميل المنظر أبيض اللون يشوبه لون أحمر وردى مثل أعواد الشمسية. كان لكلٍّ شكل مميز مثل البشر.. فى كل مرة، كانت تقطف فيها «مارلى» واحدة كان يدور بخيالها أنها ستجد الجنية الصغيرة «تمبلينا» جالسة تحتها.

كان «چو» على حق بأنه يستطيع أن يكسب مالاً من «عيش الغراب» أكثر مما يكسبه فى أسبوع أو نحو ذلك من توزيع الجرائد فى «بيتسبرج». لكن موسم «عيش الغراب» كان قصيرًا كل عام. كانت الأم تصنع لنا عجة بيض بـ «عيش الغراب»، وشرائح اللحم بـ «عيش الغراب»، ودجاجًا بـ «عيش الغراب»، لذا سرّت «مارلى» إذ سمعت «چو» ذات صباح يقول وهو يدخل: لم تعد هناك نبتة واحدة من «عيش الغراب»، والأوراق الجميلة أيضًا، لم تمكث طويلاً.. وشيئًا فشيئًا، أصبحت الأشجار شبه عارية، فأصبح باستطاعتها رؤية أعشاش الطيور. لم يخطر ببالها أنها موجودة هناك.. ثم ذات مساء فى شهر أكتوبر، ازدادت قسوة الصقيع، كان «الأب» يغطى مزروعاته من الطماطم كل ليلة، وأحيانًا كانت بعض ثمار الطماطم تصلح للجمع فى ضوء النهار البارد.. أما تلك الليلة، فلم يترك الصقيع ثمرة واحدة. كانت كلها سوداء، وكما قال «الأب» مثل ورقة الكوتشينة «الآس البستونى». كانت الحديقة قبيحة المنظر والنباتات قصيرة وغليظة، كانت الزيزينيا التى زرعتها «الأم» واقفة حزينة وقد كساها اللون البنى وكان لها حفيف كالقش الذى تذروه الرياح.

لم يكن باديًا على «الأب» أنه مهتم كثيرًا بأمر الحديقة؛ لأن موسم الصيد كان على وشك الابتداء.. كان فيما مضى، يُمضى وقتًا طويلاً فى الموسم.. أما الآن، فإنه عمليًا يصطاد ما يحتاج إليه.

لم تقل «مارلى» ذلك لـ «الأب»، ولا حتى لـ «چو»، لكنها كانت تكره موسم الصيد. كانت تكره أن تدخل المنزل فترى أكوامًا من الريش الزاهى لطائر التدرج المحنطة، وجثثها الطويلة النحيلة، رغم أنها كانت تنسى كل ذلك على مائدة العشاء وتأكل منها ما شاءت. لم يكن حديث الرجال إلا عن الصيد، كيف ذهبوا هنا وهناك، كيف أصابوا وكيف أخطأت الطلقة هدفها، وكيف تصرفت كلابهم كل صباح. كان صوت طلقات البنادق زائرًا يوميًّا فى أذن القاطنين خلف النوافذ فى بيوتهم فى تل «مابل»..

ثم سقط الثلج.

بدأ بزخّات بسيطة متكاسلة ذات يوم من أيام شهر نوفمبر، بينما «مارلى» فى طريقها إلى المدرسة، لمست الأرض ثم اختفت، لكن بدأ انهمارها يزداد بحلول المساء. كانت ترى الأرض من خلال النوافذ وقد كساها لون أبيض ضبابى.

فى الصباح، كان تل «مابل» مكانًا مختلفًا تمامًا، قالت «مارلى» لنفسها: لقد كانت الأرض بنية اللون، ثم كستها الخضرة، ثم لون أصفر، ثم ذهبى والآن أبيض. لو كان عليها أن تختار لونًا، فماذا تختار، تحيرت «مارلى»!

سألت «الأب» و«الأم» و«چو»، ماذا يختارون؟

كان رأى «چو» أنه سؤال سخيف؛ لأنهم ليسوا مضطرين للاختيار، لكن «الأب» اختار الأخضر؛ لأجل حديقته الجميلة واختارت «الأم» الأحمر والأصفر.

سألها «الأب»: وأنتِ ما اختيارك يا «مارلى»؟

تطلعت «مارلى» من النافذة، كان المنظر جميلاً وساحرًا. كان منظر الأغصان أشبه بالدانتيلاّ، والأشجار مثقلة بالثلوج وفجأة، اندفع طائر أحمر زاهٍ لونه وحطّ على الشجرة الصغيرة المجاورة لنافذتها.. إنه طائر الكاردينال! إنه نفس الطائر الذى كان السيد «كريس» يحادثه. كان قد نصحها أن تضع طعامًا قرب النافذة وستأتى الطيور طيلة الشتاء. لقد كان ما قاله حقيقيًّا فى تلك اللحظة، أفضل معجزة على الإطلاق.

قالت: لقد اخترت الآن.

فى ذلك اليوم بعد الظهر، عرفت أنها على حق.. جاء السيد «كريس» على زلاجته مع حِصان إضافى مربوط بالخلف. وجدت هى و«چو» زلاجة قديمة فى الجرن، ووجدا الأجراس فى غرفة عدّة الخيل، ذهبا حيثما شاءا، يتصايحان ويرشان الثلج على بعضهما، مثلما كان يفعل الناس فى تلك الأغنية القديمة التى تقول: *«أجراس تشخلل»*.

إذا كان هناك شخص لا يعرف فى أى شهر من شهور السنة، لعرف ذلك من

نوافذ المدرسة.. أنزلت الأوراق الملونة وحل محلها وجوه ظريفة تشبه ثمار قرع العسل، وعُلقت رسوم لديكة رومية ملونة: بنى وأسود وأحمر زاهٍ. انتهى عيد الشكر وجاء الدور على «بابا نويل».

قالت «مارجى»: ليتنا نحتفظ بـ «بابا نويل» حولنا طيلة العام.

وافقتها «مارلى»، إلى جانب الإجازات والهدايا وكل شىء، كانت كأنها تمتلك ثلاث أشجار عيد ميلاد؛ لأنها ساعدت فى عمل ثلاث: شجرتهم فى المنزل، وشجرة المدرسة، وشجرة آل «كريس».. طلبت «الأم» أوراق الزينة القديمة، وكان شيئًا ظريفًا أن تحل أربطتها. كان هناك، بالإضافة إلى الخيوط الملونة والدُّمى الصغيرة، زينة خاصة يصنعونها. كان أحدنا ببساطة يخرج ويجمع ثمار جمِّيز، وثمارًا مخروطية من كل حجم ويأتى ويطليها بلون ذهبى ويعلقها على الشجرة بأشرطة «عيد الميلاد».

قالت «الأم»: إن التسوق لم يكن ممتعًا بهذا الشكل فى يوم من الأيام؛ لأنها كانت تذهب إلى المدينة وتشترى ما تريد بدون التنقل من محل إلى آخر.. فى يوم، خرجت مع السيدة «كريسى»، وسمعتها «مارلى» تقول لـ «الأب» بعد العشاء: لا مصاعد مزدحمة! ولا أجراس اصطناعية ولا أجهزة تنبيه مزعجة، ولا آلات تنبيه تخترق صمت الليل وهى تنطلق من الأتوبيسات، والتّرام.

ضحك «الأب» وهو يقول: «لي»، لقد كنت فتاة المدينة، جرت «الأم» إليه وجلست على حجره وضحكت، شعرت «مارلى» بسعادة غامرة كأنما حل الكريسماس فعلاً. كانت تعرف أنه لا توجد خطورة هذا العام تجعل «الأب» يمتنع عن إضاءة شجرة «عيد الميلاد».

سألت «الأم»: أين «چو»؟ بوسعه أن يساعدنى فى إخراج الأشياء من السيارة بشرط ألا يضغط على الصناديق، ولكن «چو» لم يكن موجودًا، لم يكن بالبيت أو المخزن أو عشة الدجاج أو أى مكان آخر.

تذكّر «الأب» أنه سمعه يُخرج حذاءه ذا الرقبة بعد العشاء، فقالت له «الأم»: لماذا لم تسأله عن وجهته؟ لقد بدأ الثلج يسقط ثانيةً.

قال «الأب»: في «عيد الميلاد»، لكل شخص أسراره. ولمدة أسبوعين قبل «عيد الميلاد» لا ينبغي لأي أحد أن يسأل أحدًا عن وجهته.

كان ذلك صحيحًا، لكن عندما ازدادت الظلمة بالخارج، وأخذ الثلج ينهمر أسرع فأسرع، ظلت «الأم» تتطلع إلى الطريق عبر النافذة. سألت: هل أخذ معه كشّافًا؟ ما كان يجب أن يخرج في طقس كهذا، إنك لا تستطيع أن تعرف أبدًا ما الذي يمكن أن يحدث، هل كان عند آل «كريس» عندما مررت عليهم ولم أره؟

طلبتهم في الهاتف، لكن «چو» لم يكن هناك.. لم يكن هناك أحد على الإطلاق.

تأخر الوقت أكثر وأكثر، وكان من المفترض أن تأوى «مارلى» إلى فراشها، لكنّ أحدًا لم يلحظ ذلك، سألها «الأب»: «مارلى»، ألا يذهب «چو» أحيانًا مع إخوة «مارجى»، أليس محتملاً أن يكون هناك؟

لذلك اتصلت «الأم» ببيت «مارجى»، فعرفت أن «چو» لم يزرهم.

قال «الأب»: من الأفضل أن أخرج وألقى نظرة مرة أخرى، سألته «الأم»: أين ستلقى نظرة؟ على الطريق في الاتجاهين؟

سأل «الأب»: أيًّا ما كانت الفكرة التى سيطرت على «چو» وجعلته يفعل شيئًا كهذا بدون أن يخبر أحدًا، في شتاء هذه المنطقة لا يتجول الناس لمجرد التجول وبدا صوته قلقًا وهو يضع قفازه وحذاءه الطويل، ويلف كوفية حول رقبته.

ردَّت «الأم»: وبخاصة عندما يبدأ الثلج في السقوط، ثم مالت على النافذة.. لكن بلا فائدة، فالليل كان حالك السواد، كانت ندف الثلج تتوالى على زجاج النافذة، وتُحدث صوتًا خافتًا بالخارج.

شعرت «مارلى» بدقات قلبها تزداد سرعةً عندما نظرت إلى الخارج، ملصقةً

وجهها بزجاج النافذة البارد.. قالت فى نفسها: إن «چو» يعرف طريقه من بين هذه الطرق ، لكنها الآن مختلفة بعد أن غطتها الثلوج، قال السيد «كريس»: أحياناً تسقط الثلوج بكثرة وتصبح عميقة جدًّا، لدرجة أن الأسوار تختفى تمامًا وكذلك الطرقات، غطى الضباب زجاج النافذة ولم تعد قادرة على رؤية أى شىء سوى صورتها وقد انعكست فبدت كما لو كانت جالسة بالخارج فى غرفة صغيرة، كلها ثلوج.

قالت «الأم»: «ديل»، لقد تعدَّت الساعة التاسعة بالفعل.

كنت أظن «چو» أعقل من هذا. لم يخطر هذا ببالى مطلقًا. ظننته خرج لشأن ما، يستغرق دقيقة، ربما ليلقى نظرة على الماعز أو شىء!! كان «الأب» يتصرف كما لو كانت «الأم» تلومه على شىء فعله بدون قصد.

قال «الأب»: سألقنه درسًا قاسيًا على فعلته هذه.

وبعد أيام قضيناها ونحن نشعر أن «عيد الميلاد» قد بدأ فى منزلنا بالفعل، بكل المشاعر الجميلة والسعيدة وبالدفء وبروائح المطبخ اللذيذة والشجرة المتلألئة.. اختفت البهجة من كل شىء.

قال «الأب»: من حسن الحظ أن لدينا سلاسل.

سوف أمرُّ ببيت «كريس» أولاً، وفى الطريق سوف أطلق آلة التنبيه، أتفهمين؟ فإذا سمعنى «چو»، سوف يجيبنى، ربما أتعرف على الطريق أو شىء. كان «الأب» فى العربة يبدأ إدارتها عندما دق جرس الهاتف، فأسرعت «الأم» تجيب وهى تقول لـ «مارلى»: قولى لأبيكِ ينتظر دقيقة.

جرت «مارلى» تخبره بدون أن تنتظر لارتداء حذاء أو أى شىء وكان «الأب» جالسًا فى العربة والمحرك دائرًا والكشافات الأمامية للسيارة يخترق ضوؤها الهواء الأبيض السابح فى جو الشتاء وكانت «الأم» على عتبة الدار بالفعل، تنادى.. بينما «مارلى» عائدة على ندائها.

«ديل»، المكالمة كانت من «كريس».. هو و«فريتز» يجهزان شاحنتهما؛ لأنهما سيخرجان معك، فهما يعتقدان أن العربة لن تكون لها جدوى فى ليلة كهذه.

بناء على هذا، دخل «الأب» إلى البيت مرة أخرى، ووقف قرب الباب بينما حذاؤه الطويل يقطر ماءً من حوله.

سألت «مارلى»: «أبى»، ألا أستطيع أن أذهب معكم.. «أمى»...

جاء الرد من الاثنين فى نفس اللحظة: لا؛ لذلك أدركت «مارلى» أنه لا فائدة من السؤال ثانيةً فقالت «الأم»: ألا ترين حذاءَكِ مبتلاً كالعصيدة.. اذهبى واخلعيه فورًا.

فى أوقات كهذه، يطيع الإنسان الأوامر مسرعًا، كانت «مارلى» تدرك هذا. جاءت الشاحنة بينما كانت تخلع حذاءها وجوربها، جرت تجاه النافذة تشاهد «الأب» وهو يركب وتستدير الشاحنة وتنطلق فى طريقها. كانت تسمع النفير كل فترة وجيزة هى وأمها، بينما الرجال يهبطون التل. ثم لم تعودا تسمعان سوى نقر الثلج على النوافذ.

قالت «الأم» فجأة: سأعد كوبًا من الكاكاو الساخن، «مارلى» ارتدى شبشبك.

حمدًا لله أنها لم تقل اذهبى إلى فراشك، بل إنها أعدت أروع كوب كاكاو ساخن تذوقته «مارلى»، حتى أنها ذهبت إلى السيارة وأحضرت عبوة من «حلوى الخطمى»(*) التى كانت تنتوى حشوها بالمكسرات والشيكولاتة لتعد منها حلوى «عيد الميلاد»، شربت «مارلى» الكاكاو وبه قطعتان دسمتان من حلوى الخطمى تذوبان على سطحه. قطعت «الأم» قطع «تُوست» على شكل مثلثات ووضعت قدرًا كبيرًا من الزبد يكفى «الأب» و«چو» و«كريس» و«فريتز» وظلت تجهز المزيد والمزيد وكأنها تقول لنفسها: كلما غابوا أكثر، اشتد جوعهم.

قالت «الأم»: من السخف أن نظل ننظر من النوافذ، ما رأيكِ أن نقرأ شيئًا، لكنها ظلّت تنظر من النافذة.. لماذا يفعل «چو» شيئًا كهذا؟! «مارلى»، ألا يوجد مكان تعتقدين أن «چو» به.

(*) حلوى الخطمى: حلوى تُعد من جذور الخطمى أو من سكر وهلام وزلال بيض.

ثم فجأة، فكرت «مارلى» وقارنت حال «چو» فى هذا البرد بحالها فى ردائها الدافئ تحتسى كاكاو ساخنًا فى كوب تسبح الرغاوى على سطحه، وترتدى شبشبها.. كانت «مارلى» تدرك أن هذا أغرب شىء، وفجأة عرفت ببساطة ما فعله «چو». هذا الصباح، وهما يقطعان الطريق للوصول إلى موقف حافلة المدرسة.. قال «چو» شيئًا ما.. إن الشخص الوحيد الذى لا يشعر بـ«عيد الميلاد» فى هذه المنطقة هو «هارى»، سوف أصعد التل لأراه.

يا إلهى! لماذا لم تتذكر ذلك قبل الآن؟!

قالت: «أمى»، أعتقد أنه ذهب إلى «هارى».

إلى «هارى»!! لماذا بحق السماء، هل يذهب إلى «هارى» فى ليلة كهذه؟

أخبرتها «مارلى» بما قاله «چو»، كان مشغولاً بالمدرسة وبقرب حلول «عيد الميلاد»، حتى أنه نسى أمر «هارى» تمامًا فى الفترة الأخيرة.. لكن فى المدرسة، قال أحد مدرسيه إن «عيد الميلاد» هو الوقت الذى يجب أن نفكر فيه فى أناس يعيشون فى الوحدة.. بالنسبة لمن يعيشون بمفردهم، يمكن أن يكون «عيد الميلاد» أتعس أوقات السنة.

قالت «الأم»: حسنًا، إذن بالتأكيد هذا هو المكان الذى ذهب إليه.

أحسّت ببعض الراحة، ومع ذلك ذهبت تنظر من النافذة مرة أخرى، كانت تنتظر عودة الشاحنة، قالت: ربما يكون الجو دافئًا عند «هارى».. لكن، لماذا لم يرجع «چو» قبل حلول الليل والثلج يسقط هكذا؟ لابد أنه يدرك مدى قلقنا الآن.

قالت «مارلى»: لابد أن هناك سببًا.. وعادت تحرك وتحرك جزيرة حلوى الخطمى على سطح الكوب.

قالت «الأم» من النافذة: هاهم قد عادوا، كانت الشاحنة تزمجر وهى تصعد التل بصعوبة. وقبل أن تتوقف أمام المنزل، هرعت «الأم» تسألهم: هل «چو» معكم؟

لم يكن معهم. دخلوا بخطوات بطيئة. تركتهم «الأم» يتحدثون ويحكون ما

فعلوه، فقد ذهبوا إلى كل الطرق من كل اتجاه. لم تكن هناك فائدة أن يذهبوا أبعد مما يمكن أن يكون «چو» قد ذهب بالفعل، سألوا فى كل مزرعة.

عندئذ سألتهم «الأم»: هل فكرتم فى الذهاب إلى بيت «هارى»؟

ارتسمت الدهشة على وجه السيد «كريس» وهو يقول: لماذا؟ لكن «چو» يعرف أن «هارى» ليس فى بيته الآن، أليس كذلك؟ عندما تشتد وطأة الشتاء، يذهب دائمًا إلى بيت أقارب قدامى قرب «إيرى»، بينما يتولى «شاوديك» الذى يسكن بعده على الطريق العناية بعنزاته حتى الربيع. رحل «هارى» وعنزاته إلى هناك منذ يوم أو أكثر.

سألت «الأم»: هل حدث وذهبتم هناك؟

ثم حكت لهم ما قاله «چو».

انطلقوا إلى الشاحنة مرة أخرى، كانت هيئتهم ولهجتهم أكثر ارتياحًا الآن، قال السيد «كريس»: إن «هارى» لا يوصد بيته أبدًا،يستطيع «چو» أن يذهب هناك ويوقد النار، لكن المصباح العتيق الخاص بـ «هارى» لا يمكن رؤيته عبر الطريق خاصة فى ليلة مثل هذه. غطى صوت الشاحنة على صوته قبل أن يكمل عبارته، وغابت الشاحنة مرة أخرى وسط الثلج المتساقط.

همست «مارلى» لنفسها بحيث لا تسمعها «الأم»: أرجو أن يكون هناك.. أرجو أن يكون فى بيت «هارى».. يا رب.. يا رب، لكن يبدو أن «الأم» كانت تهمس لنفسها هى أيضًا.. كان كل شىء ساكنًا عدا طقطقة نار المدفأة، ونقر الثلج على زجاج النوافذ.

بعد فترة، قالت «الأم»: سأظل مندهشة وأتساءل: لماذا لم يعد أدراجه بعد أن اكتشف أن «هارى» غير موجود؟ لماذا لم يحاول أن يرجع؟! لكن، لو كان على الطريق لوجدوه حتمًا.

سيطر عليها القلق كالضباب.

تحركت عقارب الساعة، لكنَّ «مارلى» لا تتذكر أنها سارت بهذا البطء من قبل. التاسعة والنصف، التاسعة وخمس وثلاثون، العاشرة إلا الثلث، والعاشرة إلا الربع، ثم أخيرًا دقَّت العاشرة. عندما كانت «الأم» جالسة على حافة كرسيها، وقبل أن تتم دقات الساعة، دق جرس الهاتف. قفزت «الأم» وجرت، وبدلاً من أن تقول «آلو»، قالت: «نعم.. نعم».

وكان «الأب».. قد سمعت «مارلى» صوته وهو يقول: «وهو كذلك».. عدة مرات وبدأت تشعر بأنها تسترد أنفاسها، وأدركت أنها كانت حابسة أنفاسها أثناء ترقبها.

قالت «الأم»: شكرًا لله، لكن أين أنت؟

لم تسمع «مارلى» إجابته. اعتقدت أنهما ربما سيتحدثان للأبد. «الأم» تقول: حسنًا.. الحمد لله.. تخيل ذلك، كم كان الموقف مرعبًا جدًا يا «ديل»، نعم.. نعم، أفهم ذلك، نعم أعتقد أنه من الأفضل لك...

شعرت «مارلى» أنها ستخرج من جلدها من فرط الانفعال، أمسكت ذراع أمها وسألتها: «أمى»، أين هو؟ هل وجدوا «چو»؟ هل وجدوه؟

صه يا «مارلى»، نعم.. نعم، لقد وجدوه وهو بخير، ثم عادت تقول فى الهاتف: يا له من شعور بالراحة! ساعة! حسنًا.. إذن، سأصحب «مارلى» إلى فراشها.

أخيرًا وضعت السماعة.

صرخت «مارلى»: «أمى»، ماذا قال؟ انحنت «الأم» وقربتها منها واحتضنتها، ثم بدأت تضحك.

قالت لها: «مارلى»، لقد فعل «چو» أروع شىء، كنت على حق بشأن المكان الذى ذهب إليه، كان ينوى العودة بسرعة.. هكذا قال، لكنه عندما وصل بيت «هارى» لم يكن أحد هناك، كان الباب الخلفى مفتوحًا، دخل ولم يجد أحدًا، ونادى ولكن «هارى» لم يجبه، خرج من البيت وعاد إلى الطريق الذى ينتهى إلى جدول الماء.. رفعت أمها أصبعها وجففت دموعها.

قالت «مارلى» : أعرف مكانه.

استمرت «الأم» تحكى: يبدو أن «هارى» كان قد خرج ليحمل قطع الجبن إلى البيت قبل رحيله، وعندها انزلق على الجليد والْتَوت ساقه.. يقول «كريس»: إنه لولا ذهاب «چو» إليه اليوم لكان قد تجمد .. تخيلى. اغرورقت عيناها بالدموع مرةً ثانيةً، ولكنها تركتها تنساب هذه المرة.. ««مارلى»، قام أخوك برفع ذلك العجوز «هارى» على درجات السلم، ووضعه فى فراشه وأوقد نارًا وقدم له حليبًا ساخنًا».

ظلت «مارلى» مستيقظةً فى فراشها تتخيل ما حدث، لماذا لم تذهب مع «چو» هذه المرة؟ كانت ستساعده فى كل شىء، كانت ستساعده فى إشعال نار المدفأة، وفى تسخين الحليب؛ حتى يتفرغ لوضع «هارى» فى فراشه، وكانت «الأم» ستقول ساعتها: ««مارلى» و«چو» فعلاً شيئًا رائعًا».

لكنها فى الواقع لم تشعر إلا بقدر ضئيل من الغيرة لكون «چو» أصبح بطلاً، كانت فخورة به تمامًا، عندما سمعت الشاحنة تصل و«چو» و«الأب» يدخلان، لم تطِق صبرًا على البقاء مستلقية فى فراشها؛ لذا أسرعت تنزل السلالم. لم يوبخها أحد.. تركوها تجلس بجوار المدفأة، بينما «چو» يحكى القصة مرة أخرى، من بدايتها إلى نهايتها. كان يرتشف من كوب الكاكاو ويتحدث ويتحدث. كان يتحدث بشىء من التكلُّف، فى موقف مثل هذا... من ذلك الذى لا يفعل؟!

كان «هارى» الآن فى بيت «كريس» مع «فريتز»، حيث يوجد موقد وأريكة.

أخيرًا، صعدوا جميعًا إلى الطابق العلوى، وقف «چو» على باب غرفته وكأنه كره أن ينتهى الفيلم الذى يحكى بطولته. كان فى شدة الإرهاق كشخص سهر ليلة «عيد الميلاد» بطولها، أو ليلة الرابع من يوليو.

قالت «مارلى» : «چو»، يا له من شىء رائع فعلته فى ليلة «عيد الميلاد»!

كان غريبًا حقًّا ما حدث فى صباح اليوم التالى وبينما «مارلى» تهبط الدَّرَج سمعت «الأم» تقول: آه.. كلا يا «چو»! إنه رجل عجوز قذر.. وتلك الرائحة لا تطاق.

رد «چو»: لا يهمنى، يمكنه أن يأخذ غرفتى، سوف أنام على الأريكة.

ردت «الأم» عليه قائلة: «چو»، بالتأكيد هناك مكان آخر يستطيع أن يذهب إليه، حيث يمكن أن يعتنى أحد بساقه المصابة.

قال «چو»: أريده هنا.

نظرت «الأم» إلى «الأب»، فتح «الأب» باب الموقد، ودفع ببعض الفحم، وقال: إنه «عيد الميلاد» يا «لى»، إذا كان «چو» يعتقد أن هذا ما يمكن أن يفعله الناس لبعضهم فى هذا اليوم، فأعتقد أنه ربما يكون محقًا.

قال «چو»: سوف أرعاه، لن تحتاجا إلى بذل أى مجهود، سأحمل له طعامه إلى الطابق العلوى، ويستطيع النزول أحيانًا لمشاهدة الشجرة وغيرها لبعض الوقت، سوف نساعده أنا و«مارلى» فى الصعود والنزول.

قالت «الأم» وقد يئست: أحقًّا ما تقول؟ «ديل»، لابد أن هناك حشرات فراش، ومثل هذه الأشياء؛ نظرًا إلى الطريقة التى كان يحيا بها.

وقف «الأب» هناك ينظر إليها، بدت عيناه محمرتين فى وجهه الآخذ فى الشحوب.. كان الهواء حوله مشبعًا بشعور مُهم مثل ممثل والأضواء مسلطة عليه هو وحده، والكل منتظر ما سيقوله، قال «الأب»: اسمعى يا «لي»، كنا نعانى من حشرة البق فى معسكر الاعتقال، حملتها على جسمى عندما خرجت. لكننا تخلصنا منها قبل عودتنا للمنزل مرة أخرى.. بعض الناس فى المعسكر كانوا يساعدون بعضهم البعض وآخرون لم يفكروا فى أى شىء أو أى شخص إلا أنفسهم، لم أعرف قبلها كم تختلف معادن البشر، والآن «چو».. استدار ونظر إلى «چو» نظرة ملؤها الفخر لم ترها «مارلى» على وجهه فى حياتها.. إننى أعرف الآن أن «چو» من الأخيار، الذين يفكرون فى غيرهم.

لم تر «مارلى» «الأم» تبدو حزينة ومحطمة هكذا. حتى عندما كان «الأب» متعبًا وحزينًا كل ذلك الوقت، حتى عندما جاء إلى البيت لأول مرة نحيفًا وحزينًا.

قالت «الأم»: بالطبع يجب أن يأتى «هارى» هنا. كان صوتها هادئًا لكنه حادٌّ. سأذهب وأتصل بـ «كريسى» وأخبرها بذلك. ذهبت ناحية الهاتف ورنت الجرس الصغير وانتظرت، ناظرة إلى الأرض وهى تنصت، وقف «الأب» فى مكانه وجلس «چو» ينظر إلى البيض فى طبقه. خيم الصمت على المطبخ.. وبالخارج، كانت الشمس تسطع على ثلج جديد برّاق.

كان الموقف أشبه بليلة البارحة مرة أخرى، فلم تسمع إلا صوت «الأم» وهى تنهى المحادثة: «كريسى» إن «چو» يريد «هارى» معنا فى «عيد الميلاد»، أرجوك أخبريه.. نعم، إن «چو» مُصِرٌّ ـ أخبريه أننا جميعًا نريده أن يأتى.. كلنا. نعم، وأنا أيضًا ـ نعم. أرجوك أخبريه.

وضعت السماعة.

ذهب «الأب» إليها وقبَّلها قُبلة طويلة فى فمها قائلاً لها: «عيد ميلاد سعيد» يا «لي».

شعرت «مارلى» بأنها خفيفة الوزن وقوية وسعيدة. أحسَّت كأن اليوم، الذى لم يكن إلا يوم الجمعة السابق على «عيد الميلاد»، قد تخطى الروزمانة، وكان «عيد الميلاد» بالفعل.

11 البدايـــة مـرة أخــرى

قال السيد «كريس»: إن الفترة بين «عيد الميلاد» والربيع هى أطول فترات السنة، قالت «مارى» لنفسها إن ذلك قول صحيح، وهى تذهب إلى المدرسة يومًا بعد يوم. كان الثلج يتساقط ويتساقط ثم يذوب ويذوب ثم يتساقط مرة أخرى. كان الثلج يغطى الطرقات، وأكوام منه تراكمت على جوانبها بارتفاع سيارة.

رحل «هارى» مرة أخرى بعد «عيد الميلاد»، وكانت الهدايا الجديدة مجرد أشياء عادية موضوعة مع الأشياء التى سبق تلقيها مرارًا.

بالطبع كان عيد القديس «ڤالنتين»(*) جميلاً فى المدرسة، وبدت النوافذ مزينة بشرائط ملونة وقلوب بيضاء وحمراء، ثم جاءت أقسى عاصفة ثلجية.. وصفها السيد «كريس» بأنها إحدى أسوأ العواصف الثلجية فى تاريخ المنطقة، لم يأتِ الأتوبيس لأربعة أيام متتالية، كانت الريح تعوى حول بيتهم، مثلما تعوى فى مسلسل إذاعى مرعب. كانت «مارلى» ترتعد فى الفراش، وكانت تغطى نفسها تمامًا حتى عينيها.

بعد أسبوع من عيد القديس «ڤالنتين»، سطعت الشمس فجأة وغمر الدنيا ضياء باهر، وبدأ الثلج يذوب ويختفى فى الأرض وظهرت قمم الأسوار مرة أخرى، وكان «چو» يقوم كل يوم بإحصاء صناديق البريد التى يستطيع رؤيتها. ظهرت

(*) Valentine day : عيد القديس ڤالنتين (14 فبراير، ويتم فيه تبادل الزهور الحمراء بين المحبين).

الأرض بنية اللون، على الجانب الجنوبى من التل، انتصبت الأشجار مرة أخرى عارية من أوراقها، ولا تزال هناك بقع من ثلج أبيض تنعكس ظلالها.

«ثم حدثت المعجزة».

ذات يوم وبينما «مارلى» عائدة من المدرسة إلى البيت، رأت «الأم» آتية كى تقابلها فى الطريق، لوّحت «الأم» وصاحت كثيرًا قبل أن تفهم «مارلى» ما كانت تقوله، ثم سمعت:

«مارلى»، السيد «كريس» يقول لك: «إن النسغ اندفع، إنه وقت جمع السكر مرة أخرى».

اندفع النسغ!

وقت جمع السكر!

صاحت «مارلى» : متى نذهب هناك؟ الآن؟

لقد حضر «فريتز» لمقابلة «أبيكِ»، وأنا مكلفة بإحضارك أنت و«چو»، إنهم يحتاجون للمساعدة فى تعليق الدّلاء. كانت «الأم» متوترة وخدودها حمراء وهى تقول هذه الكلمات: «ارتدى أقدم ملابسك» كانت «مارلى» فى طريقها بالفعل، «ولا تنسى حذاءك ذا الرقبة، ولا تنسى قفازيك، فتلك الدلاء ستكون باردة».

كم يبدو التل مألوفًا الآن!! تعرفت عليه «مارلى» وهم يمشون فى الطريق القديمة الضيقة، وتعرفت على كل أخدود صغير فيه بالفعل كما تتعرف على وجه صديقة قديمة. فمنذ سنة، جاءت إلى هذه المنطقة بمفردها، تتأمل جمال كل شىء، وهناك بجوار كومة الخشب وجدت السيد «كريس». الآن كانت هناك كومة جديدة من الخشب تقف جاهزة، تكاد تعادل ارتفاع البيت الصغير البنى.

لم تكن النار قد اشتعلت بعد، كانوا لا يزالون يجهزون جهاز التبخير وكانت هناك أوانٍ طويلة معلقة فوق صندوق النار. كان باستطاعة «مارلى» أن ترى الجزء الذى سيمر فيه النسغ خفيفًا مثل الماء فى بادئ الأمر، ثم فى الإناء الذى يليه أكثر

كثافة، ثم أكثر فأكثر، ويزداد دُكنة حتى أنه لا يصبح نسغًا على الإطلاق، بل شرابًا. بالفعل، كان أول إنتاج للشراب يقوم به «كريس». كانت منفعلة حتى أن يديها ارتعشتا، ولم تعد تعرف إن كانت ستفيدهم أم لا. كان «الأب» يضع الدّلاء فى الشاحنة، حيث كانت موضوعة فى المخزن طيلة الشتاء فى وضع مقلوب.

كان الأمر أشبه برؤية بداية كل شىء البداية الأولى على الإطلاق. جالت ببصرها على الأجمة السكرية، وكانت هناك كتل متناثرة من الثلج والأوراق البنية الغامقة على الأرض تحت الأشجار العارية. شعرت أن المفاجآت رائعة.. لكن الأكثر روعة، هو عندما تعلم أن المعجزة وشيكة الحدوث. عرفت تحديدًا أين ستظهر جماليات الربيع. وفى هذا العام عرفت متى ستظهر «حشيشة الكبد» وتحول لون الأرض إلى مزيج من الأزرق والأرجوانى والقرنفلى. عرفت متى سيرتفع نبات الأطريليوم، أوراقه «ثلاث» وبتلاته «ثلاث». عرفت متى سيوقد نبات الدموية شموعه البيضاء احتفالاً بعيد الفصح.

أشياء كثيرة ستبدأ مرة أخرى، عرفت كيف ستخضر الأوراق على الأشجار، وكيف ستكسو الزهور نبات زهور القيقب الناعم باللون الأحمر بامتداد الغدير، عرفت أين سيجرى الماء بخريره العذب أثناء ذوبان الجليد مكونًا شلالات مياه لا تحدث إلا فى الربيع.. رفعت وجهها إلى الشمس وضحكت، كانت رائحة الربيع قد بدأت تنتشر جميلة فى الهواء المنعش.

جاء صوت أزيز مفاجئ من بين الأشجار.. ما عساه أن يكون؟ هل وصلت جحافل من حشرات أزيز الحصاد؟ كان السيد «كريس» يضحك وهو يناديها؛ لتتعامل بحرص مع هذه الدلاء، استطاعت سماع صوته من مسافة كبيرة أعلى التل.

كان ما يفعله «فريتز» هو مصدر الأزيز؛ حيث كان معه مثقاب، وكان ينتقل مع السيد «كريس» من شجرة إلى أخرى؛ لعمل ثقوب فى كل شجرة، ثم قاما بدق مقطرات تسمى محابس تقطير فى الفتحات، وفوق كل واحد منها خطاف خاص صغير، وكان على «چو» و«مارلى» أن يعلقا دلوًا ويضعا غطاءً مُحكمًا فوقه.

كل ثقب يجب أن يكون فى مكان مختلف عن المكان الذى كان فيه العام الماضى، والأعوام التى قبله.. وكانت الثقوب القديمة قد أصبحت مثل آثار التطعيم ضد الأمراض على الذراع، استطاعت «مارلى» أن تحدد على كل شجرة، خصوصًا الأشجار الكبيرة، مكان ثقوب لسنوات وسنوات مضت، لكن السيد «كريس» قال: إن هذا لا يؤذى الشجرة إطلاقًا، ليس أكثر من تلك الندوب التى تسبب فيها سقوطك هناك وأنت صغيرة.

كان النسغ يتدفق بسرعة شديدة حتى أنه قبل وضع الدلاء كانت فتحات التقطير تنساب، ومرة واحدة بدأ صوت الانسياب «بلوب.. بلوب.. بلوب» فى الدلاء الفارغة المصنوعة من القصدير.

قال «فريتز»: فى الصباح، وبهذا المعدل، ستكون كلها قد امتلأت، «كريس»، ألا تعتقد أنها قد تتجمد؟

«كلا، إنها جائزة أول تدفق، إننى أستطيع أن أشمه».. كان أمرًا ممتعًا السير خلفهما وسماع حديثهما عن السكر.

تردد صوت السيد «كريس» بين الأشجار وهو يوجه كلامه إلى «الأب» و«الأم»: إنه شىء رائع أن يكون أول تدفق بهذا الشكل. يجب أن تكون الحرارة 40 درجة فهرنهايت؛ لكى تجمعه. مرت سنوات لم ندخل فيها هذا الدغل، لكن ليس هذا العام بفضل الله، ونحن نحتاج إلى نقود سائلة.. كنت أعتقد أن البرد سيستمر حتى يحين وقت زراعة الشوفان.. بعد أن تبدأ الزراعة، لن يكون هناك وقت لجمع النسغ، فلو أنك زرعت الشوفان مبكرًا فستحصده، ولو زرعته متأخرًا فلن تحصد سوى التبن.

كانت هذه هى الأحوال التى تحب «مارلى» فيها السيد «كريس» جدًّا، أو عندما يضع الحطب ليشعل نارًا، ويظل يحكى ويحكى والحطب يحترق ويبدأ تصاعد البخار فى سحاب أبيض مرة أخرى تحت السقف المنخفض باستثناء نظرة الاهتمام والمراقبة التى تبدو على وجهه وهو يرفع الشراب الحلو من آخر إناء بالمجداف

الخشبى ويتركه يسقط ببطء ليرى ما إذا كان سميكًا بما يكفى. عندما يفعل ذلك، تدرك «مارلى» أنها يجب أن تحبس أنفاسها.

كان النسغ ينساب «بلوب.. بلوب» من خلفها وهى تعلق دلوًا تلو الآخر. سرعان ما بردت يداها، لكنها لم تهتم.

أول مرة جمعنا فيها السكر فى هذه الغابة، لم يكن لدى أبى سوى غلاية حديد واحدة، ليست أفضل كثيرًا مما كان لدى الهنود الحمر الذين علموا جدّى، يا «ديل»، على نفس هذه الأرض.. بعد ذلك، أصبح لدينا نصف دستة أباريق متراصّة، وتحت كل منها نار، كنا نصب من إبريق إلى آخر بعد أن يغلى بما يكفى، وكان علينا الإسراع بإفراغ العصير قبل أن يحترق الإبريق، الذى كان موضوعًا على قائم منزلق بحيث نستطيع أرجحة النار بسرعة.

قال «الأب»: ربما كانت هذه هى الطريقة التى يجب أن أبدأ بها فى تل «مابل» لا شيء يعادل البداية من نقطة البداية الحقيقية؛ لهذا السبب يحسن بى أن أبدأ فى تل «مابل».. فلا شىء يعادل البدء من النقطة الصحيحة.

«كلا، كلا سنذهب ونجمع النسغ من أشجارك بعد أن نفرغ من مهمتنا هنا، نستطيع أن ننجز المهمة كلنا معًا ونعرف أين وقفنا، أليس كذلك؟! تستطيع أن توقف تدفق النسغ كلما امتلأت دلاؤك».

قال «چو»: ربما كان من الأفضل أن نشيد مكاننا الخاص ونعود للطريقة القديمة يا سيد «كريس»، «هارى» يقول إن الشراب لم يعد جيدًا كما كان، عندما كان مليئًا بالأغصان واللحاء وكل ذلك.

قال السيد «كريس» متهكمًا: نعم ـ والعناكب. إن «هارى» على حق، نحن عقدنا الأمور بعض الشىء، إننا نرشحه عند جمعه، ثم نصفيه قبل وضعه فى جهاز التبخير، ثم نرشحه مرة أخرى بعد النزول من على النار.

حل الظلام بسرعة، كانت خمسمائة دلو فقط هى التى تم تعليقها. استطاعوا

العمل طيلة اليوم فى الخلاء.. قال السيد «كريس»: من شمس الغروب الحمراء من الممكن تخمين كيف سيكون الطقس غدًا.. ونحن عائدون إلى البيت، على مهل، قال السيد «كريس»: «مارلى»، اعتاد «الأب» أن يردد على مسامعى قصيدة فى كل موسم جمع سكر، قال إن مذاقها حلو مثلها، وكالسكر ولا يستطيع حتى من يلقيها أن يبلغ جمالها.. ربما من الأفضل أن ألقيها على مسامعك أنت و«چو».

كانت سعادتى فى الطفولة كاملة
ومرة كل عام كان وجهى حلوًا
لكن تبًّا له من لا يهتم
فيقع فى فخ السكر
ليت حواء ذاقت أقل
وكذلك أنا، أعترف بذلك
إن حواء تعذّب قلبها
أما أنا فأتألم فى موضع آخر!

ربما كانت نصيحة طيبة، لكن «مارلى» كانت تعلم أنها لن تصبر على التذوق الأول.

نادت عليها «الأم» مبكّرًا فى الصباح التالى، مبكرًا جدًّا حتى أن غرفتها كانت لاتزال مظلمة، كانت لا تزال نائمة حتى أنها جاهدت لاستبدال ملابسها ولتعثر على قدميها وذراعيها.. أعلى السلم، جاءت رائحة لحم خنزير يتم قليه، وعندما هبطت إلى الطابق السفلى، كان المطبخ مضيئًا تملؤه الضحكات، وكان «فريتز» قد جاء ليساعدهم فى جمع النسغ من أشجارهم.

صاح «چو» وهو يجرى خلفها بفوطة باردة: «ألا تشبعين نومًا؟».. هذه المرة لم تتضايق رغم أنها صرخت وصرخت، شعرت بأنها عادت إلى الحياة وهو يرش وجهها بالماء البارد..

فى الخارج كانت رائحة الربيع تملأ الأرجاء.

قال «فريتز» وهو يتشمم: اليوم.. الريح شرقية، وعند كعبيه كان الكلب «تونى» يتشمم كذلك.

إن ريح الشمال من شأنها أن توقف تدفق النسغ، ويقول «كريس» إن ريحًا تهب من الجنوب ستجعله يتدفق من الفتحات.

عندما عادوا أخيرًا إلى مجموعة أشجار السيد «كريس»، لم تطِق «مارلى» صبرًا حتى ترى ما فى الدلاء. رفعت أول غطاء قابلها. وكان الدلو ممتلئًا تقريبًا. كان النسغ برّاقًا رائقًا كمياه الربيع. وعندما وضعت إصبعها لتتذوق لم يكن الطعم حلوًا جدًّا، كانت حلاوته قليلة، مثل شىء بعيد تسمعه أو تراه بالكاد، لم يكن هناك أى لون. أم كان هناك؟ مجرد لمسَة مِن لون أصفر، ربما فى لمعانه. دققت النظر وصممت على رؤيته؛ لأنها أيقنت أنه بالتأكيد هناك.

خلال ساعة، كان البخار يملأ الغابة مرة أخرى.. انسابت رائحة دخان الخشب أسفل التل وبين الأشجار، ثم جاءت أول رائحة حلوة.

هل كانت...؟

قالت «مارلى» لنفسها: إنها البداية.. بالضبط، كما قال السيد «كريس»، إن النسغ هو الربيع. إنه القلب والدم، بالنسبة لأشجار القيقب، فيه ذهب الأوراق ولون اللحاء البُنى، إنه ضوء الشمس الساطع، إنه الثلج الذائب، إنه الهواء المنعش والأرض وهى تبدأ المخاض.

شعرت أن ذراعيها قويتان، وأن قلبها يطير من السعادة.

قال السيد «كريس»: سوف نقوم بالغلى فى وقت متأخر هذا المساء.

أجابه «الأب»: سنقوم بما فعلناه فى العام السابق. هذه المرة قد يكون لنا بعض الفائدة. من صوت «الأب»، ومن الطريقة التى خرجت بها كلماته، أدركت «مارلى» أن صدره يختلج بكل المشاعر الحلوة مثلها تمامًا، ومن صوت «چو»، أدركت نفس الشىء أيضًا.

فى يوم كهذا، من الصعب أن تصدق كيف أن كل إحساس وكل شىء طيب يمكن أن يتغير ويتلاشى سريعًا. لم يكن أى منهم يدرك أن الساعات الحلوة تمضى سريعًا وهم جالسون فى تلك الليلة، بينما «الأب» يغنى مرة أخرى عن الثعالب، وتتوهج النار وتحدث معجزة الدهن مرة أخرى. سمح لها السيد «كريس» هذه المرة بأن تصنع المعجزة بنفسها، وشعرت كأنها ملكة فى قصة خيالية ممسكة بعصا وهى تجعل الفقاقيع تعود أدراجها وتلتزم مكانها.

لكن قبل فجر اليوم التالى، استيقظت منتبهة فجأة، كان «فريتز» بالطابق السُّفلى، استطاعت سماعه يتحدث مع «الأب» الذى كان واقفًا فى منتصف درجات السلم، ولا يزال مرتديًا بيچامته.

قال: جاءت «كريسى» وأيقظتنى، أظن أن الساعة كانت الثانية تقريبًا. قالت إنه بذل مجهودًا كبيرًا بالأمس فى جمع أول كمية على خير وجه، سأحاول أن أعود بعد الظهر إن كان على ما يرام. إن استطعت أن أجلب من يعاون فى الجمع، لكنه يوم الأحد..

إن كان على ما يرام! من هو؟

شعرت «مارلى» بقلبها يغوص. اندفع «فريتز» خارجًا، وسمعته يدير السيارة فينطلق صوت محركها. كان «چو» واقفًا فى الردهة عندما خرجت، كانت «الأم» برداء النوم، قال «الأب»: «لي» - إن «كريس» نهض من النوم لا يقوى على الحركة، وعندما حاول أن يقف لم يستطع، إن سيارة إسعاف فى طريقها إليهم.

وقال إن «كريسى» استدعت الطبيب.

جلست «مارلى» على الأرض. كان كل شىء يبدو أحمق وقبيحًا ورهيبًا.. ما معنى الربيع؟ وما معنى أى شىء؟

12 القلق على السيد «كريس»

سأل «الأب»: هل تعتقدين أن بوسعنا ذلك؟

بدت «الأم» مندهشة أنه استطاع أن يسأل سؤالاً سخيفًا كهذا، قالت: إن الناس يفعلون ما يجب عليهم فعله، إن «كريس» يحتاج لهذا المحصول، ولسوف يحصل عليه. «فريتز» يعلم كيف، وعلينا فقط أن نعاونه.

قال «الأب»: دائمًا كان «كريس» يقوم بالعمل الرئيسى ويضع اللمسات الأخيرة.

قالت «الأم»: حسنًا، هو الآن مريض. بدا صوتها متوترًا، لكن «مارلى» كانت تعلم أن ذلك بسبب قلقها الشديد.

سوف يحتاج إلى ثمن محصول السكر أكثر من ذى قبل. إن النسغ هناك، والأشجار تم ثقبها، وفى انتظار المعاونة!

رفعت «مارلى» ذقنها واستجمعت قوة عضلاتها فى ذراعيها. ارتسمت نظرة تصميم على وجه «چو» مما جعله يبدو أكبر عمرًا، كما لو كان على استعداد أن يضع قدمه على أولى عتبات الرجولة.

قال: بالتأكيد نستطيع.

قال «الأب» بلهجة محذرة: سيكون عملاً شاقًا. نظر إليهما، وإلى «مارلى» ثم إلى «چو» قائلاً: إذا بدأنا هذا العمل، فيجب أن ننهيه كما ينبغى، أتفهمان؟

نظر «چو» إلى طبقه، وكذلك فعلت «مارلى». لم يكن العمل الشاق هواية مفضلة لهما، يعلم الله، وكم دبرا الحيل ليتهربا منه.

لكن كان ذلك مع غسل الأطباق، وقطع الأخشاب وأشياء من هذا القبيل، وليس استخلاص السكر!

قال «الأب»: نستطيع أن نعمل بالطريقة التى ذكرها «فريتز» وننتهى من المرحلة الأولى أو نعمل بالطريقة التى كان يعمل بها «كريس» بنفسه، إنه يحتاج للمال كما تقول. إنه بعض المال الذى يعتمد عليه. ثم... حسنًا، نظر إلى طبقه هو أيضًا وأضاف: يجب أن نعمل شيئًا يجعله يشعر بقدر من التحسن.

لم يفكر أحد أن اليوم التالى سيكون يوم دراسة.

فى أول الأمر، جمعوا عصارة أشجار التل الخاص بهم. كانت هناك بالكاد خمسون شجرة، لكن بعد نزع محبس تقطير كل دلو، تدفق النسغ إلى دلو التجميع وعاد الغطاء إلى موضعه، شعرت «مارلى» بتعب فى ذراعيها، ثم ذهبوا إلى الأجمة الضخمة الخاصة بالسيد «كريس». لم تكن «مارلى» تتخيل حجم المكان، تلك الأشجار بدلائها الممتلئة كانت متراصّة كأنها بلا نهاية. قاد «الأب» الخيول؛ كى تجر القارب المسطح بخزانته الضخمة؛ لأن الأرض كانت زلقة وموحلة فى تلك الأجمة مما يعيق عمل الجرار.. لم تكن «مارلى» تعلم أبدًا أن هناك أجمة سكرية بخلاف التى كان «فريتز» يثقبها، عبر الحقول وراء منزل «كريس» على حافة الغابة الكثيفة. إجمالاً كان هناك ما يزيد على أربعمائة دلو.

سرعان ما تخدرت يداها. كانت ترتدى قفازات فى بادئ الأمر، لكن النسغ فاض مما أصابها بالبلل والبرودة فخلعتها.. وفى بادئ الأمر أيضًا، كانت حريصة على ألا تفقد قطرة واحدة من السائل الثمين، لكنها أدركت بعد فترة وجيزة أنه لا يهم إن ضاعت بعض القطرات. كان جسمها من الأمام مبللاً بالكامل، «منقوعة فى مياه الربيع» ــ كما كانت تقول «الأم»، لكن «الأم» أيضًا كانت مبللة بنفس الدرجة، وكذلك «الأب»، و«چو».. تعبت «الأم» جدًّا حتى أنها اقترحت أن تتولى مراقبة النار لبعض الوقت.. فى أول الأمر، كان «الأب» يتابع النار لكى تظل مشتعلة.

ياالله، كم ارتاحت أن رأت «فريتز» قادما أخيرًا، سألته «الأم»: كيف حاله؟ أرادت «مارلى» أن تسأل أيضًا، لكن وقفت فى حلقها فكرة أن يكون السيد «كريس» مريضًا أصلاً.

تستطيع أن تقرأ على وجه «فريتز» أنه كان حزينًا، وشعرت «مارلى» بكيانها من الداخل ثقيلاً وباردًا.

قال «فريتز»: أعتقد أنه سيتجاوز الأزمة.. على أية حال، إنه لايزال بيننا. كان «فريتز» يستخدم الكلمات التى اعتاد الناس أن يستخدموها فى تلك الأحوال، مثل: إن «كريس» فى حالة جيدة فى حدود المتوقع. عندما سمعت كلمة «هنا»، هرعت «مارلى» بين الأشجار، لكن كلمة «هنا» لم يكن معناها أن السيد «كريس» فى الأجمة السكرية تحت السماء الزرقاء، ولكن كان معناها أنه مازال فى هذا العالم، والآن كان عليها أن تقنع بهذا.

عادوا جميعًا إلى العمل.. وفى الساعة الثانية، كان الجمع قد انتهى. أصر «فريتز» على أنهم يجب أن يذهبوا إلى البيت لبعض الوقت، بينما يراقب هو النار فى الأجمة السكرية، لكن «الأب» قال: كلا، أُفضِّل البقاء.

قال إنه يستطيع النوم هنا هذه المرة، وإن «فريتز» يجب أن ينال قسطًا من الراحة وإلا فلن يساوى ذرة ملح غدًا وسيكون بلا فائدة. كان النسغ لايزال ينساب ببطء، لكن بانتظام، وامتلأت الدلاء عن آخرها مرة أخرى.

لم تسعد «مارلى» قدر سعادتها بتناول العشاء فى تلك الليلة، وبالحمّام والفراش الدافئين.. وبالكاد تتذكر متى سقط رأسها على الوسادة، وفجأة أيقظتها «الأم» مرة أخرى، وكان الصباح.

قالت «الأم»: حان وقت الذهاب.

كان جسدها متيبّسًا كله، لكنها كانت جافة على الأقل. كانت رائحة لحم الخنزير المقدد رائعة، أسرعت بخطى مضطربة فى اتجاه الرائحة والمطبخ الدافئ.

كان «فريتز» يأكل بالفعل، كان ذاهبًا لإحضار «الأب» ثم ينطلقان خارجين مرة أخرى.

قال «فريتز»: هذا يذكرنى بقصص سمعتها عن الأيام الخوالى، كان الناس يساعدون بعضهم أكثر مما هم عليه الآن. فلمّا كان مثلاً يحترق مخزن فى الجوار، كان الجميع ينهض للمساعدة، وفى خلال أسبوع يكون له مخزن جديد ملىء بالتبن.

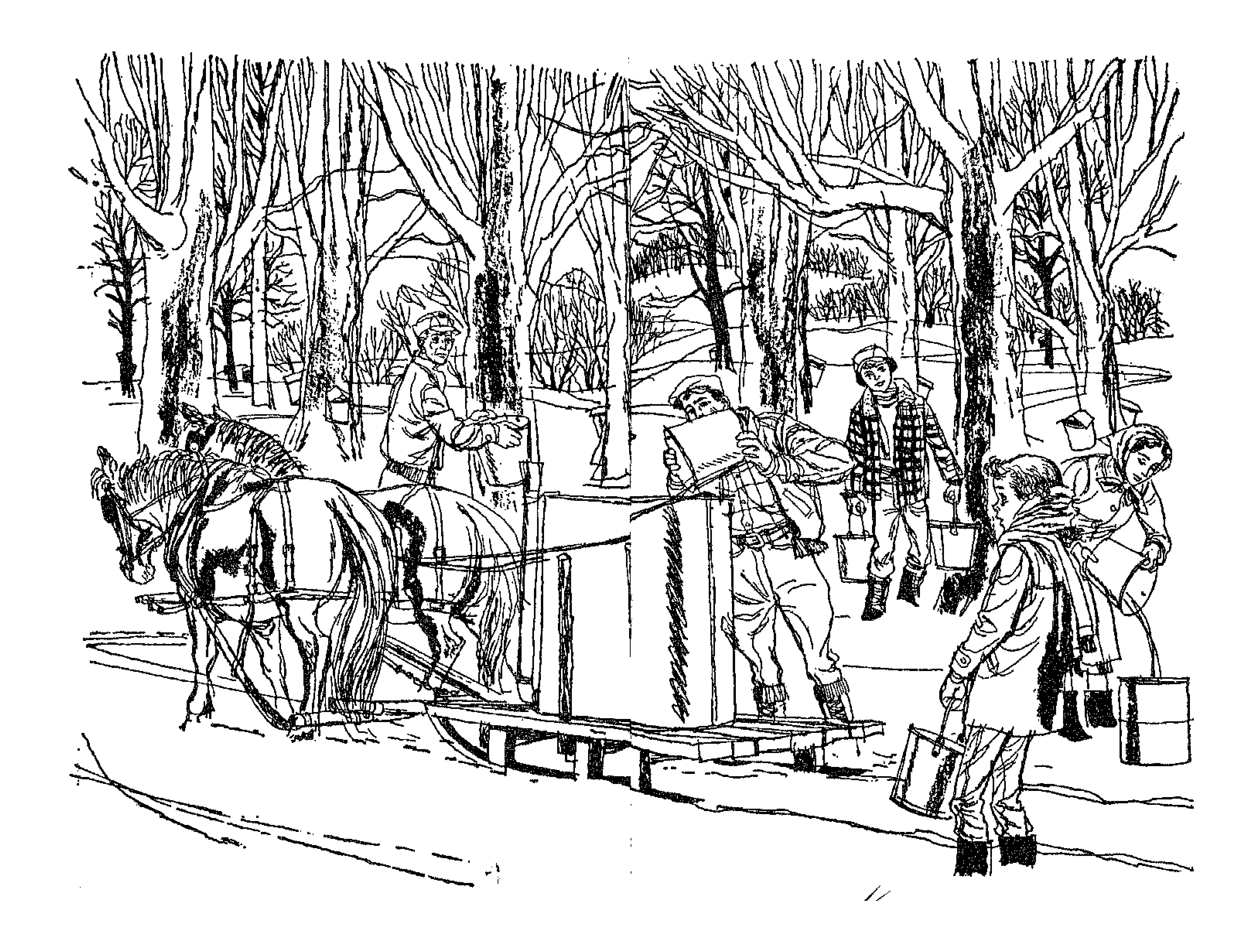
قالت «الأم»: هكذا يجب أن تكون العلاقات.

كانت «مارلى» تحترق شوقًا كى تسأل عن أخبار السيد «كريس». لكن مثلما حدث بالأمس، لم تستطع إخراج الكلمات من حنجرتها. كانت تعلم أن «كريسى» ستعود بعد أن يزول الخطر، وليس قبل ذلك. هذا ما فكرت فيه بينما كان «فريتز» يأكل.

لكنها، وقبل أن يغادر مباشرة، أحسّت بأنها يجب أن تسأله: «فريتز»، هل سمعت شيئًا، هل «كريسى» اتصلت أو شيئًا من هذا القبيل؟ لاحظت «مارلى» كيف انتبه «چو»، منصتًا. ساد الغرفة صمت، حتى أن «الأم» توقفت عن غسل الأطباق؛ لتسمع إن كان هناك رد.

قال «فريتز»: نعم. اتصلت، يعتقدون أنه أحسن قليلاً عن الأمس، لكن ليس قبل يوم أو يومين يستطيعون التأكد. كان ينظر لأسفل وهو يتكلم، ويدير القبعة فى يده،: «أتعرفون، لقد كان الناس يتحدثون عن «كريس» وقلبه الكبير، كان يفكر فى الآخرين دائمًا، والآن ـــ حسنًا.. إن قلبه كبير فعلاً، لقد أصابه التضخم أو شىء ما».

استدار بسرعة وخرج، لم يتفوه أحد منهم بكلمة واحدة. بدأت «الأم» تكشط آثار الغلى السابق من قاع الإبريق، وكان صوت الكشط عاليًا فى الغرفة. لم تستطع «مارلى» أن تحبس انفعالها أكثر من ذلك. فانحنت على المنضدة وبكت. لم يكن بكاؤها عاليًا، لكن مضطربًا.. أخذت تبكى وتبكى فتتساقط دموعها مثل تساقط النسغ فى الدلاء.



قال «چو» فجأة: « هذا لن يعاون أحدًا...» وكان الغضب مستبدًا به وقال: أليس هذا خليقًا بالبنات؟

تطلعت إليه ورأته يحدّق فيها، صرخت فى وجهه: إنك حتى لا تهتم، إنك وضيع للغاية!

قالت «الأم»: لا تبدأ شِجارًا.

لكن «چو» مال على المنضدة وهو لايزال يحدّق فى «مارلى» بنظرات جامدة. قال: لن أضيع وقتى فى البكاء، إننى أعمل لصالح السيد «كريس»، أتفهمين؟ أمامنا عمل لابد أن ننجزه، وليست هناك فائدة من التفكير فى أى شىء سوى إنجاز هذه المهام.. لقد تكلمت أنا و«أبى» عن ذلك الليلة الماضية، قال إنه لا فائدة من القلق، هل سيفيد القلق السيد «كريس» فى أى شىء؟ يجب أن ينصرف كل تفكيرنا إلى العمل.

كان ذلك صحيحًا، وقفت منتصبة مرة أخرى وبحثت فى جيوبها عن منديلها، وفى لحظات بدأت فى تناول طعامها.

ثم جاء «الأب» وحكى لهم كيف كان عليه أن يبقى فى المعسكر طوال الليل. تعرّف على بعض فئران السيد «كريس» وقال: «خمنوا من قام بزيارتى بعد الفجر بقليل؟»، أربعة غزلان، إنها بالفعل دقت علىَّ الباب، كان يبدو متعبًا لكن ليس كما كان يبدو عليه فى الأحوال العادية، ليس على الإطلاق، كان تعبًا حانيًا ورقيقًا ليس حادًا أو مرهقًا».

ثم بدأ يوم طويل آخر، كانت قد مرت عليهما ساعتان بالفعل عندما رأوا حافلة المدرسة بلونها الأصفر البراق تنعطف إلى الطريق.

قالت «مارلى»: «چو»، لقد بدأت الدراسة اليوم.

ضحك وقال: ليس لنا، أليس كذلك؟

كان القارب المسطح يتحرك ببطء فى الطرقات ذات المطبّات العميقة، التى كانت تتلوى داخل الأجمة.. ميزت «مارلى» أشكالها. طوال سنوات عُبِّدت

الطرقات، فكان جمع النسغ سهلاً. يقود «فريتز» شوطًا داخل الأجمة ثم يتوقف، ثم هو و«مارلى» و«چو» يأخذون دلاءهم الكبيرة ويتفرقون، لكل منهم شجيرات محددة.. استطاعت «مارلى» أن تحمل ثلاثة دلاء صغيرة فى دلوها، لكن كان الحمل ثقيلاً؛ فلم تستطع أن ترفعها لتفرغها فى الخزان الموضوع على القارب المسطح.. كانت كل مرة تضطر إلى انتظار «فريتز» أو «چو»؛ ليقوما بالتفريغ. لكنها على الأقل، كانت تملأ دلوها بنفس السرعة التى يعملان بها، وتعود به معهما كل مرة، لذا لم يكونا بحاجة إلى انتظارها. كانت عندما تشعر بتعب فى ذراع، تحمل على الذراع الأخرى، ثم استطاعت أن تنقل الدلو المملوء من ذراع إلى ذراع بدون أن تفقد الكثير من السائل الثمين، وكذلك استطاعت أن تسيطر على الغطاء الصغير، فقد كانت تسحبه وتضعه تحت ذراعها اليسرى بينما تفرغ النسغ فى الدلو، ثم تعيده مكانه بدون أن تضطر لوضع الدلو على الأرض.. كانت هناك طريقة صحيحة لعمل كل شىء، كانت ذراعاها متعبتين من آثار اليوم السابق، لكنها دربت نفسها حتى لا تلاحظ ذلك.. وكان التعب قد خدر ذراعيها تمامًا، ومع ذلك، ظلت تعمل. ظلت بجانب «چو» حتى امتلاء آخر دلو، وهنا صاح «فريتز»: «هذا آخر دلو».

لم تسمع كلمة جميلة كهذه من قبل. ولم يبد معسكر السكر جميلاً مثلما كان و«فريتز» ينطق بهذه الكلمات.. دخلت وغاصت فى الأريكة القديمة وابتسم «الأب» لها قائلاً: أحسنتِ.. «فريتز» يقول: إنك أعجوبة العالم الثامنة.

كان تعبها أكبر من قدرتها على السعادة بهذه الكلمات، كانت مُنهكة من الداخل ومن الخارج.. لكن، بعد فترة أحضر «فريتز» بعض البيض وقام بسلقه فى الشراب الحلو. كان الطعم رائعًا وقد تخلله شىء من النسغ، كما لو كان قد تخلل قشرها. جاءت «الأم» بالشطائر وقهوة ساخنة ولبن بارد، رغم أن بيتهم البنى الصغير كان دائمًا رائعًا، إلا أنه لم يبد بهذه الروعة مثل الآن.. فمجرد الجلوس كان شيئًا

رائعًا، وتناوُل الطعام كان متعة، كذلك كان الشعور بالبلل الذى يغطيها وهو يجف بجوار المدفأة شيئًا طيبًا؛ لهذا كان السيد «كريس» يحب موسم جمع النسغ.. أدركت الآن أنه لم يكن يحب مجرد مجىء الربيع والنار الدافئة والروائح الجميلة والأطعمة الشهية، لكن أيضًا قطع الأخشاب، وتعليق الدلاء وجمع النسغ ومراقبة كيف يتحول من سائل مائى خفيف إلى شراب كهرمانى فى شكله النهائى، لقد أحب العمل نفسه.

وبعد أن تناولت طعامها، أحسَّت أنها يمكن أن تبدأ من جديد، بدون اكتراث للتعب.

لكن عودة التفكير فى حالة السيد «كريس» الصحية، جعل الطيبة الموجودة بداخلها تتغير لتصبح مثل اللبن الذى يتخثر فى يوم حار.. ومثلما حدث فى الصباح السابق، عندما ذهب «فريتز» إلى البيت ورجع خشيت أن تسأله عن أخبار.

أخبرهم، كالمرة السابقة ـ بدون أن يسأله أحد بنفس الكلمات المعتادة ـ أن «كريس» فى حالة جيدة فى حدود المتوقع.

هكذا انتهى يوم آخر.. واشتدت البرودة مع حلول المساء، نظر «فريتز» إلى السماء وقال: أرجو ألا يصل الجو إلى درجة التجمد الليلة؛ فإذا بدأ التجمد الليلة وكل هذا النسغ فى الدلاء، فسوف نخسر كل دلو فى المكان كله.

سأله «چو» : ماذا تقصد بخسارة كل دلو؟

قال «فريتز»: أنت العالِم فينا، ماذا يحدث عندما يتجمد الماء؟ يزداد حجمه، أليس كذلك؟ حسنًا، إذا ازداد حجم النسغ فى الدلاء الممتلئة؛ سينشق مكان اللحام، وما النتيجة؟ الدلو الذى يسرب ما به لن يفيد إنسانًا أو حيوانًا.

قال «چو»: بالطبع لن يفيد أحدًا، ثم أضاف بسرعة: هذا معناه أننا يجب أن نقوم بتفريغها، أليس كذلك؟

تنهد «فريتز» قائلاً: بالضبط، وفهمت «مارلى» لماذا تنهَّد.

كانت فكرة «أن يبدأوا الجمع من جديد» تؤلمها من قمة رأسها إلى أخمص قدمها.

قال «فريتز»: ليست هناك فرصة لالتقاط الأنفاس أثناء الجمع، فهذا عمل يتطلب الانتباه لكل صغيرة وكبيرة.. ففى الخارج، يجب أن تتأكد أن الدلاء لا يتسرب منها السائل، وهنا إذا جرى الغلى بسرعة؛ فقد تُحْرَقُ الآنية وتخسر عدة مئات من الدولارات فى عشر دقائق.. إنك لن تفقد دفقة واحدة من السائل، بل ستفقد كل شىء.

سكتوا جميعًا لبرهة من الوقت، ثم قال «الأب» :«فريتز»، لقد سحبت عينة من السائل، وأريدك أن تلقى نظرة عليها.

حبست «مارلى» أنفاسها، بينما «فريتز» ينظر ويتذوق.. كان «الأب» قد عبأ جالونات وجالونات، لكنه كان قلقًا بشأن كل جالون.

استمر «الأب» يقول: كنت أفكر يا «فريتز» فى أن نحفظ ما جمعناه بعيدًا عما جمعه «كريس» قبل أن يرحل، ما رأيك؟ ربما ليس بنفس الجودة، كيف يمكن أن يكون؟ لذا فكرت أنه ربما لم يكن ليريد أن يحصل زبائنه القدامى على بعض من إنتاجنا، لقد أخبرنى عن كل عملائه المحترمين الذين دأبوا على شراء إنتاجه عامًا بعد عام.

وقف «فريتز» يتذوق من الكأس وقال وهو يلعق شفتيه بتلذذ: إن مذاقه رائع جدًّا يا «ديل».

أخذت «الأم» بعضًا إلى المنزل وقامت بقلى بعض فطائر السكر للعشاء.. قال «الأب»: ربما لم تعتقدوا أن أحدًا يريد شرابًا حلوًا للعشاء، لكن الكل قال: «حسنًا إنه شرابنا».

هو و«چو» و«فريتز» أكلوا كمية كبيرة من الفطائر، كافية لإغراق سفينة ـ حسب تعبير «الأم» بعد عودة «الأب» إلى معسكر السكر.. توقعت «مارلى» أن تنام نومًا

عميقًا كما فعلت بالأمس، لكنها لم تفعل، كانت ملابسها نظيفة ودافئة، وكانت متعبة لكنها لم تستطع النوم على الإطلاق.

ظلت تفكر فى السيد «كريس».. تمنت لو أن هناك شيئًا تفعله بجانب العمل والصلاة من أجله، لكن لم يكن هناك أى شىء ـ أى شىء على الإطلاق.. فكتبت رسالة قصيرة يحملها «فريتز» معه، لكن كان صعبًا للغاية أن تُفكر فى شىء لا يعرفه السيد «كريس»، وهى مستلقية فى الفراش، ظلت تفكر فى أن السيد «كريس» يرقد مريضًا فى المستشفى على سرير أبيض مرتفع، إنها لم تره أبدًا راقدًا، وكانت فكرة أنه يرقد مريضًا تعبر عقلها مثل سحابة سوداء. كانت كالتفكير فى نبات الدموية والساحرات، أو فى نوعى نبات «عيش الغراب» المعروفة بـ «الملاك المدمر» و«كئوس الموت».. فى الغابة، كانت هناك دائمًا أشياء كثيرة عجوز ميتة ـ جذوع أشجار تغطيها الطحالب، وحشرات قبيحة تجرى تحت أحجار، وديدان تدمر أوراق القيقب، حتى أن صوتها وهى تلتهمها كان كصوت المطر.

كانت تستلقى مطبقة عينيها بشدة، حتى أن جفنيها بدآ يؤلمانها. ظلت أشياء سامة كريهة وقاسية تزحف على تفكيرها حتى أنها بدأت تشعر بعد برهة أن هناك أشياءَ تزحف على جلدها. أضاءت النور؛ لكى تبحث عنها بين الملاءات، لكن لم تكن هناك حشرات بالطبع!

عندما استلقت مرة ثانية، تركت النور مضاءً، لكن هذا لم يبعد الأشياء القبيحة عنها.. إن السيد «كريس» ذاته قال مرة إنه يجب أن تكون هناك أشياء كثيرة ميتة حتى تكون هناك أشياء كثيرة حية.

كان التفكير فى هذا القول فظيعًا.. ثعالب صغيرة تلتهم الدجاج الصغير اللطيف، والفئران الصغيرة. كثيرًا ما وجدت هى و«چو» قطع عظام ونتف فراء، وريشًا بجوار جحور الثعالب، حتى قطها الأليف كان يلتهم الطيور ما لم تنتبه له. حدث مرة أن التهم أحد طيور «الكاردينال» على عتبة المطبخ.

قال مرة السيد «كريس» وهو يضحك: الآن يا «مارلى»، أعتقد أنك لن تأكلى دبابيس الدجاج بعد ذلك، ولا البيض، ولا شرائح لحم الخنزير.

لقد ضحكوا من هذا القول وقتها. مازالت تسمع ضحكاتهم تتردد فى عقلها. كان قانون الحياة بالطبع ـ كل شىء يلتهم شيئًا؛ كل إنسان يلتهم إنسانًا، حتى السيد «كريس» و«الأب» و«الأم» و«چو» وهى نفسها، كلهم يأكلون دبابيس الدجاج.. لكن، كان هناك سبب وجيه لذلك، كما قال السيد «كريس»: «لكى نظل على قيد الحياة».

أما عن كون السيد «كريس» مريضًا، لم يكن هناك سبب واحد فى هذا العالم تستطيع التفكير فيه. هل سيموت السيد «كريس»؟ لم يكن هناك أى سبب لذلك، كان كبيرًا وقويًا، مليئًا بالحياة كشجرة، يمد يد الخير فى كل اتجاه طيلة الوقت.

لكنها ظلت تفكر فى شجرة القيقب؛ تلك الشجرة الكبيرة التى قطعها؛ لأنها كما قال: «تموت من القلب».

حاولت أن تفكر فى كل الأشياء الجميلة والبهيجة والرائعة التى تعرفها، كتبت قائمة بكل المعجزات التى تتذكرها، وتلت قصائد تحفظها، وغنت بصوت رقيق الأغنيات التى تعلمتها فى المدرسة، وكل الأغنيات التى كان «الأب» يغنيها، لكن لم تؤتِ نفعًا.. فى النهاية، لم تستطع أن تتحمل أكثر من ذلك، فنهضت وتسللت وهبطت إلى الطابق الأسفل، جلست على كرسى بجانب الموقد ووضعت ساقيها تحتها. لكن كان المطبخ باردًا، فكان عليها أن تحرك النار وتضع بعض الخشب والفحم، ورغم أنها حرصت على ألا تصدر صوتًا فقد سمعتها «الأم»، وسمعت هى «الأم» تنهض، وسمعت وقْع أقدامها على السلالم.

قالت لها : أمى، لم أقصد أن أوقظكِ.

«لا بأس، أنا نفسى لم أنم جيدًا، أعتقد أن كلينا متعب ، هذا كل ما فى الأمر».

قالت «مارلى»: لم أتوقف عن التفكير فى السيد «كريس».

حمدًا لله أن «چو» لم ينزل، مما مكنها من البكاء كما تشاء. لم تَفُهْ «الأم» بكلمة لكنها فقط سخنت بعض اللبن، وجلستا معًا وأقدامهما أمام باب الفرن، ترتشفان من كوبيهما اللذين يتصاعد منهما البخار. كانت «مارلى» سعيدة بالصمت والدفء.

كان شعورًا لذيذًا أن تجلس مع أمها بالليل، وساعة الحائط تصدر دقاتها ونار المدفأة تطقطق، والبخار يتصاعد من الإبريق ببطء.

أخيرًا، وضعت «الأم» كوبها الفارغ وقالت: ارجعى معى إلى فراشك هذه المرة، ثم صعدتا السلم معًا.

هذه المرة لم تعرف «مارلى» متى نامت، فعندما استيقظت كانت الشمس مشرقة؛ وكان «چو» قد خرج بالفعل مع «فريتز». فسألتها «الأم» وهى تحثها: هلا أسرعنا بعض الشىء؟ عندما خرجتا قالت: الحمد لله أن الحرارة لم تهبط إلى درجة التجمد، يوم آخر طيب ينتظرنا.

كان النسغ آخذًا فى التدفق، كما لو كانت الأرض لا تستطيع التوقف أبدًا. كيف استطاعوا مواصلة العمل؟ بدا «الأب» شاحبًا تمامًا، أما «فريتز» فكانت وجنتاه محمرتين، ولم يقل شيئًا أغلب فترة الصباح.. وبحلول الظهيرة، كانت «مارلى» و«چو» قد استبد بهما التعب فلم يستطيعا الكلام.

قال «فريتز»: لا أعرف إن كان باستطاعتنا الحصول على بعض المساعدة.. فسوف ننجز المهمة. اتصلت بالجميع، لكنهم جميعًا مشغولون مثلنا.

قالت «الأم»: الآن فهمت لماذا قالت «كريسى» إنها تكره موسم السكر؟!

أحضر «الأب» جهاز الراديو الصغير إلى معمل السكر حتى يظل مستيقظًا بالليل، وحتى يشعر بالصحبة، قال لهم: سمعت فى الراديو هذا الصباح أنه سيكون أفضل عام فى تاريخ «نيو إنجلاند» بالنسبة لموسم السكر!! لم تستطع

«مارلى» أن تتبين من لهجته إن كان سعيدًا أم لا، كان فقط يحاول أن يبدو مبتهجًا.

ثم ذهب «فريتز» إلى البيت مثلما كان يفعل كل يوم.. عندما رأوه عائدًا، كانوا يعملون فى الأجمة الثانية، كان «چو» يحث الجياد على الحركة بالصياح عليها وعندما رأى «فريتز» قادمًا، صاح فى الجياد لتتوقف.

لكن حتى على البعد، أدركوا أن شيئًا ما كان مختلفًا، بدأ «فريتز» يصيح وهو فى منتصف التل: «إنه أحسن كثيرًا اليوم»، كان يلهث لكنه كان مبتسمًا، وحتى «كريسى» قالت إنها قد تأتى إلى البيت لبعض الوقت الليلة، وسألحق بها بعد أن نفرغ من هذه الأجمة.

بعد ظهر ذلك اليوم، كان على «مارلى» أن تضيف معجزة أخرى إلى القائمة، وهى كيف أن دلوًا ثقيلاً أصبح خفيفًا فجأة..

وفى تلك الليلة نامت.

13 «آنــى» ـ تحسس مسدسك

فى الصباح التالى، جاءت زائرة إلى التل. رأتها «مارلى» قادمة. كانت تبدو مألوفة بشكل ما، امرأة يبدو عليها الحزم، ترتدى قبعة موضوعة بإحكام على رأسها، وتلف رقبتها بوشاح صوفى كبير. كانت تخطو بحرص بين الحفر الكثيرة التى يملؤها الطين وكانت تبدو مثل عَزَبة عجوز.

سألت «الأم»: من تكون بحق السماء..؟

فرك «چو» عينيه قائلاً: ياللهول!(*) إنها ممرضة المدرسة: الآنسة «آنى».. لقد ساهمت فى تطعيمنا.. وقفت «الأم» ساكنة، تراقب الآنسة «آنى» وهى قادمة، ثم وضعت دلوها وذهبت لمقابلتها.

كانت «مارلى» تسمع صوتيهما، لكن لم تكن تسمع ما تقولانه، فقد كان صوت الآنسة «آنى» كصوت مدرسة فى فصل لا يلتزم آداب السلوك.

استدارت «الأم» ونادت علينا: «مارلى»! «چو»! كانت تبدو منزعجة جدًا.

قالت: هذه الآنسة «آنى نلسون»، تقول إنها مُكلَّفة من مجلس المقاطعة بالتحقيق فى أسباب الغياب.

يا إلهى! ضابطة الغياب!

قالت الآنسة «آنى»: أتيت لأرى إن كنتما مريضين أنتما الاثنان، وتفحصتهما من أعلى لأسفل بعينيها الحادتين.

(*) ياللهول: صيحة استغراب ورهبة.

منذ فترة طويلة، لم أر شخصين تبدو عليهما أمارات الصحة مثلكما.. قالت «الأم» وهى تقطّب جبينها من القلق: لقد أخبرتها بما تفعلانه، لكن يبدو أنه لا يوجد.. حسنًا، يبدو أنه توجد قواعد.

كانت الآنسة «آنى» توجه نظراتها إلى «چو» وسألته:

هل أخبروك ماذا يطلقون علىّ فى المدينة والمدرسة؟ كانت عيناها تلمعان بحدّة، لكن فمها كان على وشك الضحك، هكذا اعتقدت «مارلى»، لو أنها سمحت له.

قال «چو» مضطربًا: لا لم أسمع أبدًا.

قالت: حسنًا إنهم يدعوننى «آنى» ـ تحسس مسدسك(*)، لا أحد يستطيع أن يهرب من المدارس التى أُشرف عليها ويذهب ليلعب الهوكى..

قالت «الأم»: أنا واثقة أن «چو» لن يرغب فى...، كل ما فى الأمر أننا...، ثم جالت ببصرها إلى حقل السكر.

قالت الآنسة «آنى»: حسنًا، أنا واثقة من شىء واحد، هو أن أطرافى ستتجمد من البرد، ربما نستطيع أن ندخل حيث المدفأة ونبحث الأمر الذى جئت من أجله.

ردَّت «الأم» نعم ـ نعم، بالطبع، وزوجى...، نستطيع أن نخبر زوجى بالأمر. لقد قمت بالتدريس قبل أن نتزوج، وبالطبع أفهم هذه الأمور، ببساطة لن نترك الأولاد يتغيبون لأى سبب تافه.

ردَّت «آنى» ـ تحسس مسدسك: طبعًا لن يستطيع أحد ذلك.

كان «الأب» يضع بعض الأخشاب فى المدفأة عندما دخلنا، فوقفت الآنسة «آنى» على الباب تراقبه.

قالت «الأم»: هذا زوجى.

لكن «آنى» لم تلق بالاً: وقفت تلقى نظرة على المكان بينما تفك الوشاح، قالت: أعترف بأننى قد عشت فى هذا الجزء من المقاطعة طيلة حياتى، ولم أدخل

(*) تحسس مسدسك: تعبير مجازى يشير إلى ضرورة الحرص؛ لأن الشخص خطير.



أبدًا واحدًا من بيوتها، بالطبع أرى الكثير منها على الطريق، يتصاعد منها كل هذا الدخان والبخار. سمعت أنها أماكن لاستخلاص السكر.

رد «چو»: إنها معسكرات سكر.

نظرت إليه وسألته بحدة: أعتقد أنك تعرف كل شىء عنه أيها الشاب؟

قالت «مارلى» لنفسها: رحماك يا رب، لماذا يتذاكى «چو» مع ضابطة الغياب؟

قال «چو»: نعم.. يا سيدتى، أعتقد أننى أعرف كل شىء.

سألها «الأب» مسرعًا: هلا جلستِ قليلاً؟

لكن الآنسة «آنى» لم تجلس لفترة، مشت حول جهاز التبخير وهى تسأل أسئلة، أرادت أن تعرف كمية النسغ اللازمة لصنع جالون من الشراب، وأرادت أن تعرف كمية الخشب التى تبقى النار مشتعلة، أرادت أن تعرف أشياءَ أكثر مما يستطيع أى فرد أن يشير بعصاه عليها ويعطيها الإجابة فى الحال كما تريد. وبمناسبة ارتفاع الرغاوى ترك «الأب» «چو» يقوم باللعبة السحرية، أرادت «مارلى» أن تقوم بها، لكن لوجود ضابطة الغياب من مدرسة «چو» لم تنطق بكلمة واحدة.

قالت الآنسة «آنى»: حسنًا، ما هذا، كيف؟! هذا أعجب شىء رأيته، إننى لم أفكر أبدًا فى النسغ. لماذا لم أفعل أبدًا؟! ظلت تسأل المزيد والمزيد من الأسئلة، ثم أخيرًا عرض عليها «الأب» أن تتذوقه.

وقفت والبخار يتصاعد من الكوب القصدير فى يدها وهى تشمه كأنما يساورها بعض الشك.

قالت: إن رائحته مثل ذرة حلوة تُطهى، لكنه أحلى.. «إن رائحته مثل...»، كانت لديها طريقة فى إنهاء الجمل من وسطها.

قالت «مارلى»: «إن رائحته كالربيع» وقالت ذلك؛ لتساعدها على إكمال الجملة.

حدجتها الآنسة «آنى» بنظرة سريعة وهى مندهشة «نعم. نعم. إنه كذلك فعلاً

ومثل أى صباح ربيعى، أخذت نفسًا عميقًا فوق الكوب وقالت: أو ربما بعد المطر، ومدت لسانها تتذوق حافة الكوب.. كان الكوب ساخنًا، فسحبت لسانها بسرعة.

قال «چو»: دعينى أضع الكوب فى الثلج دقيقة.. فهناك بعض الثلج متراكم خلف معمل السكر.

عندما عاد بالشراب الحلو فى درجة حرارة تسمح بتناوله، كانت الآنسة «آنى» تجلس مع «الأب» و«الأم» على الأريكة، تأكل بيضة مسلوقة.

قالت: أعترف بأننى لم أذق شيئًا بهذه الروعة فى حياتى.. اعتاد جدى أن يقول ـ إننى أتذكر قوله جيدًا ـ: إن أى شىء بخلاف شراب أول دفقة بأول الموسم يعد إهانة لشهيتى، أعتقد أن الناس قد نسوا كيف يمكن أن تكون هذه الأشياء الجميلة!

قالت «الأم» مبتسمة : وبخاصة الأشياء التى يصنعونها بأيديهم، لقد جئنا من المدينة منذ عام مضى، وقلنا ذلك مرارًا وتكرارًا.

فجأة، بدا الاضطراب على الآنسة «آنى»، نظرت إلى «چو» ثم «مارلى»، وبدأت عيناها تلمعان فوق الكوب ثم قالت: إن الأطفال يجب أن يتعلموا هذا، لابد أن يأتى كل طفل هنا ويتذوق بنفسه.. توقفت مرة أخرى، لكن «مارلى» استطاعت أن ترى بقية ما تفكر فيه على وجهها: كل طفل فى المدرسة يجب أن يرى مكانًا كهذا، إن هذا جزء من تراث الأمة الأمريكية، إنه كذلك بالفعل، وهم لا يدرون عنه شيئًا.

قالت «مارلى»: أخبرنى السيد «كريس» أن المدرسين يأتون بتلاميذهم أحيانًا إلى هذا المكان.

قال «چو»: رحلات ميدانية.

قالت الآنسة «آنى»: «حسنًا، يسعدنى سماع ذلك».. كانت عيناها تلمعان بالرضا بعد أن شعرت بالدفء وشبعت مما شربته من نسغ.. لكن، كيف بدأت عملية استخراج السكر؟ أعنى: من اكتشف أن من الممكن الحصول على هذا...؟

أشارت إلى السائل الكهرمانى الداكن فى آخر وعاء وهو ينزل ببطء فى العلبة القصدير.

وأشارت إلى أول إناء طويل فى الخلف حيث ينزل السائل المائى الخفيف من وعاء التخزين.

ردت «مارلى»: يقول السيد «كريس» إن الفكرة بدأت من الهنود الحمر.

استدارت الآنسة «آنى» إليها وسألتها: لكن كيف اكتشف الهنود ذلك؟

لم يعرف أحد منهم كيف حدث ذلك، حتى «فريتز» لم يكن يعرف.. عندما غادرتهم الآنسة «آنى» وأخذت تنزل التل مرة، كان آخر شىء قالته: سأحاول العثور على أى شخص يعرف كيف عرفه هؤلاء الهنود.. وبعد ذلك، وجهت كلامها إلى «الأم»: الآن، لا تقلقى بشأن المدرسة.. فبالنسبة لطفليك لو أصيبا بالحصبة فسيحصلان على إذن، وسيعودان إلى المدرسة ويعوضان ما فاتهما. أرى أنهما يحصلان على جزء مهم من تعليمهما فى أجمة السكر هذه، ولا يهمنى أن أكتب ما أعتقده فى تقريرى للمديرة.

راقبتها «الأم» وهى تغيب عن الأنظار، واستدارت وعلى وجهها ابتسامة قائلة: حسنًا، أعتقد أننا غيّرنا تفكيرها.

قال «چو»: إنه الشراب.

لكن «مارلى» كانت واثقة أنها معجزة.. فكرت «مارلى» كيف أن ذلك مدهش، أن معجزة تؤدى إلى أخرى، ولاحقًا فى المساء عرفت أن ذلك حق، كانوا على وشك الانتهاء من عشائهم عندما دق جرس الهاتف، ردت «مارلى».. فقد كانت تحب أن ترد على الهاتف وتسبق «چو» فى ذلك إذا استطاعت، وكانت «الأم» تضطر إلى نزع السماعة من كليهما، قبل أن يعتقد من طلبهم أنه يوجد حريق بالمنزل.. والليلة بالذات، كان «چو» متعبًا لدرجة أنه لم ينهض من كرسيه.

جاء الصوت عبر الهاتف :هالو.. أنا «آنى» ـ تحسس مسدسك.

«من؟» مرت دقيقة و«مارلى» لا تستطيع أن تتذكر صاحبة الاسم لشدة دهشتها.

«أنا الآنسة «آنى»، السيدة التى جاءت إلى أجمة السكر اليوم ـ ضابطة الغياب».

آه ، نعم.

حسنًا، لقد تحدثت مع مدير المدرسة ومع المشرف العام، قال كلاهما إننى يجب أن أحادث مدرس «چو»، وهو ما فعلته.

قالت «مارلى» لنفسها: يا إلهى! كل هذا؛ لأن «چو» تغيب عن المدرسة.

أكملت الآنسة «آنى» تقول: لقد تحدث المدرس إلى الفصل و...، ربما من الأفضل أن أتكلم مع والدك.

«إن أبى ليس هنا، إنه فى أجمة السكر».

كانت «الأم» تستمع إلى حديثهما، فقالت لـ «مارلى»: سوف أحادثها أنا.

قالت «مارلى»: «إن أمى موجودة».

كان صوت الآنسة «آنى» حادًّا جدًّا وعاليًا، حتى أن «مارلى» كانت تسمع كل كلمة قالتها، بعد أن ناولت أمها السماعة، بل إن «الأم» أبعدت السماعة خمس بوصات؛ حتى لا يؤذى صوت الآنسة «آنى» سَمْعَها. حكت الآنسة «آنى» ما فعلته مع المدير ومع المشرف العام مرة أخرى، ثم قالت: «وافقنى مدرس «چو» على أنه لا شىء فى هذا العالم سيفيد التلاميذ مثل أن يأتوا للمساعدة وأن يساعدوا فعلاً ولا يكتفوا بالمشاهدة أو ربما فقط بعض الأولاد الأقوياء.. قال زوجك إنكم تحتاجون لمساعدة.

اتسعت عينا «الأم» وهى تقول: حقًّا.. نعم.. إننا بحاجة لذلك.

سألت الآنسة «آنى» بسرعة: حسنًا، كم ولدًا تحتاجون؟ لو عرفت من زوجك فلن يكون هناك سبب يمنع أتوبيس المدرسة من توصيل كل الأولاد الذين تحتاجون إليهم لأجمة السكر فى الصباح.

هتفت «الأم»: آه.. هذا رائع، سأذهب من فورى وأسأله هو و«فريتز».

أخبرتها الآنسة «آنى» برقم هاتفها، حتى ترد عليها، وسجلته «الأم» وأصابعها ترتعش.. وضعت السماعة قبل أن تقول الآنسة «آنى» إلى اللقاء للمرة الرابعة، ثم وقفت مكانها لمدة دقيقة، وعلامات الدهشة على وجهها قائلةً: «تخيلى ذلك».

وفى خلال ساعة، كانت «الأم» تتصل بالآنسة «آنى» مرة أخرى، اقترحت أن يأتى اثنا عشر ولدًا أول يوم ثم ينظرون كيف سيكون حال الطقس.. كان «فريتز» يعتقد أن الدرجة يمكن أن تهبط للتجمد فى أى يوم، وأن العمل فى جمع النسغ سيكون مساعدة عظيمة، ثم يمكن أن يحصل الجميع على فترة راحة إذا استمرت موجة البرد، وبعد زوالها نعود للعمل مرة أخرى.

قالت الآنسة «آنى»: لقد قررنا أن يعمل الأولاد بنظام ورديات، لن يتخلف واحد منهم عن دروسه، إذا استمر العمل شهرًا كاملاً أو أكثر.

كانت «مارلى» واقفة بجوار الهاتف، وهى تلكز أمها بكوعها قائلةً: «أمى.. اسأليها لماذا لا تستطيع البنات أن يجئن؟ لماذا؟.. بينما أستطيع أن أحمل عددًا من الدلاء قدر ما يستطيع «چو»!

قال «چو»: لا تستطيعين.

ردت عليه قائلة: أستطيع.

قالت «الأم»: صه.. كلاكما.

كان هناك صمت على الجانب الآخر من الخط، ثم جاء صوت الآنسة «آنى» مرة أخرى، قالت: لقد سمعت ذلك، إننى حتى لم أفكر فى أمر البنات ولا أعرف لماذا لم أفعل فى الواقع.. ثم عاد الصمت لبرهة قصيرة، سوف أحادثهم فى الأمر، وإن كانت هناك بنات يردن المجىء فلا أرى سببًا لمنعهن.

قالت «الأم»: ربما كنَّ لا يردن ذلك فى الواقع.. أخشى أن «مارلى» مختلفة، إنها «غلامية»(*) نوعًا ما.

(*) غلامية: فتاة صخابة تحب أن تلعب ألعاب الصبيان.

قالت «مارلى»: أمى، أنا لست كذلك.

قال «چو»: بل أنتِ «غلامية» جدًّا.

قالت «مارلى»: سوف ألقنك درسًا.

كانت الآنسة «آنى» تضحك عبر الهاتف. كانت لها ضحكة عالية مميزة، واضطرت «الأم» أن تبعد السماعة اثنتى عشرة بوصة حتى لا تخرق طبلة أذنها. قولى لابنتك إننى علمت بأمر الهنود اليوم، راجعت كتابًا فى المكتبة، أرشدنى إلى مكانه أمين المكتبة، تقول القصة إن زوجة هندية كانت تطهو لزوجها ذات يوم بعض الثريد الذى يأكله الهنود، إنه يشبه ثريد اليوم على أية حال ويبدو أنها تكاسلت قليلاً عن الذهاب إلى نبع الماء وحدث أنها تركت الوعاء بجانب شجرة قيقب، كان زوجها قد رشق رمحه فيها، وعلق قوسه كذلك، فاستخدمت ما اعتقدت أنه «ماء الشجر» الذى أخذ يتقاطر فى الوعاء.. وفيما بعد، قال لها زوجها إنه لم يذق أبدًا ثريدًا بهذا الجمال، أطلعته على ما حدث وأرته السائل الذى طهت به.. وفيما بعد، أخذوا يطهون الثريد فى «ماء الشجر الحلو» كل ربيع.

قالت «الأم»: يا لها من قصة ظريفة.

استمرت الآنسة «آنى» تقول: صدقًا ـ اعتقدت أننى لن أغادر مكتب المراقب العام أبدًا ـ فلقد كان مهتمًّا للغاية، لقد عاش فى مزرعة ويتذكر كيف كان جده يستخدم فريقًا من الثيران لسحب القارب المسطح، كانت الأرض طينية إلى حد يعيق الخيول عن القيام بالعمل، فكان يصعد إلى قمة خزان النسغ بنفسه.

استمرت تحكى وتحكى، فقد كان يبدو أن كل إنسان فى المدرسة قد حكى لها قصة.

لم تكد «الأم» تضع السماعة، حتى دق جرس الهاتف مرة أخرى.. كانت «كريسى»، قالت: إن «كريس» تحسَّن كثيرًا، وإنه سعيد بأن موسم محصول السكر يسير سيرًا حسنًا رغم كل شىء؛ مما ساعد على تحسن حالته.

كما أن حضور الأطفال للمساعدة أراحه أكثر.. قالت «كريسى» أيضًا: إن الشىء الوحيد الذى يقلقه هو اضطراركم لهذا العمل الشاق، وبخاصة «مارلى».

أما عن «آنى» - تحسس مسدسك، فقد ضحكت طويلاً، وقالت إنها لم تطِق صبرًا على العودة وإخبار السيد «كريس» بكل شىء.

فى اليوم التالى، مرت حافلة المدرسة كالمعتاد، لكنه سرعان ما عاد مرة ثانية. كان الأولاد والبنات على التل كسرب نحل، واستطاع «فريتز» تنظيمهم، على أساس أن تذهب مجموعة كبيرة منهم معه كل مرة، وكان الأمر أشبه بالسحر، كيف تم تفريغ الدلاء(*) سريعًا فى الخزانات ــ قبل الظهر بوقت طويل، عاد الجميع إلى المدرسة مرة أخرى، حتى «چو» و«مارلى».

لماذا لم تخبرينى لأتمكن من المجىء أنا أيضًا؟ وبكت «مارجى» عندما أخبرتها «مارلى» بحكاية «آنى» والأطفال والهنود وكل شىء.

وفى اليوم التالى، سمحت لها المدرسة بالمشاركة، كان الجو يزداد برودة، وغيرت الريح اتجاهها فهبت من الشمال.. عندما اشتد البرد لدرجة التجمد تلك الليلة، كان هناك قدر قليل من النسغ فى كل دلو؛ لذا لم تحدث خَسارة على الإطلاق.. فقط، كانت هناك جُزُر مستديرة صغيرة من النسغ المتجمد تنتظر فى الدلاء لحين الذوبان مرة أخرى.

استمر الجو باردًا لمدة تقرب من أسبوع.. كتب السيد «كريس» أول خطاب، قبل أن يبدأ موسم الجمع الكبير التالى، يقول فيه: لم أسمع أبدًا بشىء أكثر روعة من هذا فى حياتى، أن يأتى كل هؤلاء الأطفال للمساعدة. كان خطُّه مهتزًّا بعض الشىء، لكن مع توالى السطور ازداد قوة وإحكامًا، حتى كتب اسمه فى ذيل الخطاب كبيرًا واضحًا «كريس»، ثم كتب ملاحظة طويلة تقول: «مارلى»، يبدو أن هناك معجزة أخرى فى تل «مابل».

(*) المفرد: دلـــو.

14 السيد «كريس» يتذوّق السكر

فى اليوم السابق على عودة السيد «كريس» إلى البيت من المستشفى، وجدت «مارلى» أول مظاهر جمال الربيع. كان موسم السكر قد انتهى، وكانت هى و«چو» يساعدان «فريتز» فى سحب الدلاء. كانت هناك زهرة تقف وحيدة فى بقعة مشمسة، فبدت نقطة قرنفلية مضيئة على الأوراق البنية تحت شجرة قيقب.

كانت تبدو كبشارة لشىء.. اقتطفتها «مارلى» بعناية وأحضرت معها بعض الأوراق وبعضًا من التربة كما أخبرها السيد «كريس» أن تفعل، كانت تريد أن تضعها فى أصيص بجوار فراشه.

كانت «الأم» و«الأب» ينتظران عندما عادت من المدرسة. ذات يوم تأخر أتوبيس المدرسة وكان عليهم انتظار «چو»، اعتقدت «مارلى» أنه لن يأتى أبدًا، لكن أخيرًا كانوا فى طريقهم. «مارلى» تحمل أصيصها الصغير، والأم تحمل كعكة كبيرة كتب عليها: مرحبًا بعودتك إلى المنزل يا سيد «كريس».

قالت «الأم»: «كريسى» تقول إن شهيته على ما يرام.

خرجت «كريسى» إلى مدخل البيت لترحب بهم، مثلما فعلت أول يوم.. وبينما يصعدون إلى الطابق العلوى قالت ضاحكة: أصارحكم ـ لم تكن لدىّ ثقة على الإطلاق فى أننا قد نرى هذا اليوم.

وقفت «مارلى» على الباب وتركت الجميع يدخلون أولاً.. كان صوت السيد «كريس» آتيًا من فراشه قويًا كعادته، بضحكته تجلجل فى أذنها، كان يبدو كجزيرة وسط الملاءات وبدا وجهه شاحبًا بشكل غريب.

سأل وهو يمد ذراعيه: أين فتاتى؟ نسيت «مارلى» شكله الغريب واندفعت إليه، فتلقفها مباشرة فى حضنه الذى لم تفح منه رائحة السيد «كريس» أو رائحة الأرض بل فاحت منه رائحة الصابون والأدوية. نعم ها هو. لكن كم كان المنظر قاسيًا! نسيت أصيص الزرع الصغير تمامًا، وعلى الملاءات تناثرت الأتربة والأوراق التى أحضرتها والزهرة القرنفلية اللون الصغيرة المسكينة التى تبشر بالربيع.

قالت «الأم»: يا إلهى! كيف تفعلين شيئًا كهذا يا «مارلى»؟

ردّت «مارلى»: إنها أولى بشائر جمال الربيع، وقد وضعتها فى هذا الأصيص.

جلس السيد «كريس» ينظر إلى الطين البنى وإلى الأوراق التى تساقطت. التقط الوردة من ساقها الطويلة الرفيعة، وقال: إنها جميلة حقًّا يا «مارلى»، لم أحلم بأنك ستجدين واحدة بالفعل، كنت أتساءل: كيف ستأتى إلى الوجود هذا الربيع؟

قالت: هناك براعم كثيرة من زهرة حشيشة الكبد فى طور النمو.

وستكون هناك زهور بنفسج صفراء يوم الأحد.

نظر إلى «كريسى». كانت تمسح عينيها لسبب ما وتمخط أنفها.. ثم قال: أعتقد أننى فى منزلى.. وأعتقد أن كل شىء يبدأ من جديد، أليس كذلك؟

نزعت الملاءة ونفضت التراب من عليها. ووضعت الوردة مرة أخرى فى الأصيص.. تحدث الجميع فى نفس الوقت وكانوا سعداء أن زال الهمُّ، وأنهم معًا

مرة أخرى.. زال الخوف عن «مارلى»، فقد ظنت أنها لو لمست السيد «كريس» أو فراشه لحدث له مكروه، فقبعت على حافة الفراش.

أخيرًا، قال السيد «كريس»: والآن ذلك الشراب الحلو.. يظن «فريتز» أنه ممتاز.. هل تسمحون لى بتذوقه؟

فجأة، صمت الجميع وجاءت اللحظة الحاسمة، أليس كذلك؟ إنها اللحظة التى سيعرفون فيها إن كانوا قد أحسنوا العمل وحصلوا على نتيجة رائعة أم لا.. كان السيد «كريس» يعرف ويستطيع الحكم. كان ذلك من الأشياء التى يتعلمها الإنسان عبر سنوات العمر، وبعد أربعين سنة من مواسم الربيع والعمل وحمل الدلاء وإشعال النيران، بالتأكيد يعرف إن كان الشراب جيدًا أم لا.

نظرت «مارلى» إلى «الأب» الذى كان ينظر إلى الأرض وهو يعبث بإبهاميه.

قال: أخشى أنه ليس فى مستوى إنتاجك يا «كريس»، رغم أننا استخدمنا مقياس الحرارة ـ ربما لأننا استخدمناه ـ أترى، لم نشأ أن نعطى زبائنك من إنتاجنا حتى لا نُسىء إلى سمعتك عندهم، ... «ضحك السيد «كريس»، ولم يضحك أحد سواه حتى «كريسى».. استمر «الأب» يقول: لذا قررنا أن نفصل ما أنتجناه عما أنتجته أنت قبل ذهابك للمستشفى. لم نضع علامة إنتاجك على علبنا.

ساد الصمت لفترة قصيرة، ثم تنحنح السيد «كريس» وقال: «ديل»، لابد أن...

ردت «الأم» بسرعة: كلا.. كلا يا «كريس» أنت تعرف حقيقة شعورنا، إن كل ما سمعه «ديل» منى كان عن مدى تميز الشراب الذى تنتجه، لقد كنت آخذ منك هذا الجالون كل «عيد ميلاد» مكتوبًا عليه: أول دفقة «كريس»، وبإمضائك. لن يتغير شعور «ديل» أبدًا تجاهه.

قال «فريتز»: جاء طلب من ولاية فلوريدا منذ عدة أيام من ذلك الشخص الذى يطلب شحنة خاصة: عشرة جالونات من الدفقة الأولى، وكما قال «ديل» نستطيع ببساطة أن نخبره بما حدث هذا العام.

تقطب جبين السيد «كريس» قليلاً، ثم قال: ماذا حدث؟ هل أحرقتموه؟ أو شيء ما؟

رد «الأب»: كلا وحق السماء، لماذا ظننت هذا؟ لقد كنا نراقبه مثل الصقر، وبسرعة تدفق النسغ، كنا نجمعه في الأوعية ـ فعلنا كل ذلك.

قال «فريتز»: لقد فعلنا ذلك حقًا، أومأ «چو» و«الأم» تعبيرًا عن الموافقة. تذكرت «مارلى» الساعات الطويلة الباردة وشعرت بألم مفاجئ في عضلات ذراعيها، كما لو أن عضلاتها تذكرت هي الأخرى.

قال السيد «كريس»: حسنًا إذًا، دعوني أتذوقه. إنني أتحرق شوقًا لتذوق سائل حلو بعد هذه الأشياء التي لا طعم لها والتي قدموها لي في المستشفى.. لقد خلطوه بماء كثير ووضعوه على فطيرة السكر يوم الأحد الماضي.

نظر «الأب» إلى «فريتز» قائلاً: حسنًا إذن.

توجه «فريتز» ناحية الباب.

هتفت «مارلى»: دعني أحضره.. أنا أعرف مكانه.

قال «چو»: «مارلى»، إنه ثقيل.. لا تستطيع فتاة أن تجر جالونًا وتصعد به السلم.

«تقول ثقيل! جالون ثقيل؟ كيف؟ لقد حملت أربعة جالونات بدون خطأ واحد من تلك الشجرة الكبيرة إلى القارب المسطح وأنت تعلم ذلك!».

بدأ الجميع يضحكون. قال «الأب»: حسنًا، يجب أن أجرى قرعة بينكما بشأن هذا الجالون.. أخذ «نيكل» من جيبه وقال: نقش أم صورة يا «مارلى»؟

ترددت «مارلى» وحاولت أن تفكر في شيء يجعلها تختار وهي واثقة.. فجأة، فكرت في الثعالب وقالت: نقش؛ لأنها تذكرت ذيل الثعالب.

ضرب «الأب» العملة بظفره لأعلى، فطارت ثم نزلت على الأرض تتدحرج، كانت «الصورة»؛ فاندفع «چو» ناحية الباب وهو يصيح صيحة النصر.

قالت «كريسى»: «مارلى»، إن «كريس» لا يستطيع أن يتذوق الشراب الحلو من

ذلك الجالون فى كوب قصدير، أليس كذلك؟ فلو سمحتِ، انزلى المطبخ وأحضرى له كوبًا وملعقة!!

عادت «مارلى» مسرعة فوق الدَّرج حاملة الكوب والملعقة بعناية، بينما كان «چو» لا يزال يجر الجالون.. وقفوا كلهم متحلقين بينما «الأب» يفتح الغطاء الصغير ويصب بعض الشراب الحلو بعناية فى الكوب الذى تحمله «مارلى».

قال: «الآن».

قالت «الأم»: لا تسكبى شيئًا على السرير، حفظكِ الله.

تحركت «مارلى» وهى تحترس لخطواتها حاملة الكوب بكلتا يديها.

مد السيد «كريس» يده وأخذه منها.. كانت «مارلى» والسيد «كريس» يتصرفان بحرص شديد حتى يظن من يراهما أنهما يحملان جرعة من دواء سحرى، كما يحدث فى القصص الخيالية؛ كشراب يتناوله الشخص فيكبر فجأة أو يزداد قصرًا مثل قصة: «أليس فى بلاد العجائب» أو مثل سائل سحرى يتناوله السيد «كريس» فلا يمرض بعدها أبدًا، بل يعيش إلى الأبد.. إلى الأبد.

رفع السيد «كريس» الكوب وقربه من وجهه وأخذ رشفة كبيرة، واحتفظ بها فى فمه لفترة ثم بلعها ببطء، وبعدها علت وجهه ابتسامة ثم قال: «چو»، هل أنت واثق أنك أحضرت الشراب الحلو الذى أعده هؤلاء القوم الأعزاء؟ هل أنت واثق أنك لم ترتكب خطأ وتحضر بعضًا من الشراب الذى أعددته من أول دفقة قبل أن أذهب إلى المستشفى؟

أجاب «چو» بجدية: كلا يا سيدى، لكن كان الجميع يضحكون.

قال السيد «كريس»: أقسم بأننى لم أتبين الفرق ولن أتبينه ولو حاولت عشر سنوات، كان ينظر إلى الكوب بعمق وكأنه ينظر إلى قاع بئر وقال: اللون ــ الرائحة الذكية ــ كل شىء موجود.

قال «الأب»: أظن أنك يجب أن تكون مدرسًا رائعًا.

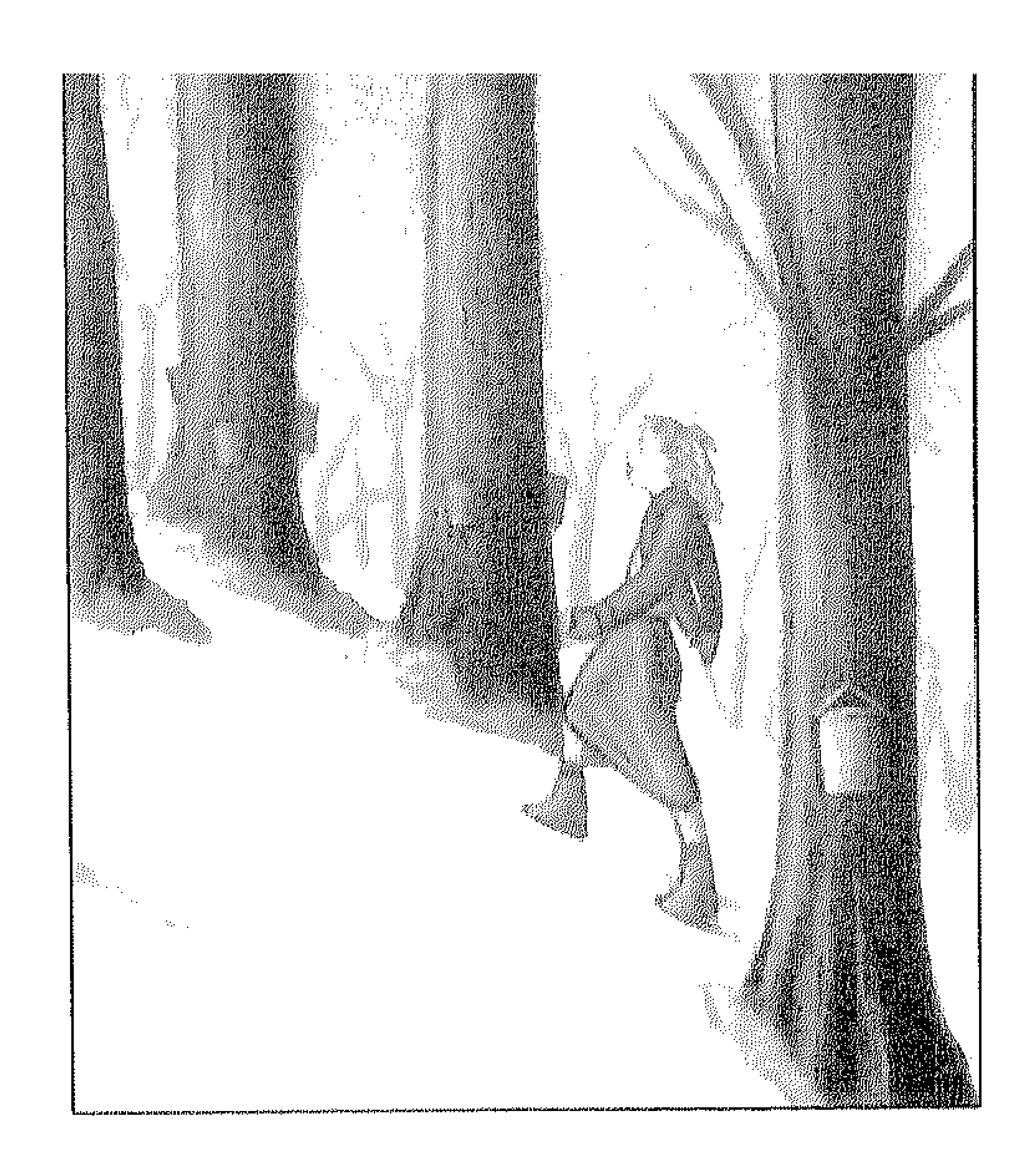


ثم انخرط الجميع فى الحديث مرة أخرى، كم جالونًا أنتجت؟ يا له من محصول طيب ـ كيف استمر الطقس مثاليًا لاستخراج السكر، لأيام وأسابيع. وظهر مقال فى جريدة محلية بـ «بيتسبرج» جاء فيه أن هذا الموسم كان أفضل موسم سكر فى تاريخ ولاية بنسلفانيا.

قال السيد «كريس» وهو يجذب «مارلى» بجوار وسادته: كل هذا لأنك جئت، لابد أنه بسبب مجيئكم أيها الأعزاء.

من فوق رأس السيد «كريس» وعبر النافذة، تطلعت «مارلى» إلى الأشجار حيث ملايين البراعم الصغيرة تخرج إلى الوجود، وهذا يعنى ببساطة أن المعجزات ستدوم وتدوم بلا توقف فى تل «مابل».


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع



MIRACLES on MAPLE HILL by: VIRGINIA SORENSEN

كانت مارلى قد انتظرت هذه اللحظة الخاصة لفترة طويلة، لقد جلست وحيدة فى السيارة، وأخذت تحملق فى الريف المنعزل، والبيت الخرب.

إنه بالتأكيد المكان الصحيح. كل شىء فى الهواء الطلق، وبه معجزات، ليس مزدحمًا وناسه خبثاء وغير شرفاء.

الأب ليس مرهقًا طيلة الوقت، والأم غير قلقة.

وهمست: «أتوسل إليك أن تحدث معجزة».

